ثَمَناً للشَّمْس

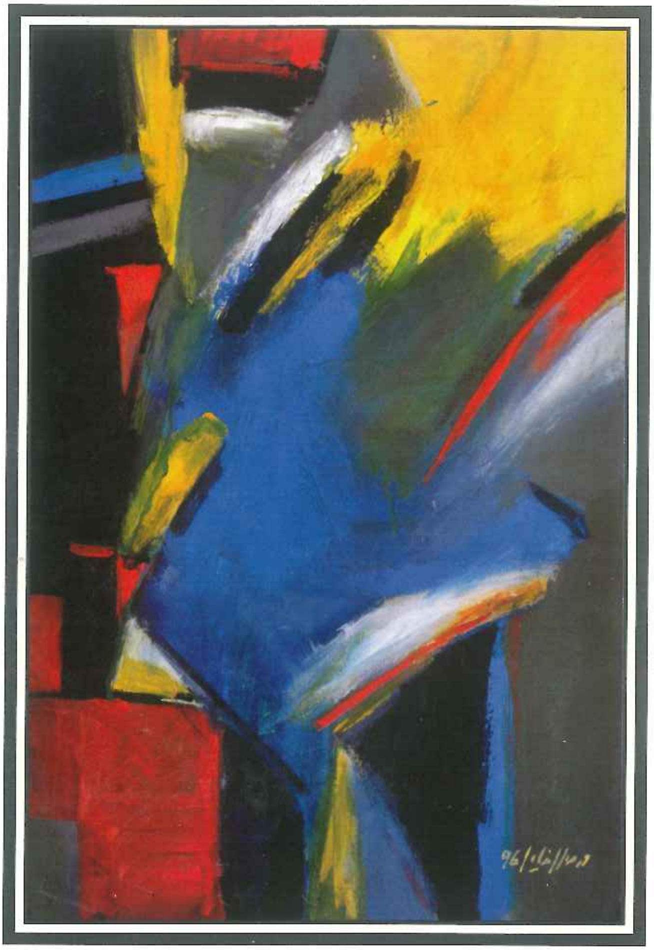

عائشة عودة

ثَمَناً للشَّمْس

عائشة عودة

مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية

رام الله - فلسطين

٢٠١٢

For the Sake of the Sun

Aisheh Odeh

© Copyright: MUWATIN - The Palestinian Institute for the Study of Democracy
P.O.Box: 1845 Ramallah, Palestine

2012

ISBN: 978-9950-312-69-2

جميع الحقوق محفوظة
مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية

ص.ب ١٨٤٥، رام الله، فلسطين

هاتف: ١١٠٨ ٢٩٥-٢-٩٧٢+،

فاكس: ٠٢٨٥ ٢٩٦-٢-٩٧٢+

البريد الإلكتروني: muwatin@muwatin.org

٢٠١٢

لوحة الغلاف: للفنان التشكيلي الفلسطيني محمد صالح

تصميم وتنفيذ مؤسسة **ناديا** للطباعة والنشر والإعلان والتوزيع
رام الله - هاتف ٠٩١٩ ٢٩٦ - ٠٢

ما يرد في هذا الكتاب من آراء وأفكار يعبر عن وجهة نظر المؤلف ولا يعكس بالضرورة موقف مواطن. المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

المحتويات

شكر	٥
تنويه	٧
جاء الفرج	٩
في قلب فلسطين	١٧
عودة إلى المسكوبيّة	٢٧
مواجهات وتحدّيات	٣٥
وتتغيّر الأوضاع	٤٥
مرفأ الأمان	٥٥
ندفع ثمناً للشمس	٦٥
المحاكمة	٧٣
في اتساع الدائرة	٨٥
وتكشف القلوب أسرارها	٩٥
لا بد من الفعل	١٠٣
خبز وماء	١١١
تحت المجهر	١٢١

هل أخرج من السجن؟! ١٣٣
الـ"لا" تنبثق من جديد . . سلام هي حتى مطلع الفجر ١٤٣
قسم جديد، مرحلة جديدة ١٥٣
العالم يأتي إلينا ١٦٥
سجينات اجتماعيات ١٧٥
أعمال وزوّار ١٨٣
أخطر ما واجهنا ١٩١
بالقرب من أنفاس شعبنا ١٩٧
انتفاضة ٢٠٩
عودة إلى الرملة ٢١٧
إنها الحرب ٢٢٧
جديد الحرب ٢٣٥
والخارج أيضاً ٢٤٥
محاولة هرب ٢٥٥
انقلاب سياسي ٢٦١
قلعة الرجال ٢٦٩
مطعونة في العمق ٢٧٩
زيارة السادات وما بعدها ٢٨٧
ما بعد الضيق إلا الفرج ٢٩٣

شكر

أتقدم بالشكر الجزيل لكل من الأستاذ وليد أبو بكر، والصديقة فاطمة حمد، والرفيقة مريم الشخشير، والكاتب صافي صافي، والدكتور أديب جرار، على ملاحظاتهم ونصائحهم التي -لا شك- كان لها أثر على مسار الكتابة. كما أتقدم بالشكر إلى زوجة أخي نجمة فارس، التي اهتمت بي كما تهتم الأم بابنتها. لهم جميعاً، جزيل الشكر والامتنان.

عائشة عودة

odehaish@yahoo.com

تنويه

بعد صدور كتابي "أحلام بالحرية"، تكررت إشارات الأصدقاء إلى أن الكتاب ظلّ دون نهاية، ما يعني ضرورة الاستمرار في سرد التجربة. ومنذ البداية شعرت بأن الملاحظة محقة، لذلك جاء هذا الكتاب استمرارً لسرد الحكاية.

مادة هذا الكتاب، ومادة الكتاب الأول كانت مسجلة في دفاتري بخطّ يدي منذ أواسط ثمانينيات القرن الماضي. لكني لم أشأ إخراجها بلغتها الجافة التقريرية والتوثيقية، بل حَلمتُ بكتابتها بلغة حية، كما التجربة ذاتها؛ يكون فيها صراع وانتصار وانكسار وذبول وتلألؤ وغوص في العمق، لا مجرّدَ أحداث تسجّل.

كان ذلك هدفا يحتاج إلى مُكابدة، فأنا لست أديبة يتدفق قلمها بسيولة وحيوية. نجحتْ مكابدتي في الجزء الأول الذي تناول الاعتقال والتحقيق، فقررت الدفع به إلى النور، وتابعت ردود الفعل التي فاقت ما حلمت به.

على أثر ذلك، سارعتْ مؤسسة مواطن التي أصدرت الكتاب الأوّل إلى توقيع اتفاقية معي، لنشر الجزء التالي منه، فاعتبرت ذلك تأكيدا على النجاح. لكني بدلا من العمل على إنجاز ما يجب إنجازه، اتجهت إلى كتابة المقالات والقصص القصيرة، وأصدرتُ مجموعتي القصصية "يوم مختلف"، بينما بقي كثير من القرّاء يعبرون بوضوح عن انتظارهم بقية السرد، حتى بتّ أخجل من تقصيري.

أحيانا، كنت أقبل على استكمال الحكاية، لكني سرعان ما أهجرها فترات طويلة، إلى أن قرّرت مواجهة تجربة الأسر ذاتها، بالانغماس في قضايا "رابطة نساء أسرن من أجل الحرية"، التي تشكّلت نهاية العام ٢٠١٠، والنتيجة كانت مذهلة: اندفعتُ إلى الكتابة بمثابرة وتواصل طوال العام ٢٠١١، وأنجزت مسوّدة أولى فثانية فثالثة، مستفيدة من ملاحظات الأصدقاء والمعارف. وها أنا أدفع بين أيديكم، زبدة جهدي في التعبير عن تجربتي، آملة أن أكون قد وُفّقْت.

عائشة عودة

جاء الفرج

الخبر

أخيراً جاء الفرج، وأحدث الخبر انقلاباً في أجوائنا. لم يعد الزمن مشبوحاً، ولم تعد الزنزانة قبراً. هي ليلة وستتغيّر الأحوال. خمس منا سيُنقلن إلى رام الله، هذا ما فهمته حياة عبيدو من أحاديث الشرطة. سأكون واحدة من الخمس، هكذا يقول المنطق.

جلستُ فوق البرش. سحبتُ البطانية مجلّلة بها نفسي، أودّ إغماض عين وفتح الأخرى لأجد نفسي وقد غادرت المكان بضيقه وظلمته وعزلته والقلق من الاستدعاء للتحقيق، وقد زاده خسة؛ جو ثقيل معبأ بين بعض الرفيقات.

في رام الله، سأكون قريبة من أمي وأسرتي. تصوّرت أني أحادثهم. قفزت صورة البيت وقد أصبح ركاماً. انقبضتْ روحي، شعرت بهول الحدث ولأول مرة أدركته كجُرْم عظيم؛ فحين نسفوا بيوتاً في قريتي رمون وبيتين المجاورتين أواخر العام ٦٧، أو أوائل العام ٦٨، شعرت بأسف شديد على هدم بيوت كانت جميلة، أما حين

نسفوا بيت عمّي بعد ذلك، فكان همي يتركز في امتصاص تأثير الحدث على الأسرة، ووجوب توفير بيت بديل، أما في اللحظة، أدركت هول الجريمة، وأودّ جعل العالم يقف على قدم واحدة في مواجهة تلك الجريمة. كنت أتساءل بحرقة: ألا توجد قوانين عالمية تمنع عقاب الأطفال والأهل ونسف البيوت؟ ومحكمة لاهاي، ماذا تفعل؟ لماذا لا تتدخل ومنظمة الأمم المتحدة لوقف الجريمة؟ لماذا تقف مكتوفة اليدين؟ كنت أعتقد حينها أن هذه المحافل لا بد أن تقف إلى جانب الحق، وأن المشكلة تكمن فينا، لأننا لا نوضح جرائمهم في حقنا. تصوّرت نفسي أنشط في أروقة الأمم المتحدة، أصول وأجول لأوضّح للعالم هول الجريمة، ثم، وإذا بي قد اختفيت من هناك وانهمكت في التخطيط للهرب، سيكون الهرب من سجن رام الله أسهل، أين سأختفي؟ كيف سأتصرف؟ وماذا سأرتدي؟ وكيف سأتدبر؟! هل أخرج إلى الأردن أم أبقى مختفية في الضفة الغربية؟ آه، لماذا اعترفتِ يا عائشة، ألم تُقْدِمي على المواجهة لأنك رفضت ترك الوطن لهم كما رفضتِ الاختباء وظروفه؟ ألم يكن قرارك هو عدم الاعتراف! ألم يكن صمودك ممكناً؟ بلى، كان الصمود ممكناً، فلماذا اعترفت يا عائشة؟ وتفكرين الآن في الهرب، لتعودي إلى حيث كنت ترفضين! لا، الهرب من السجن شيء آخر، إنه تحدٍّ جديد. سأهرب ولن أخرج إلى الأردن، سأغير اسمي وأغير لبسي وأتزوج وأنجب أطفالاً. سأقوم بالأعمال التي لا تحتاج إلى حركة تلفت الانتباه. سأكتب البيانات والمواد التثقيفية للخلايا كما فعلت في الأشهر الأخيرة. ومع هذه الأفكار، رحت أستعجلُ مجيء الصباح، وأتشوّق للذهاب إلى رام الله، كما لو كنت سأذهب إلى شوارعها لا إلى سجنها، فاكتشف شوقي للمدينة التي تولدت فيها الأحلام الكبرى، وشهدت شوارعُها كل خطواتي، توشوشتُ والصديقات بخفقات قلوبنا، ورسمنا أحلامنا تفيض على مساحة

الكرة الأرضية. حلمنا بالحبّ وبتحرير فلسطين وبوحدة عربية تسمح لنا بالسفر دون جوازات سفر أو مرور على حدود. خرجنا في المظاهرات، وهتفنا لفلسطين وللوحدة العربية.

في النصف الثاني من شهر نيسان، العام ١٩٦٣، شهدت الضفة الغربية مظاهرات مطالبة بالوحدة العربية، ولأول مرّة أشارك في مظاهرة وقد أصبحتُ عضواً في حركة القوميين العرب. قبل يوم من الخروج في المظاهرة، عقدت معلمتنا نهيل عويضة (من قيادات حركة القوميين العرب) اجتماعاً في بيتها القريب من المدرسة. بلّغتنا وجوب المشاركة في المظاهرة، وزوّدتنا بالهتافات، وأطلعتنا على خطة التحرك: ستكون الانطلاقة من مدرسة الهاشمية، سيتوجه قسم من طلابها إلى مدرسة بنات البيرة الثانوية، وقسم آخر إلى مدرستنا - مدرسة بنات رام الله الثانوية. نخرج معهم ونتوجه إلى دوار الساعة ونلتقي هناك مع طالبات معهد المعلمات، وطلاب مدرسة رام الله الثانوية للبنين، وطلبة معهد الوكالة. ينطلق الجميع إلى ساحة المنارة، فشارع القدس، وصولاً إلى مخيم الأمعري ومدرسة البيرة الجديدة، من هناك نعود باتجاه شارع نابلس فشارع الهاشمية وصولاً إلى المنارة.

لم أنم في تلك الليلة. احتدم الصراع بين الإقدام والإحجام: الإقدام يثير فيّ الخوف والرهبة، وسيسبب مشاكل لها أول وليس لها آخر، أمّا الإحجام، فيوفّر السلامة والأمان، لكنه يُلحق بي عاراً لا أستطيع تحمّله أمام معلمتي ورفيقاتي، وسأبقى أخجل من نفسي. انتصر الإقدام.

دخلنا الصفوف. لم نُخْرِج دفتراً ولا كتاباً. كنا في الانتظار. تساءلت المعلمات عن السر. دخلنا معهن في نقاش حول أحلام

الوحدة العربية، وإعلان المعاهدة بين مصر وسورية والعراق، وحين وَصَلنا صوت الطلبة الهادر، تدافعْنا خارج الصفوف. من على أعلى الدرج الرئيس وقفتُ متهيبة كما لو كنت سأقفز حاجزاً عالياً. نظرت نحو غرفة المعلمات علّني أرى معلمتي نهيل، فأستمدّ منها طاقة دفع تمكنني من قفز حاجزي. في تلك اللحظة، خرجتْ نهيل بابتسامتها المعهودة، وبحركة من يدها، زادت منسوب الطاقة عندي للقفز عن سلسلة من الحواجز، وكلمح البصر، أصبحت في الخضمّ الهادر الذي اتجه نحو ميدان الساعة، ومن هناك إلى المنارة، فشارع القدس. عند مخيم الأمعري، انضم أهل المخيم برجاله ونسائه وأطفاله وشيوخه وشبابه إلى المظاهرة. أصبحتْ المظاهرة بحراً هادراً. هتف الجميع "وحدة وحدة عربية"، "لتسقط سايكس بيكو"، "فلسطين عربية" و"فليسقط وعد بلفور"، وهتف أحدهم "فليسقط واحد من فوق"، وردد آخرون: "فليسقط واحد من فوق" (فسرته المخابرات فيما بعد بأنه دعوة لإسقاط الملك). وصلت المظاهرة في طريق عودتها إلى شارع الهاشمية. كان جنود من الجيش العربي (الأردني) قد اعتلوا الأسطح وبدأوا في إطلاق النار تحذيراً، دبت الفوضى وتفرّق المتظاهرون إلا قلة واصلت السير وكنتُ معها، ومن على دوار المنارة، انتهت المظاهرة بعد سقوط أول جريح.

مكبرات الصوت تعلن منع التجول، وأعيرة نارية تحذيرية تطلق بين فينة وأخرى. جريتُ في اتجاه موقف حافلات قريتنا، فلم أجد أثراً لحافلة أو لإنسان وقد أقفلت المحلات والدكاكين. أين اختفى الناس؟ ماذا سأفعل؟ قررت الخروج من رام الله سيراً على الأقدام، وأسرعت الخطى. شيء جديد أشرق في وعيي وملأني ثقة وأنبت لي أجنحة: إحساس بالحرية وبالقوة ينبع من أعماقي؛ وقد ارتفع استعدادي لمواجهة الأخطار، وكان قلبي يلتقط إيقاعاً جديداً

لخطوي على الأرض. أصبحتُ في شارع الهاشمية، رأيت أناساً يجرون نحو مكتب سفريات نابلس المجاور للمكتبة العلمية. لحقت بهم. سأتدبّر مثلهم. كان المكتب مكتظّاً، امتلأتْ غرفته الخارجية بالرجال، والداخلية بفلاحات من قري سنجل وترمسعيّا، لم يكن بين الجموع أحد من قرى الخط الشرقي إلا إياي.

كنت أفكر ما إذا كان عليَّ البقاء هناك، أم يتوجب الخروج والسير نحو قرية بيتين، وإذا بي أسمع صوتاً يسأل عني، نعم عني بالذات (عائشة عودة). قفزتُ. كان "بهجت" ابن ابن عمي. بهجت كان طالباً في السنة الدراسية نفسها، شارك مع أبناء قريتنا في المظاهرة. تفرّقوا مع بداية إطلاق النار والتحقوا بالحافلات التي غادرت المدينة في الحال. حين أصبحوا خارج المدينة وتمكنوا من التقاط أنفاسهم، تذكّر أحدهم أنه رآني مستمرّة في المظاهرة. أوقف بهجت الحافلة وعاد يبحث عني. سرنا في الشارع الرئيس الخالي تماماً إلا من الطلقات النارية تئز من فوق رؤوسنا. وصلنا قرية بيتين حيث بيت خالتي، بينما واصل بهجت سيره إلى قريتنا دير جرير.

غفوت في انتظار الصباح الجديد.

حلم

رأيتهما؛ نائلة وعودة يمسكان بأيدي بعضهما ويسيران على حافة مرتفعة، أفلتت نائلة يد عودة ومدت ذراعيها متأرجحة في لعبة توازن كانت تلعبها كلّما مررنا من جانب حافة. خفت من سقوطهما واندفعت نحوهما، لكنهما كانا يبتعدان كثيراً. صحوت من نومي وقد سيطرت صورهما على تفكيري. ماذا ينتظرهما في قادم الأيام؟ ماذا سيحل بهما إذا نسف البيت؟ ونائلة التي نقلتُها

إلى مدرسة عين يبرود حيث كنت أدرّس، كيف ستذهب وحدها إلى هناك، أم ستعود إلى مدرسة قريتنا؟ وكيف سيؤثر ذلك عليها مع نهاية العام؟

كانت سامية الطويل تنام على البرش المجاور، أزاحت الغطاء عن وجهها، وكنت قد أزحته بدوري. همستْ بأن النوم قد جفاها، خرجت نحنحة، فهمناها طلباً بعدم الإزعاج. أغمضنا عيوننا، على أمل النوم ليأتي الصباح.

وجاء الصباح

سمعنا أصواتاً وضجيجاً. حضر ضابط شرطة ومعه شرطيان آخران، من ورقة في يده قرأ: رسمية عودة، غابت رسمية مع الشرطة في الممرّ المعتم الطويل، عادوا من جديد؛ عائشة عودة.

في نهاية الممر، انتشر جنود وبينهم جندية واحدة، علّق جندي مستهزئاً: "يا هلا بالمخرّبة". قرأ آخرُ اسمي من ورقة يحملها بيده. قيّد جنديّ آخر يديّ بالأصفاد، وآخر عصب عينيّ، ثم دفعني وصرخ: انزلي الدرج! عند هذه الصرخة بالذات، أحسست بقهر كبير، كيف يقيدونني ويعصبون عينيّ ثم يصرخون بي لأنزل الدرج؟ آه، إنها المعادلة المختلة، الناتجة عن انتصار معتدٍ وهزيمة صاحب حق.

أمسكت المجندة بذراعي، وأنزلتني الدرج وصولاً إلى زنزانة شرطة، كانت في الانتظار. جلستُ على مقعدها الحديدي إلى جانب رسمية. همست رسمية بأن الدكتور صبحي غوشة يجلس إلى جانبها، صرخ جندي؛ ممنوع الكلام أو الهمس.

د. صبحي غوشة أعرفه كأحد قياديي حركة القوميين العرب، وأعرف أخاه منذر الذي كنت وإياه أعضاء هيئة إدارية لاتحاد طلبة فلسطين، فرع الضفة الغربية الذي أسّسناه العام ١٩٦٥، على أثر افتتاح مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في القدس. جاؤوا بمريم الشخشير، ثم بسامية الطويل، وأخيراً بليلى عودة، وتكرر منع الكلام والهمس.

تحرّكت الزنزانة وتحرّك الخيال، مستمداً قصصاً من مسلسلات كنتُ أتابعها في إذاعة القاهرة وإذاعة صوت العرب، فربما يتم ترصد السيارة ويُنصب لها كمين ويتم تحريرنا! لكن السفر طال وأطلّت الظنون برأسها، وامتلأ الزمن قلقاً وحيرة، فإلى أين يأخذوننا؟ هل يريدون نفينا إلى مكان بعيد لا يعلم به أحد؟ يقيناً، أن وجهتنا ليست رام الله. مددت يديّ المقيدتين وزحزحت العصبة عن عينيّ قليلاً. كانت الزنزانة مصمتة، فلا تمكن رؤية شيء في الخارج. كانت مريم قد سبقتني إلى إزاحة معظم العصبة عن عينيها. سامية الطويل وليلى عودة على المقعد المقابل وبجانبهما مجندة وجندي يحتضن سلاحاً بالقرب من باب الزنزانة. الدكتور صبحي غوشة مقيّد اليدين، غير معصوب العينين.

همستُ لمريم: يبدو أننا غير ذاهبات إلى رام الله؛ فهمست: ربما إلى نابلس. أراحني الاحتمال وفكرت: عظيم، هناك ابن عمي أحمد وكثير من رفاقنا الذين اعتقلوا في فترات سابقة؛ ساجي سلامة، وعادل سمارة، وأحمد دخيل، وأبو عرب، وأبو الفدا، وآخرون. صرت أتخيل قصص حب كما في المسلسلات الإذاعية التي كنت أتابعها عن النضال في اليمن الجنوبي والجزائر.

قطعت مريم حبل الصمت حين صدح صوتها :

يا ظلام السجن خيِّم

فانطلقت حناجرنا بنغمة واحدة :

إننا نهوى الظلاما

ليس بعد الليل إلا

نور فجر يتسامى . . . .

كان النشيد سحراً شقّ الحيرة ، وهرب القلق ومزق غلاف الجبروت والقهر الذي فرضه الجنود من البداية . طلب الجندي الجالس إلى جانب السائق أن نسكت ، لكننا واصلنا الإنشاد وقد حلّ التحدي . طلبت المجندة أن نخفض أصواتنا ، ففعلنا .

أخيراً توقفت السيارة ، نزل السائق والجالس إلى جانبه ، فتحوا باب الزنزانة ، نزل الجندي ثم أنزلونا بينما بقي الدكتور صبحي في الزنزانة .

في قلب فلسطين

مكان مجهول

كأن الشمس قد اقتربت كثيراً من الأرض، لم أستطع فتح عينيّ، وبحركة تلقائية، رفعت يديّ المقيدتين أحتمي بهما من وهج الشمس، بعد أن تآلفت العيون مع الضياء، جالت لاستطلاع المكان؛ الأرض خصبة وقد نما فيها الربيع إلى مستويات لم أشهدها من قبل إلا في الأغوار، لا أثر لأبنية في المنطقة، لكن شارعاً يمرّ بالقرب منها. على اليمين سور إسمنتي طويل وبارتفاع يتجاوز ثلاثة أمتار، ومن فوقه مثلها من الأسلاك الشائكة وأبراج مراقبة. بوابة سوداء ضخمة تتوسط السور تعلوها يافطة كبيرة بأحرف عبرية، لو كانت حياة عبيدو معنا لقرأته، فأي سجن هذا؟ ملت إلى رسمية وسألتها إن كانت تعرف المنطقة، لكن المكان مجهول لنا. فكرت في المشقة التي ستتكبدها أمي حين تجيء لزيارتي. انتابني إحساس بالذنب تجاهها. لكن المكان الجديد يولّد الرغبة في الاكتشاف والمعرفة. فاشرأبت جميع حواسّي.

وقفنا أمام البوابة السوداء ففُتِحَت فيها طاقة صغيرة، ومن ثَمّ بابٌ صغير، وأطلت منه مجندة ذات شعر أصفر فاقع، نحيفة وقد برزت عظام وجهها وحوضها كما لو كانت تعاني من مجاعة. مرّ في ذهني خوف من حرماننا من الطعام، في هذا المكان!

حال عبورنا البوابة، فكّت قيودنا، ومجندة ثانية طويلة وممتلئة، ذات شعر نحاسي كانت في انتظارنا، حين تحدثت ظهرت في فمها سن ذهبية. فتحت النحيفة ذات الشعر الأصفر، بوابة أخرى من قضبان على بعد عشرة أمتار تقريباً وتقدمتنا النحاسية ذات السن الذهبية، لنسير خلفها فوق ممر ضيّق وطويل. المنظر العام لا يوحي بصفة المكان، على يميننا مباشرة بناء متواضع من الأبنية الجاهزة. على شمالنا عدد من أشجار الكينا ومساحة واسعة من أرض بور. المساحة واسعة وشبه خالية إلا من مبنيين يقعان في الوسط، أحدهما على شكل كوخ طويل يضمّ عدداً من الأبواب في صف واحد، وإلى الغرب منه وعلى امتداده، بناء إسمنتي من طابق واحد، يشكلان معاً مظلة لحرف (T)، على يمين الممر ساحة خضراء مزروعة بالنجيل الأخضر. دقائق وأصبحنا أمام الكوخ. اعتلينا ثلاث درجات: خطوتين أو ثلاثاً، وكنّا أمام الباب الأوسط. مكتب فيه امرأتان؛ إحداهما خلف مكتب قريب من الباب، تلبس الخاكي، نحيفة وضئيلة الجسم، سمراء ذات عيون واسعة وأنف كبير، أما الثانية فبملابس مدنية، وخلف مكتب ضخم يقع في الصدر، ذات بشرة بيضاء وعيون خضر وشعر أسود فاحم ومنسدل. جلست بجانبها المجندة النحاسية ذات السن الذهبية، متأهبة كقطة.

قُدّمتْ الملفات للمرأة البيضاء فبدأت تتصفحها، بينما المرأتان الأخريان تراقباننا. تكلمت المرأة البيضاء مع الذي قدم الملفات

باللغة التي لا نعرفها، فانسحب هو ومن معه. شخصت العيون إلينا. طرحت المرأة البيضاء سؤالاً ترجمته المرأة النحاسية، عما إذا كنا نعرف اللغة العبرية؟ ثم طرحت سؤالا آخر:

- لماذا جئتن إلى السجن؟

قلت في نفسي؛ (إذن هو سجن).

- نحن لم نأتِ إلى السجن.

عَلَت الدهشة الوجوه ونوع من الابتسام، كأنما استظرفن الإجابة. طرحت المرأة البيضاء سؤالها التالي: حسناً، لماذا أتوا بكن إلى السجن؟

- اسألي من جاء بنا إلى السجن.

زادت الدهشة في العيون ولوّنت الوجوه.

- لا بد أنكن تعرفن، وأود المعرفة؟
- اقرئي الملفات التي أمامك.
- هل تخجلن من عملكن؟
- مَنْ يناضل من أجل حرية وطنه وشعبه لا يخجل، بل يفتخر.

هزت رأسها ونظرت النسوة إلى بعضهن وتحدثن بلغتهن، ولم يسترسلن في الأسئلة، ثم انهمكن في العمل.

سألتْ مريم: ما اسم هذا المكان؟ أجابت ذات السن الذهبية: نفي تيرتسا.

لم التقط الكلمة بوضوح، كان اسماً غريباً ولا دلالة له، فزاد الأمر غموضاً. فكرت؛ أين يقع هذا الـ. (لم أستطع لفظه) في فلسطين؟ أليس له اسم عربيّ؟ الاسم الذي صعب لفظه أو تذكره،

خدش جانباً عميقاً في نفسي ولم أكن أدرك بعد، أنهم ألغوا الأسماء العربية وأطلقوا عليها أسماء تخصهم.

إنه سجن الرملة!

بعد إنجاز العمل المكتبيّ، قامت المرأة النحاسية، وطلبت منا اللّحاق بها. اتجهت بنا خلف البناء الذي كنا فيه وكانت المفاجأة: سارة جودة وإلى جانبها فاطمة البرناوي دون شك، تجلسان بقرب بعضهما وقد ابتعدتا قليلاً عن مجموعة أخرى من النساء تحلقن في مساحة مفتوحة من الأرض، وفي الأيدي قطع قماش يطرزن عليها. كدت أجري نحوهما لأضمهما لولا ضرورة الانضباط. همست لمريم وكانت تسير إلى جانبي: "نحن في سجن الرملة" سألتني: كيف عرفت؟ - سأحدثك فيما بعد.

كوخ كبير أسْوَد، ذو سقف عال، صُفّت على رفوفه ملابس وبطانيات وشراشف ومخدات بترتيب. مسؤولة المخزن امرأة نحيفة ومجدورة الوجه، عصبية الملامح، عيونها الواسعة تتحرك بقلق، تضم شفاهاً امتلأت أخاديد كأنها لم تعرف الابتسامة قط، أنف مسيطر على وجه بلا وَجَنات. طلبت خلع ملابسنا، وارتداء ملابس السجن. ها هي ملابسنا التي تشير إلى أننا كنا هناك، تنزع عنا، وملابس مختومة بأحرف غريبة وكبيرة وبلون أسود، تشير إلى دخولنا إلى عالم مجهول.

كانت مسؤولة المخزن قد أعدت صرة لكل واحدة منا تحوي غيارين اثنين؛ داخلي وخارجي وبشكيرين ومنشفة وشرشفين وبطانيتين، وصابوناً وكأس بلاستيك. قبل أن تحمل كل منا صرّتها، فاجأتنا

المرأة مجدورة الوجه، بوجوب رشّ رؤوسنا بمادة (دي. دي. تي.) خوفا من القمل كما بررت، حين رأت رد فعلنا، وبشكل خاص ردّ فعل سامية التي انكمشت وصرخت برعب: لا لا مش معقول، مش ممكن!

شخصياً، ورغم مقت الإجراء، بررت ضرورته، فإقامتنا في المسكوبية أورثتنا القمل فعلاً. أصرّت سامية أنه إجراء لإهانتنا، وليس حرصاً على النظافة، فالنظافة تحتاج توفير الماء والصابون فقط. بكت سامية كلما تذكرت الحدث.

حملنا صررنا وسرنا خلف المرأة النحاسية باتجاه البناية الإسمنتية، ففتحت مجندة ثانية بوابتها الرئيسية ثم بوابتين أخريين من قضبان حديدية داخل المبنى. ممرّ طويل مضيء ونظيف، طليت جدرانه وعلى ارتفاع يزيد على المتر، بلون أخضر حشيشيّ، وكذلك الأبواب المقفلة من على جانبي الممر، وفي نهايته، فتح باب كتب عليه الرقم ٧، ومن ثم أُقفل خلفنا.

في قلب فلسطين

في الغرفة ثلاثة أسِرّة حديدية كل منها من طابقين، وفيها ست خزائن صغيرة، كتلك التي يمكن أن توضع لطفل، وقد صفت فوق بعضها فشكّلت عمودين متوازيين، مساحتها تقل عن أربعة أمتار طولاً وثلاثة أمتار عرضاً، فيها حمّام بمرحاض ومغسلة ومرش. اندفعت سامية تبحث عن الماء لتغتسل بينما اندفعنا نحو الشباك الذي ارتفع عن الأرضية ما يقارب المتر، وامتدّ حتى السقف بعرض قد يقلّ عن نصف المتر، وهناك طاقتان أخريان بشكل عرْضي، تقَعان تحت السقف مباشرة بارتفاع ٣٠ سم تقريباً، وتلتقيان مع الشباك

الأول بزاوية قائمة. اعتلينا الطابق الثاني من الأسرّة، لمشاهدة الفضاء الخارجي، مساحة من الأرض البور خلف الشبابيك، نمت فيها أعشاب وأزهار بريّة كبيرة تشير إلى خصوبة الأرض. إنها أرض الرملة، وقلنا: نحن الآن في قلب فلسطين! صفقنا وهللنا واحتفينا لكوننا في قلب فلسطين.

خرجت سامية من الحمام فغنينا لها "طلع الزين من الحمام"، ثم تناوبنا على الاستحمام، واحتفينا باستنشاق الهواء برئتين نظيفتين، وأخذنا نعد الدقائق للقاء فاطمة وسارة.

عندما صدر الحكم على فاطمة بعشرين عاماً، خصصتُ الجزء الأول من حصصي التي أدرّسها، للحديث عنها في كلّ صباح، وحين أنهض كنت أقول: "صباح الخير يا فاطمة" كأنها تسمعني رغم أني لم أعرفها من قبل، ها أنا أنضمّ إليها في دروب النضال. سأحدثها كيف أصبحت جزءاً من وعيي، وطاقة دافعة لي، وسأنقل لها العواطف التي أكنّها لها، أمّا سارة رفيقة دربي، والموقوفة إدارياً، والتي كان من المفترض أن يفرج عنها قبل ذلك، فها هي ما زالت هنا، لا بأس، فهذا من حظي، سنتحدث قبل الإفراج عنها.

سيل من المسبّات

انتهى وقت العمل وانفضت النساء اللواتي كن يتحلقن ويطرزن، رافق دخولهن المبنى ضجيج وصراخ وفتح أبواب. أطلّ وجهُ فتاة من كوة الباب، بصقت علينا وأسمعتنا مسبات رافقتها حركات بذيئة. توالت وجوه تطل، تهدد وتسبّ، وترددت جملة "عربيوت ملخلخوت" عرفنا دلالتها فيما بعد "عربيات قذرات"، وهي جملة ستتردّد كثيراً على مسامعنا. أثار ذاك الاستقبال غير المتوقع مخاوفنا في قادم الأيام.

فهل سنعيش مع هؤلاء؟ وأي خطرٍ وأيّ جحيم سيحيط بنا؟

بعد فترة خلتها طويلة، وكان الضجيج قد هدأ، أطلّ وجه فاطمة. قفزنا نحو الباب. صرخ صوت عليها كي تبتعد، وجاءت سجانة وأبعدتها وأقفلت الطاقة. توترنا، هل يعقل أن نكون في المكان ذاته ولا نستطيع التحدث مع فاطمة وسارة، بينما تتوارد علينا المسبات والتهديدات؟

نمنا تلك الليلة مستمتعات بالنظافة وبالشراشف البيضاء ومحتارات في غموض الأجواء الجديدة، وقد واظبت السجّانات على تفقدنا باستمرار، يفتحن طاقة الباب، ينظرن إلينا، فإذا كانت إحدانا في الحمام، يسألن عنها ويتسمّرن أمام الطاقة حتى تخرج ويشاهدنها.

في الصباح الباكر، قرع الباب بطرقات مزعجة، طُلب منا النهوض والاستعداد بشكل كامل. فكرنا أن المكان لم يكن إلا محطة عبور، خفت أن أنتقل قبل التحدث مع الرفيقة سارة، أريد أن أسمع منها، كما أريد أن أضعها بصورة ما يجري في الخارج.

بدأ ضجيج فتح الأبواب وتعالت الأصوات، مجموعة من السجانات فتحن الباب ودخل بعضهن وبقي بعض آخر خارج الغرفة. أمسكت المسؤولة ورقة في يدها وقرأت منها اسم كل واحدة منا. نظرت إلى ترتيب الأسرة. فتحت الحمام ونظرت إليه. فتحت الخزائن الصغيرة ونظرت إلى ترتيبها. يا إلهي؛ يقمن بتفتيش كما لو كنّا أطفالاً في مدارس داخلية. إنه سلوك استفزازي ومهين. خرج الجميع وأعيد قفل الباب.

بنت ملك

بعد نصف ساعة تقريباً، فُتح باب الغرفة لتناول وجبة الإفطار، على طاولة جُهّزت لنا خصيصاً، تربّع في وسطها صحن كبير مملوء بالبطاطا المسلوقة، ضحكت حتى سالت دموعي، وقلت للرفيقات المشدوهات: أنا الآن بنت ملك. سأسرد لهن القصة في الغرفة:

> كنت طفلة صغيرة، خلعت أمي بعض شتلات البطاطا من الحاكورة وشوت درناتها في الطابون. حين أخرجتها، عبقت رائحتها التي لا أنساها! أما طعمها، يا إلهي كيف أصفه؟ وحصتي كانت حبّة واحدة فقط! تصورن؛ حبة واحدة وصغيرة! التهمتها وأريد المزيد! أريد أكواماً، بل تلالاً من البطاطا المشوية في الطابون. لكن من أين لأمي كلّ تلك الأكوام المرغوبة؟ لا أحد من القرية يستطيع توفيرها. فكرت: الملك وحده يستطيع ذلك. آه لو أستطيع أن أصبح بنت ملك! سأشتري أكياساً كثيرة من البطاطا. لكن خسارة، لا طابون عند الملك، فماذا سأفعل؟ لا بأس، آكل بطاطا مسلوقة. سأشتري بابور كاز كبيراً، أبو أربعة عيون، وأشتري طنجرة كبيرة لسلق البطاطا، وكلما فرغت طنجرة أملؤها من جديد. هذا الصباح حدثت المعجزة وأصبحت بنت ملك.

قامت الرفيقات يهنئنني وقدمن لي مطالبهن لإيصالها إلى جلالة الوالد التي تركزت على مطلب واحد، لا يردن ملكاً!

الزمن يتثاءب

خرج الجميع إلى العمل وحلّ الهدوء. جلسنا فوق الأسرّة نستمتع برؤية أشعة الشمس الصباحية على الأزهار والأعشاب الطبيعية. بعد ساعة أو ساعتين، بدأنا نتثاءب، والزمن أبطأ في سيره وكأنّه

لا يمضي وهو يتثاءب فاتحاً فمه وهو جائع كوعاء فارغ، لم نجد إلا القصص والذكريات لقيمات قد تسد رمقه. وخصوبة أرض الرملة ذكرتني بأرض العوجا، والشيء بالشيء يذكر.

في ربيع العام ١٩٥٥، كان أخي يعمل في قرية العوجا، وجاءنا خبر بأنه مريض. جهزت أمي حلوياتها من الملاتيت والمطبّق وأقراص البصل والزعتر والبيض المسلوق والزيت والزيتون، ومع الفجر نهضتْ ونهضتُ معها، ومع أول خيوط الفجر خرجنا من بيتنا سيراً على الأقدام. حين بدأت الشمس ترسل أولى خيوط أشعتها، كنّا قد وصلنا أرض النجمة، رحنا نقطعها حتى وصلنا قطعة أرض لنا تقع في نهايتها، ارتحنا هناك قليلاً قبل أن نبدأ في الانحدار الشديد نحو الأغوار. حين وصلنا "راس العين" في العوجا الفوقا كانت الشمس في كبد السماء. عند النبع كانت شجرة تين كبيرة، جلسنا في ظلها. خلعت أمي حذاءها، ووضعت أقدامها في الماء، وغسلت وجهها، كذلك فعلت أنا. نظرتُ إلى أعلى فرأيت الجبال شاهقة وعمودية فخفت! يا إلهي، كيف انحدرنا دون أن نتدحرج من القمة حتى القاع؟ ومع ذلك سحرني المنظر، كانت أزهار القندول الصفراء الكثيفة كشموس صغيرة تجلل السفح الحاد. كيف لم أنتبه إليها أثناء انحدارنا؟

ارتحنا وأكلنا قبل أن نستأنف السير نحو قرية العوجا التحتا، سرنا بمحاذاة المياه الجارية في القناة، وكنت أفكر أني أسير إلى جانب نهر كبير. كانت النباتات والأزهار على جانبيه كبيرة لدرجة أذهلتني! عند الظهر كنا ندخل قرية العوجا، والبيت الأول فيها كان ضالتنا.

كان البيت وسوره من طين. شجرة كبيرة غضّة الخضرة تظلّل ساحته، قناة ماء جارية وعلى جانبيها أشجار حور سامقة تجري من خلفه، نسيم منعش ودفء حنون يلف المكان، أزهار صفراء

أدهشني حجمها فجريت وقطفت بعضها. باختصار، شعرت بأن العوجا جنّة، وتمنيت لو أعيشّ فيها.

جاشت مشاعرنا حول فلسطين السليبة، وأنشدت كل واحدة منا بعض ما حفظت من أشعار، وقصت بعض ما عرفت من قصص. استمر ذلك إلى وقت انتهاء العمل لينتهي الهدوء عندنا ويبدأ طقس السب والشتم والتهديد وبذيء الكلام والحركات.

عصر ذلك اليوم، استطاعت فاطمة، مغافلة السجانة وإحضار علبة شامبو قائلة إنها بدأت بتجميع ثمنها منذ أن قرأت في الجريدة عن اعتقال فتيات قمن بإلقاء قنابل وتفجير عدد من المواقع. خلال الأيام التالية، استمعنا لها عن معاناتها عندما كانت وحيدة بين السجينات الإسرائيليّات، وجميعهن سجينات اجتماعيّات. حدثتنا كيف قمن بضربها وكسرن لها سنين، فاستبسلت في الدفاع عن نفسها، وكسرت اليد التي كسرت سنّيْها. بعد ذلك فقط أصبحن يخشينها ويتزلفن لها. ثم قالت حكمتها التي تعلّمتها على جلدها:

- عليكن أن تكن متأهبات دائماً، للدفاع عن أنفسكن. يعتدين على الضعيفة فقط.

استطاعت سارة التحدث معنا في اليوم ذاته، ربما أقل من دقيقة، فعرفت منها أنّ التوقيف الإداري قد جُدّد لها مدة ثلاثة أشهر أخرى.

عودة إلى المسكوبيّة

مرّ أسبوع وربما أكثر، دون أن نعرف ما هو وضعنا. هل انتهى التحقيق فعلاً؟ هل نحن موقوفات؟ متى ستجرى لنا محاكمة؟ متى سنحصل على زيارات؟ وكيف سيعلم أهلنا؟ لماذا لا نحصل على كتب وعلى أوراق للكتابة؟ سألنا فادعوا جهلهم للأمور مثلنا.

في أحد الأيام، أخذتْنا الضابطة إلى المخزن لارتداء ملابسنا الخاصة، دون أن تجيب عن أيّ استفسار، ثم أخذتنا إلى البوابة الرئيسية للسجن. هناك قيدوا أيدينا وحملتنا سيارة شرطة وانطلقت بنا إلى المجهول. إلى أين؟ لا من مجيب. سيل من الأسئلة والتوقعات والمخاوف انهال على رؤوسنا: ما المستجدات، هل تمّ القبض على رفاق ورفيقات جدد وسيعودون إلى فتح التحقيق من جديد؟

كانت الطريق طويلة، والأناشيد وحدها وسيلتنا لقهر القلق من المجهول. بعد فترة شعرنا بها دهراً، عرّجوا بنا إلى سجن نابلس. هناك تم تبديل المرافقين وساروا بنا من جديد إلى المجهول. أخيراً،

وفي حوالي الرابعة بعد الظهر، حطّ بنا المسير في المسكوبية. بانت كوابيس التحقيق على الوجوه، لكنّهم أدخلونا إلى قسم الشرطة مباشرة دون قسم التحقيق.

قلبها يعرف

وقفنا ننتظر أمام المخزن الذي احتجزتُ فيه أكثر من ٢٥ يوماً. جاء الغريب (الشخص الذي التقيته في الشارع وهو يحمل صورتي يوم اعتقالي) وقال لي: لك مفاجأة يا عائشة، وإذا بأختي تدخل من الباب الخارجي، تمسك بيد نائلة! قال الغريب: دقيقتين فقط كما وعدت. قالت أختي: بس أشوف وجهها.

أية مفاجأة! هل كلمة مفاجأة تكفي للتعبير عن تلك اللحظة؟ احتضنا بعضنا. كانت أختي تقبلني وتتفقدني وطلبت مني تحريك يديّ ورفعهما ثم الدوران حول نفسي، وأنا منذهلة ومستسلمة لطلباتها. تنهدتْ تنهيدة عميقة، انحنتْ ولمستْ الأرض بيدها ورفعتها وقبّلتها وهي تحمد الله، ثم تنهدت تنهيدة تصعب معرفة عمقها.

- لو ما بقولوا انجنّت وزينة، للخيت زغرودة! الحمد لله وألف الحمد لله إلك يا ربي.

ثم قصّت بعضاً من جوانب تنهيدتها:

- كل يوم كانت تصلنا إشاعة: مرّة يقولوا قلعوا إلِك عين، ومرّة يقولوا شلوا إلك إيد، ومرّة يقولوا خلّعوا أظافرك ورموش عنيك، ومرّة يقولوا خلّعوا أسنانك! هلقيت إطمأن قلبي. بدي أرجع بسرعة أطمن أمي، أول ما أصل البيت بدي ألخّ الزغاريد تأجمّع كل الناس عشان أبشر الجميع إنك بخير وإن عيونك وإديك وسنانك سليمة، وإن كل الحكي كان إشاعات. والله لاشتري

حلو وأوزّعه ع الجميع، هلكوا أعصابنا وطحنونا بالإشاعات. لا كنا نعرف الأكل ولا النوم، الليلة هذي بس بنّام.

طحنني حديث أختي: لست أنا من كانوا يعذبونه فقط، بل كانوا يديرون طاحونة شائعات لفرم أعصاب الأهل والناس جميعاً. أعرف تماماً أن تصنيع الإشاعات من صناعة الاحتلال بامتياز، كحرب على روح المقاومة، وبالذات على مشاركة النساء فيها، لكن الجهل والتخلف هو متلقيها ومروّجها ومستهلكها. عاتبت أختي لخضوعها للإشاعات مذكرة إياها كيف كنا نفعل في التصدي للإشاعات التي راجت بعد هزيمة ٦٧.

- والله يختي كنت أقول للناس: مين اللّي شافها تينقل أخبارها؟ مين اللي كان عندها ومنين إلكم هالأخبار؟ بس اللي بنقوله للناس إشي، واللي بنحكيه مع حالنا إشي ثاني، بدك الصراحة، الإشاعات سمّمت حياتنا. كنت أحضرُ كل يوم على أمل إني أشوفك. أبقى مع أهل رسمية وسامية وحياة عبيدو وباقي البنات طوال النهار، ننتظر قدام هلخاربة (المسكوبية)، نهاية النهار إقولّنا واحد منهم؛ اليوم ما في زيارة، تعالوا بكرة، يمكن يكون في زيارة. وكل يوم ع هالمنوال. هذا اليوم، خرجت من البيت وأنا بقول لحالي إني مش راح أرجع بدون ما أرى عيشة حتى لو اضطرّيت أنام قدام (هالخاربة). بعدين فكرت ليش ما أعمل إضراب؟ إجا اليوم نفس الشخص وقال: تعالوا بكرة. قلت له: شوف، مش راح أروّح قبل ما أشوف عيشة، بدي أنام قدام هاللي يجعلها خرابة، وبدي أضرب عن الأكل، أنا مش طالبة أكثر من شوفة وجهها بدون ما أحكي معها. بدي أشوف وجهها وعنيها وإديها.

عاد كل الأهالي وأنا بقيت قاعدة وبقول يا ربي بس لو أشوفها من بعيد، عشان أطمئن عليها، وبعدين يا ربي السجن ما بياكل اللي فيه! حسيت إنه قلبي معلّق بخيط، إذا ما شفتك اليوم، ما بعرف شو يمكن صار فيّ. لما شفت سيارة السجن مرّت، قلبي قلّي إنك فيها. طرت مثل الطير، وشفت ابن هالحلال (مشيرة الى الغريب). قلت له: هيها عيشة في السيارة، بس أشوفها لو لمح البصر. قال انتظري إشوية. شايفة كيف إني درويشة مثل إمي، قلبي بحس وبعرف. والحمد لله إنك بخير. تروح أبشّر إمي وأطمنها.

سألتها عن أمي، قالت إنها بخير والجميع بخير ويجب ألا أقلق عليهم أبداً. وعندما سألت عن البيت إن كان نسف، أسرعت نائلة الصغيرة لتقول: إنتِ يا عمتي ما تفكريش فينا، إحنا كويسين، المهم إنت تكوني بخير، طول ما إنت بخير إحنا بخير، تْذكري هالحكي دايماً. يعني ظلي دايرة بالك على حالك عشان إحنا نظل كويسين.

كرة صلدة من الدمع نبتت في حلقي. كابرت وخاطبت نفسي: كوني قوية يا عائشة أمامها. ضممتها إلى صدري وقبلتها. أعادت أختي الكلام ذاته بنوع من التأنيب:

- مش مطلوب منك تفكري فينا، إحنا فالتين وبندبر حالنا وما تخافي علينا أبداً، المهم إنت ديري بالك على نفسك وعلى صحتك وفكري في حالك بس. (غزتني هذه الجملة دون أن أدرك أبعادها تماماً). استدركت أختي شيئاً وسألتني: كنت أرسل لك أكلاً، هل كان يصلك؟

تجاهلتُ الإجابة، وتدخل (الغريب) الذي بقي واقفاً بجانبنا:

- قلتِ بس عيني تشوفها من بعيد، وصار لك خمس دقائق وأكثَر بتحكي معها. إنت عارفة إني خليتك تشوفيها على مسؤوليتي. ويمكن آكل على راسي عشان أحكيتي معها.
- ألف شكر إلك. إنت صنعت إلي معروف كبير.

توقيف

جلس رجل عسكريّ خلف المكتب. وقفنا صفاً واحداً أمامه. وضع نظارته وقرأ اسم رسمية وعائشة ومريم وسامية، ثم أصدر قراره: موقوفات إلى حين إجراء المحاكمة التي سيحدد موعدها لاحقاً.

أما ليلى عودة، فقد أوقفها سنة وقفاً إدارياً، ما سبب صدمة كبيرة لرسمية بشكل خاص، لأنها كانت تستعجل خروجها لمساعدة والديها الكبيرين في السن، وأختها المريضة.

انتهت المحكمة في دقائق، ونقلنا إلى الزنزانة السابقة. استقبلتنا رفيقاتنا بالأحضان، وعلمنا أنه تم توقيف عزية وحنان إلى حين المحكمة، بينما حياة عبيدو وانتصار بسيسو وبنات القمري ليلى وعائدة تم توقيفهن توقيفاً إدارياً لمدد تتراوح بين ستة أشهر وعام.

كشراع يبحر

منذ الصباح الباكر، ملأت الضجة المكان، وقد امتلأ الممرّ بجنود من حرس الحدود. قال رجال الشرطة الذين فتحوا الزنزانة: انتهت مسؤوليتنا، أنتن منذ اللحظة تحت مسؤولية حرس الحدود. كنّ مطيعات، فهؤلاء لا يعرفون الرحمة.

استدعيت كل اثنتين معاً: رسمية عودة وعائشة عودة.

ما إن خرجنا من باب الزنزانة حتى عُصبت عيوننا بشدة، وقيدت أيدينا بقيود انغرزت في اللحم. طلبنا التخفيف من ضغط القيد، فضربونا بأعقاب البنادق مع مسبّات بذيئة، ودفعونا إلى حافلة كبيرة وهم يطلقون تحذيرات شديدة: كلام ممنوع، همس ممنوع، نَفَس ممنوع! سعل رجل من خلفنا. هاج الجنود وأشبعوه ضرباً ومسبات وقحة وبذيئة، وقالوا إن الكحة ممنوعة أيضاً!

سمعنا حركة وصوت قيودٍ تجر على الأرض، رافقتها تحذيرات قاسية. جيء بباقي الرفيقات وامتلأت الحافلة وأُغْلقت أبوابها. قال أحدهم بصوت متجبّر: كلام ممنوع، همس ممنوع، صوت ممنوع، تنهيدة ممنوع، أنين ممنوع، نفس ممنوع، حركة ممنوع، ولدى الجنود أوامر بإطلاق النار دون تحذير، وقد أعذر من أنذر.

اكتملت دائرة الإرهاب، وأصبح الهواء ثقيلاً كالرصاص، والتنفس صعباً، والقهر مادة ملموسة ولها ثقل الجبال.

تحركت الحافلة ولم يتحرّك الزمن ولم تقطع مسافة، وسعال الشباب يخرج مكتوماً، وعربدة الجنود تزمجر بالمسبّات واللكمات وبجبروت يفوق القدرة على التحمل، فيزداد القهر كثافة وثقلاً.

يا إلهي، متى ستنتهي رحلة القهر هذه؟

مضى دهرٌ قبل أن تتوقف الحافلة، وحين توقفت، أخذت أصوات السلاسل تزحف على الأرض وتفرم الأعصاب.

فَرُغت الحافلة من أصوات السلاسل، فكوا عن عيوننا. لم يكن في الحافلة إلاّ نحن الفتيات، وعدد من الجنود لا يتجاوز الخمسة. كانت

الحافلة تقف أمام بوابة سجن الرملة للرجال. أراد جندي أن يتسلّى فأحضر "جُنْدُباً" وتقدم مني طالباً أن آكله، فرفضت. هدّد، لكني رفضت بهدوء. مزق رفضي شرنقة القهر. تحول الجندي بجندبه إلى رسمية وطلب منها أن تأكله، فرفضت بصوت أعلى وأشد. استدار إلى عزية فصرخت به، كانت صرختها كشراع نشر أذرعه للإبحار. رفع الجندي عقب بندقيته ليضربها، فتحفزنا للدفاع عنها كأننا لم نكن قبل لحظات نئن من ثقل القهر. أسرع جندي آخر ومنعه وطلب منه الابتعاد عنا. كان لذلك التحدي الصغير، أثر عظيم في نفوسنا، كأننا صهرنا قوة عصية على الانصهار.

عاد بقية من الجنود إلى الحافلة، وسارت بضع دقائق، فأصبحنا أمام سجن الرملة للنساء. واجهتنا السجينات الإسرائيليّات بعاصفة من الهتافات المعادية، لكن عددنا تضاعف، وأصبحنا مجموعة عصية على الانكسار، وسيحسب لها حساب في لاحق الأيام.

أصبح عددنا الآن إحدى عشرة أسيرة. ست منا موقوفات في انتظار المحاكمة (رسمية ومريم وسامية وعزية وحنان وأنا) في الغرفة رقم ٧، وخمس موقوفات إداريا قابلة للتجديد (ليلى عودة، ليلى وعائدة قمري، انتصار بسيسو، وحياة عبيدو) في الغرفة رقم ٨ المقابلة.

مواجهات وتحدّيات

القبض على يد

أمام عبث سجيناتهم في مواصلة اعتداءاتهن علينا من خلف الأبواب المقفلة، كان لا بد من الفعل. اختبأت عزية خلف الباب. جاءت إحداهن ومدّت يدها من الطاقة لتقذفنا بالأوساخ، فتم إلقاء القبض على اليد. بدأت السجينة تصرخ وتطلب النجدة وتتوسل إلينا.

- حسناً، أستطيع كسر يدك الآن، وحتى رأسك، هل هذا صحيح؟

هزّت رأسها موافقة وهي تتذلل وتطلب إفلات يدها.

جاءت رئيستهن "شوشانة"، وبدأت تضربها وتشتمها بأسوأ الشتائم. جاءت السجّانات يسألن عما يجري.

المفاجأة التالية كانت في انقلاب سلوك تلك الفتاة تجاهنا ١٨٠ درجة. في اليوم التالي جاءت تعتذر وتطلب الغفران، وادعت أن شوشانة التي ضربتها، هي نفسها التي طلبت منها أن تفعل ذلك، وأن هذا هو شأنها؛ تحرّض ثم تعمل من نفسها قائدة لتضرب وتحاسب!

على أثر ذلك الحادث، انقلب الجوّ وأصبحنا موضع احترام وتودّد من قبل بعضهنّ، يأتين ويحدثننا وينقلن أخبار الأخريات قائلات: هؤلاء "زنوت" ثم يأخذن في شتم دولة إسرائيل (الزناة) كما يصفنها. لكن الرغبة في إيذائنا لم تتوقف. في أحد الأيام، وبعد عودتنا من وجبة العشاء، وجدنا أسِرّتنا قد صب عليها الماء ورشّ فوقها التراب. في مرة ثانية كان الدخان يملأ الغرفة، لأن واحدة وضعت سيجارة مشتعلة تحت إحدى الفرْشات (وكانت من القش)، ثم علمنا أن واحدة من المتهمات بالقتل، تحتفظ بقضيب حديد لضرب إحدانا على رأسها بهدف قتلها! ناقشنا الأمر واعتمدنا التوجيهات التالية:

- يمنع منعاً باتاً لأيٍّ منا، السير منفردة عندما تخرج إلى الأكل (وقت الأكل كان الوقت الوحيد المشترك بيننا)
- يجب أن نبقى في حالة يقظة دائمة.
- علينا التدرب على بعض الضربات والحركات المساعدة للدفاع عن النفس. (أوكلت هذه المهمة إلى رسمية لكونها متدربة على الجودو).
- أن نعمل تمارين رياضة للحفاظ على لياقتنا. (أوكلت هذه المهمة لي).

كان لهذه الأجواء مردود إيجابي، فانشغلنا بالتمارين الرياضية وحركات الجودو. ومن أجل التغلب على ضيق المكان، كنا نقوم بنظام دوري: قسم منا يلعب وقسم يشاهد ويشجع، وهو يجلس فوق الأسرّة. وأما الرياضة، ففي وقت الفورة.

تهمة الكراهية

في أحد الصباحات، وأثناء تغيير الغفارة، أبلغتنا ضابطة الغفارة الجديدة أن علينا أن نكون جاهزات من أجل مقابلة المديرة. جلستْ امرأة تقترب من الخمسين خلف مكتبها، ناهضة الجسم بيضاء البشرة ذات ملامح أوروبية، لبست على وجهها مظاهر الجدية بما يليق بمديرة سجن. أبقتنا واقفات وأخذت تحرك جسمها يميناً وشمالاً من على كرسيها الدوار وهي تتأملنا. غلالة مظلمة مرت على وجهها فقطبت جبينها واستقرت خلف نظْرَتها. وبحركة بطيئة، لبست نظّارتها. نظرت إلى ورقة أمامها وقرأت تعاليم السجن ونظامه. تركت ورقتها ونظرت إلينا من فوق نظارتها وهي تحرك يدها وتمد إصبع شاهدها في حركة تحذيرية من مغبة عدم الانصياع لأوامر السجانة، محذّرة ومكررة أكثر من مرة وجوب طاعة أوامر السجانة وتنفيذها بشكل مطلق، ومهما كانت الأوامر وإلا! كانت كما لو تخاطب مجموعة من الشواذ والأفّاقين، فكان لا بد من قرع الجرس لها.

- على القوانين والأوامر، ألا تمس بكرامتنا، وإلا لن نتجاوب معها.

اتسعت العيون استنكاراً. أزاحت النظارات عن عينيها وقبل أن تفيق من الصدمة أكملنا:

- نحن أسيرات سياسيات، ولنا حقوق تكفلها لنا معاهدة جنيف الرابعة (وأعجبني ذكر معاهدة جنيف هذه التي ستعمل للكلام قيمة خاصة)، والتي تضمن عدم المسّ بكرامتنا الإنسانية. كما تتطلب تزويدنا بالكتب والجرائد والأوراق والدفاتر والأقلام والرسائل، ويجب أن نحصل على زيارات من أهالينا.

ما سمعته لم يدرْ أبداً في خلدها، فالحديث كاد يفقدها صوابها. أمالت جذعها إلى الأمام ووضعت مرفقيها فوق المكتب، وشنت هجوماً صاعقاً:

- أنتن لستن سياسيات. أنتن مجرد قاتلات للأطفال، أعماكن الحقد وكره لليهود الذي تبثه إذاعة "أحمد سعيد" والإذاعات العربية لقتل الأطفال اليهود!

ازداد انفعالها وضربت على وتر الكراهية، (لم نكن نعرف حتى حينه مدلولاً لما ذكرته عنها)، قلن لي: لماذا تكرهن اليهود؟ لماذا؟ .. لماذا؟

كان اتهامها أكثر من استفزاز، وأكثر من هجوم. كان طعناً قاسياً لجوهر نضالنا وأشبه بصاعق فجّر جوانب جدران وعينا. تدفقت صور عدوانهم على حقوق شعبنا دفعة واحدة، وكان لنا هجوم معاكس يتفوق على هجومها.

- أنت غير مؤهلة لإصدار الأحكام على نضالنا، لأنك من دولة قامت على الإرهاب والتزوير والسرقة والمجازر والاحتلال، ويبدو أنك جاهلة أو تتجاهلين المجازر التي ارتكبتموها في حقّ شعبنا، وفقط نذكر لك بعضها؛ مذبحة دير ياسين، ومذبحة قبية، ومذبحة كفر قاسم، والملك داوود....

جنّ جنونها. خبطت المكتب ونهضت من على كرسيها وهي تتكلّم بغضب، وتشير بيدها كي نطرد. لم تعد تسمعنا ولم نعد نسمعها. كان كل منا يصرخ في الآخر، وكان الجو كحمّام قُطعتْ مياهه.

أسرعت السجانات وأعدننا إلى الغرفة وأقفلن الباب من خلفنا. في ذلك اليوم حرمنا من الفورة. وشكّلت تلك المواجهة، حدثا هزّ جدران وعينا. لم نكن نستوعب ما سمعناه. لم نكن نعرف السبب الذي جعلها تتحدث عن كراهيتنا لليهود؟ أهي جاهلة

إلى هذه الدرجة، أم تفترض فينا الجهل؟ أم ماذا؟ أيعقل أنهم لا يعترفون بكلّ ما حلّ بشعبنا على أيديهم، بل يعزون نضالنا لمجرد الكراهية؟ كيف لها أن تجرّدنا من دوافعنا النبيلة، ومن حقنا في النضال من أجل حقوقنا؟ كأننا شعب لم يشرّد على أيديهم! كأنهم بريئون من دم شعبنا! ثمّ تدعي أننا تعلّمنا الحقد والكراهية من الإذاعات العربية!

كانت رسمية أكثرنا انفعالاً. لأول مرة منذ انضمت إلى المجموعة في زنازين المسكوبية، تنطلق في حديث متدفق وحار وشديد الغضب. انفتحت ذاكرتها على قسوة طفولتها والتشرّد الذي عاشته هي وأسرتها. خرج كلامها حاراً يصهر الحديد كأنها تعيش النكبة طازجة في تلك اللحظة. هل كانت هي بحاجة إلى أحمد سعيد أو أيّاً كان ليعلّمها ماذا حصل معها ومع أسرتها! صمتنا نستمع إليها:

رسمية الطفلة تسأل أمها: لماذا يا أمي ليس لنا بيت كالجيران؟

تقول لها أمها، إن لهم بيتاً أجمل من بيوت الجيران جميعها.

- أين هو؟ دعينا نذهب إليه.

تخبرها أمها عن بيتهم في بلدة لفتا، وقصة الفرار والهجرة، وكيف تركوه، ولماذا لا يستطيعون الذهاب إليه. وتسأل رسمية أمها:

- ولماذا تركتموه يا أمي؟
- خفنا عليكم. أبعدناكم عن الخطر.

تلح الطفلة في أسئلتها: ومتى نعود إلى بيتنا يا أمي؟

- عندما يعود أبوك.
- وأين أبي يا أمي؟
- سافر إلى أميركا.

- ولماذا سافر إلى أميركا؟
- ليعمل نقوداً ونعود بعدها إلى البيت.
- لا نريد نقوداً، وأريد أبي، وأريد العودة إلى بيتنا.

تجهش الأم في البكاء، ورسمية لا تستوعب سبب بكاء أمها، لكنّها تحزن كثيراً ولا تنام الليل خوفاً على أمها، وتفكر: ماذا عليها أن تفعل كي لا تبكي أمها؟ تجوب شوارع رام الله التحتا بحثاً عن أميركا، لتأتي بأبيها وتُفرح أمها، ويعودون إلى بيتهم في لفتا.

استرسلت رسمية في حديثها عن معاناتها مع الجوع، فما تقدمه وكالة الغوث لا يسدّ رمق الأسرة طوال الشهر، فتبحث الطفلة عن الطعام في القمامة. عند هذا المقطع، انفجرت في نوبة بكاء، فمرارة الموقف لا يمكن أن تزول، بعد أن تحوّل إلى ندبة عميقة في النفس. بعد دموعها ودموعنا، انتفضت رسمية وثارت وضربت الحائط بقبضتها وقد تغيرت نبرة صوتها وتدفقت كبركان:

- يريدون ألا نحقد عليهم؟ يريدون تجريدنا من انفعالاتنا كما جرّدونا من بيوتنا وأرضنا وكرامتنا؟ هل كنت بحاجة إلى أحمد سعيد كي يقول لي إننا تشردنا من "لفتا"، وإننا عشنا مرارة التشرد وقهره وجوعه وذله؟ وإن ما منعنا من الانهيار والضياع هو أمل العودة إلى بيتنا وقريتنا؟ أم أنه ضحك على عقولنا وأوهمنا أننا تشردنا من قرانا وبيوتنا فصدقناه، بينما نحن نرفل بأثواب العز والهناء؟! هل نحن بحاجة له كي يقول لنا إنهم لحقوا بنا حتى في مخيمات اللجوء؟ أم أن الاحتلال غير موجود وهو فبرك وجوده، ونحن نتوهم؟

لذت مع نفسي أفكر. اكتشفت أن ما قالته تلك المرأة أشدّ هولاً وقسوة مما حصل معنا في التحقيق. هناك، تعاملوا معنا كأعداء

وحاولوا تدميرنا. أثناء التحقيق حاورني الحاكم العسكري على قاعدة سياسية، وكان معترفاً بأهدافنا، لكنه كان يرى أن عليه منعنا من الوصول إليها، أمّا هذه المرأة، فتنسف كامل حقوقنا وأهدافنا النضالية، وتحوّلنا إلى مجرد مرضى بشيء اسمه كراهية اليهود!

قلنا: السجن ساحة نضال.

نريد الزيارة والكتب

- نريد زيارة أهالينا.
- أهاليكن لا يريدون زيارتكن.
- هذا كذب، أنتم لا تعرفون شيئاً عن موقف أهالينا منا. لكنكم لا تعلمونهم عن مكاننا.
- كيف تردن إعلامهم ونحن لا نعرف أين هم؟
- وكيف عرفتم أنّهم لا يريدون زيارتنا؟ وكيف تعرفون الوصول إلى بيوتنا لاعتقالنا!
- لسنا نحن من اعتقلكن.
- أنتم تعرفون من اعتقلنا فاطلبوا منهم أن يعلموهم عن مكاننا. نحن الآن موقوفات. والزيارة حق لنا.

كررنا طلبنا كل صباح ومع كل جولة استلام وتسليم، ووقت تبديل المناوبة.

طلبنا كتباً، فجحظتْ العيونُ وقُلِبتْ الشفاه! نظرت السجّانات إلى بعضهن استغراباً. تساءلت إحداهن:

- هل حقاً تردن كتباً!
- هذا من حقنا، فهل من مشكلة في هذا الطلب؟
- المشكلة أنه ليس لدينا في السجن أيّ كتاب.

- الكتب يمكن شراؤها.
- ليس للسجن ميزانية لشراء الكتب.
- إذن اسمحوا لأهالينا بزيارتنا وإحضار الكتب لنا.
- هذا غير ممكن، وغير مسموح.
- نحن أسيرات سياسيات، ويحق لنا الحصول على الكتب التي نريد.

قررنا خوض معركة الحصول على الكتب لأنها الأهم، وهي وسيلتنا للحفاظ على تنامي وعينا، وعقولنا. سبّبنا لهم وجع رأس لكثرة إلحاحنا، أصبح الجميع وقبل أن نسأل يقول؛ نعرف، تردن كتباً ودفاتر وأقلاماً ورسائل!

كان الطاقم العامل في السجن مكوناً من ثلاث مجموعات، على رأس كل مجموعة ضابطة. لاحظنا أن إحداهن واسمها "لويزة"، تحوز على محبة السجينات الإسرائيليّات فينادينها "ماما لويزة". في أحد الأيام مرّت علينا وحدها، طلبنا منها طلباتنا جميعها. استمعت باهتمام ثم قالت:

- أعدكن بأني سأنقل طلباتكن إلى المديرة، وسأوفر لكن ما أستطيع.

بعد حوالي ساعة، أحضرت دفتراً وقلماً ورسائل، ووعدت بأن تتابع باقي طلباتنا، وخصوصاً الكتب، أما الزيارات، فليست من اختصاص السجن، لأنها من اختصاص من هم أعلى.

كَتَبْنا أولى رسائلنا من السجن، لنكتشف فيما بعد أنها لم تصل قطّ. كان حصولنا على الدفتر حدثاً مهماً. قمت شخصياً بكتابة مجموعة قصص "أرض البرتقال الحزين" لغسان كنفاني، وتفاجأت

من نفسي كيف كانت في ذاكرتي كما لو أني حفظتها عن ظهر قلب. كتبت رسمية ملخصاً لقصة "الأم" لمكسيم غوركي، وسجلنا الكثير من الأشعار والحِكم والأقوال التي تحفظها كلّ واحدة منا.

قهوة وفنجان

من منا لا تتذكر صوت عزية وزوز! مَنْ مِنا لم تكن تطرب وتحلق في السماء حين تسمعها تغني لأم كلثوم! نعم، كان صوت عزية نعمة من الله علينا. أحياناً، تقف خلف الباب وتغني لتسمعها فاطمة البرناوي. فاكتشفنا غرام سجيناتهم بأم كلثوم. وقفت إحداهن خلف الباب ترتشف القهوة وكانت راغبة في الاستماع لأم كلثوم. رائحة القهوة أثارت فينا الشجون والحنين. التقطت عزية الفرصة وقالت إنها في حاجة لفنجان من القهوة ليتعدل مزاجها وتستطيع الغناء. ذهبت السجينة مسرعة وأحضرت فنجاناً من القهوة. لكن عزية قالت إنها لا تستطيع شرب القهوة دون رفيقاتها، وفنجان واحد لا يكفي، فذهبت السجينة وأحضرت فنجاناً آخر، ومن الآن فصاعداً سنرتشف القهوة مع طقوس لائقة بها.

قالت سامية: عزية تزودنا بالقهوة وأنا سأزودكن بالشامبو والبسكويت. سأفتح بالفنجان. صفقنا لسامية وتم نشر الخبر وتدفقت المريدات. أبدعت سامية في الخيال، فتدفقت علينا علب الشامبو وألواح الصابون والشوكلاتة والبسكويت والمعلومات.

أول كتاب

برّت الضابطة لويزة بوعدها وأحضرت كتاباً يتيماً قالت إنها أوصت عليه من سجن "معسياهو" وهو قسم من سجن الرملة خاص

بالسجناء المدنيين الإسرائيليّين. كان الكتاب رواية سخيفة، ومع ذلك قرأناها وعملنا نقاشاً نقدياً حولها. أصبح اهتمامنا بالكتب مثار إعجاب وتعجب، فكيف لفتيات عربيات أن يكن مثقفات! ذلك يتعارض مع الصورة النمطية في مخيّلتهم عن المرأة العربية، التي منبعها عنصري.

وتتغيّر الأوضاع

اشتباك حاسم

على الرغم من التطورات الأخيرة في العلاقة مع السجينات اليهوديات، فإن حقدهن علينا كان سيّد الموقف. في صباح أحد الأيام، وأثناء تناول وجبة الإفطار، بدأت مشادة بين سجينتين يهوديتين، ثمّ حدث اشتباك، حملت إحداهن طنجرة الشاي الساخن وقذفتها في اتجاهنا، فانسكب الشاي على ظهر سامية، وأخذت أخريات يقذفننا بما تيسّر من الأكل والصحون. كان ردّ فعلنا سريعاً: أمسكت رسمية بمن قذفت طنجرة الشاي وبضربة واحدة طرحتها أرضاً، واشتبك الحابل بالنابل، بالكراسي وبالأيدي، وكانت النتيجة صاعقة للسجينات والسجّانات اللواتي أسرعن إلى إدخالنا إلى الغرف وأقفلن الأبواب خلفنا. تبين لنا في اليوم نفسه أن الشجار كان مفتعلاً بهدف الاعتداء علينا. لكن الاشتباك جعل منا بطلات، وسيحسب لنا بعده ألف حساب.

فتيات مثقفات

بعد ساعة تقريباً، تم استدعاؤنا إلى مكتب المديرة، بدت منشرحة الأسارير وطلبت منا الجلوس. قالت بلطف مبالغ فيه: أنتن فتيات مثقفات ومتعلّمات ومن أسر محترمة. (سبحان الله مغيّر الأحوال) بينما بناتنا غير ذلك، جميعهن جئن من أسر مفككة، لم يحصلن على علم أو ثقافة أو حنان، لهذا كان انحرافهن. ما يطلب من المثقف، بالطبع، غير ما يطلب من الجاهل.

ملخص حديثها كان ألا نردّ على بناتهم حتى لو اعتدين علينا! وبدلاً من ردنا، نقوم بإخبار السجّانات اللواتي يسهرن على النظام وعلى الجميع، وستأخذ هي الإجراءات بحقهن!

قلت في نفسي: يا لها من عجوز خبيثة، تعترف بأننا مثقفات ومن أسر محترمة رشوة لنا كي تحول بيننا وبين الفعل، فنجري ونشكو أمرنا لها! بُعداً لها!

- حسناً، إننا نختلف حقاً عن بناتكم ولا مجال للمقارنة، فنحن سياسيّات، ويجب ألا نوضع في القسم نفسه مع فتياتكم، هذا أولاً، وثانياً نحبّ أن نؤكد أننا لن نلجأ إلى الشكوى، وسنردّ على من يعتدي علينا، فما زالت لنا أيدٍ، لكننا لا نعتدي على أحد.

خلعت عن وجهها قناع اللطافة. تجهّم وجهها ورفعت سيف التهديد: هؤلاء فتيات مجنونات، ويمكن أن يُقدمن على أي عمل ضدّكن، ونحن لا نستطيع منع أية فتاة مجنونة من عملٍ مجنون.

قالت تهديدها ثم أراحت نفسها على الكرسيّ وعقدت يديها على صدرها وأكملت: أنتن حاقدات على اليهود، لقد علموكم الحقد

علينا في المدارس والإذاعات، وها هو حقدكن الأسود يتوجّه ضد هؤلاء اليهوديات المسكينات!

كيف تقلب هذه المرأة الحقائق! أنحن اللواتي نتصرف بحقد أم هم! كيف تصرّ على تجاهل قضيتنا وتحوّلها إلى تربية على الكراهية؟ يا لها من امرأة كريهة!

- نستغرب حديثك عن الحقد، فتصرّف بناتكم ضدّنا هو دليل على تربيتكم لأجيالكم على الحقد.

أسرعت وختمت بتحذيرنا من الإقدام على أي عمل، والويل كلّ الويل إن لم نسمع كلام الشرطية!

الصحافة تزورنا

بعد أيام حضرت المديرة ومعها صحافيون، سألونا عن التعذيب فحدثناهم. جنّ جنونها وبدأت توبخنا وتصفنا بالكاذبات! حال مغادرة الصحافيين، استدعتنا (رسمية ومريم وأنا) إلى مكتبها وحاكمتنا بتهمة الكذب بشأن التعذيب (والإساءة إلى دولة إسرائيل التي لا تعذيب فيها!)، فهي دولة ديمقراطية وحضارية، لكن قلوبنا ممتلئة حقداً. وبسبب من كذبنا وحقدنا، قرّرت نقلنا إلى قسم النظارة (الميون).

غريبة هذه المرأة! إن لها عقلاً (مفتولاً) كما قالت مريم الشخشير. فمن الكاذب؟ أنحن أم هي التي تدّعي أن لا تعذيب في دولتها؟ كيف قرّرت أننا كاذبات؟ أتعرف ما واجهناه من تعذيب أكثر مما نعرف؟ وهي أكثر جنوناً حين تطالبنا بالحفاظ على سمعة دولتها!

النظارة غرفة مساحتها ١٦ متراً مربعاً تقريباً، مكتظة بأسرة صدئة من طابقين. بسقف من إسبست يحوّل جوها إلى فرن مشتعل، تجري بين شقوقه الجراذين ومختلف أنواع الحشرات. أرضيتها صبّة إسمنتية مشقّقة. لها مرحاض ضيق. أمّا الجيد فيها فحوشها: مساحته تعادل مساحة الغرفة، وفي وسطه شجرة صنوبر، ستغرينا بالكسل والجلوس في ظلّها والتعرّض للشمس معظم ساعات النهار، إضافة إلى الاستمتاع برائحتها تعويضاً عن ليل يمضي في مطاردة الحشرات والفئران. ومشاغل السجن قائمة إلى جانب النظارة، لذلك تفاجأنا في اليوم التالي بطاقة باب الحوش تفتح ويطلّ منها وجه عزية وزوز!

- كيف وصلت إلى هنا يا عزية؟
- هل لديكن شكّ في ذكائي بحيث أقف عاجزة عن التواصل معكن؟

كانت عزية قد طلبت الخروج إلى العمل. استغلت استراحة العاشرة لتطل علينا. رأتها السجانة. صرخت بها وأسرعت في إبعادها، لكن عزية صرخت في السجانة أن من حقها الاطمئنان على صديقاتها. منعوها من الخروج إلى العمل بعد ذلك.

لست أنا السجينة

في هذه الأثناء، جاء محامٍ لزيارتي. قلنا: فاتحة خير. لم نعد معزولات عن العالم، رغم أن أهلنا لم يزوروننا بعد. ها هي الصحافة تزورنا، وها هو محام جاء لزيارتنا. جلس في المكتب، رجل بدا على أبواب الخمسين من عمره. وقف مسلّماً ومعرّفاً على نفسه: المحامي أنطون جاسر.

المحامي أنطون جاسر! ابن قرية الطيبة المجاورة لقريتنا، أشهر من نار على علم. عرفت عنه قصصاً كثيرة دارت حول براعته وقدرته على تبرئة المتهم، حتى لو كانت تهمته ثابتة، فيخرجه منها "كما تخرج الشعرة من العجين"، وبسبب هذه الشهرة، يضرب المثل بارتفاع أجره، فيقال لمن يطلب أجراً مرتفعاً: "ليش كاين أنطون جاسر؟".

فكرة ارتفاع أجره أخافتني، فمن أين سيدفع أهلي؟ فكرت للحظة أنه قد يكون متبرّعاً بدافعٍ من الوطنية والجيرة!

بعد المداولة معه حول التهم الموجه لي، واحتمالات الحكم، سألته عن التكاليف.

- خمسون ديناراً للجلسة أو الزيارة الواحدة.

أجفلتُ. فهذا يعادل ضعف معاشي الشهري الذي كنت أتقاضاه من مهنتي في التدريس. لاحظ ارتباكي فتدخل: على الأرجح أنها لن تدفع من قبل أهلك.

قلت في نفسي: حتى لو كانت من قبل الجبهة أو من أيّ طرف آخر، لماذا أكلفهم هذه المبالغ! سألته: هل ستكون قادراً من منع إصدار المؤبد بحقي؟

- أشكّ في ذلك، ولم أدافع في محاكم عسكرية من قبل، وحسب معرفتنا، فإن أحكامهم يحدّدها المحققون، أما المحكمة، فهي صُوَريّة.
- لماذا إذن قبلت الدفاع عني؟
- طلب أهلك مني ذلك.

ساد صمت، وكنت أفكر، لماذا أنا في حاجة إلى محام؟ لماذا لا أدافع عن نفسي بنفسي، أنا أدافع عن قضية شعبي، فكيفَ لا أدافع عن نفسي؟

قطع حبل الصمت وقال: ما كان لك أن تزجي بنفسك في السياسة وتدخلي السجن، وكان من الأفضل لك، البقاء في بيتك لتعيشي حياتك مثل باقي الفتيات، فذلك خير من أن تكوني سجينة!

أية صفعة يوجهها لي ولنضالي!

أذكر جيداً حِدّة ردي. لا شكّ في أنه تجاوز حدود اللياقة التي كان من المفترض على فتاة غرّة مثلي، أن تتصرف بها مع محام كبير القدر والسن، مثل المحامي أنطون جاسر، لكنني في ذلك الحيِّن لم أكن أفكر في أصول الاحترام عندما توجه لي صفعة من هذا النوع وهذا الحجم. لقد تجاوز حدوده كمحام، وسمح لنفسه بأن يتدخل في خياراتي الجوهرية. أنا التي فكرت قُبل دقائق أنه ربما جاء تطوعاً بدافع وطني، أجده يتوافق مع موقف العدو في التحقيق! لقد مثّل بقوله كل القوى التي تريد أن تبقي حالة تخلف أوصلتنا إلى الهزيمة على حالها! إنهم يتوافقون مع العدو! أما أنا، فثائرة تحمل مشروع التحرّر لنفسها ولجنسها ولشعبها ولأمتها، فكيف يجرؤ؟

قلت بغضب مشحون بحدة واضحة: لست أنا السجينة. أنا أكثر حرية من عشرات الملايين من نساء ورجال أمتك العربية الذين يقبعون في بيوتهم، مكبلين بخوفهم. هم السجناء لا أنا. كان من الأجدى أن تدعو هؤلاء كي يتحرروا من خوفهم مثلي، لا أن تدعوني كي أصير مثلهم!

لا بد أني صفعته كما صفعني وصدمته كما صدمني، فأمسك عن أي تعليق. وقد اتضح موقفي: لا أريد رؤية وجهه مرة أخرى.

كان عليّ حسم الأمر مباشرة فقلت: أفضل أن لا أكلف أسرتي فوق طاقتها، فخير لهم صرف النقود على معيشتهم وعلى الأطفال، وأفضل أن أدافع عن نفسي بنفسي.

لم يحاول مناقشتي، وقال: لك أن تقرّري ما تجدينه في مصلحتك.

لم يصافح أحدنا الآخر. خرجت من تلك الزيارة كما لو كنت خارجة من معركة أبليت فيها بلاء عظيماً، وقد تعززت ثقتي بنفسي وبنضالنا، ليس فقط ضد الاحتلال، وإنما ضد الأفكار الرجعية أيضاً.

والصليب الأحمر

رجلان وسيمان ودمثان جلسا في أحد مكاتب الإدارة، دون أن يرافقهما أيٌّ من طاقم السجن. كانت لغة التفاهم هي اللغة الإنجليزية. وضحا لنا حدود صلاحية مندوبي مؤسسة الصليب الأحمر، وأهمّ الأخلاقيات التي يلتزمون بها؛ أولها الحيادية بين طرفي الصراع. وثانياً مسؤوليتهم الكاملة عما يسمعونه من طرفنا ولكنهم سيستخدمونه كما يجدونه مناسباً لصالحنا. لم أقبل المبدأ الأول وجادلتهم فيه؛ إذ كيف لطرف أن يقف على المسافة نفسها بين المعتدي والمعتدى عليه؟ ابتسم الذي كان يجلس في موقع المسؤول وقال: هل نسيت أن المعتدي هو الذي يملك القوة ويستطيع أن يمنعنا من الوصول إلى المعتدى عليه؟ وأن عملنا هو مساعدة المعتدى عليه لأنه هو الذي يحتاج لنا؟ كيف تريدين أن نصل إليكن لتقديم المساعدة التي نستطيع تقديمها إن لم يسمح لنا المعتدي؟

كان توضيحه مقبولاً، واعتبرتُ أنّه يقف إلى جانبنا. ألم يصّنفهم كمعتدين!

وكان طلبي الأول والملح، هو الاتصال بأهلي لإخبارهم أنهم يستطيعون زيارتي. قدّم أحدهما ورقة صغيرة ستسمى من الآن فصاعداً رسالة الصليب الأحمر، وتحوي بضعة أسطر صغيرة لا تتسع لأكثر من خمسين كلمة على الأكثر، وطلب مني الكتابة لأهلي وسيقوم بتسليمهم إياها. طلبنا من مندوب الصليب كتباً، وضرورة فصلنا عن بناتهم اللواتي يشكّلن خطراً على حياتنا. وشكّلت زيارة الصليب الأحمر حدثاً مهماً، فها هي رقعة التواصل مع العالم تتسع، وها هو طرف عالمي يقف إلى جانبنا ويستمع إلى قضايانا وما تعرّضنا له من انتهاكات لحقوقنا الإنسانية أثناء التحقيق، كما أنه سيزودنا بالكتب من الآن فصاعداً.

فلسطينيو الداخل

لم يمضِ أكثر من أسبوع على زيارة الصليب الأحمر، حتى زارتنا شخصيَتان من الفلسطينيين من الداخل الفلسطيني. لا أذكر الصفة التي عُرّفا بها: هل كانا عضوي كنيست أم رئيسي بلديات. حضرا مع المديرة، ودخلا معها إلى غرفنا. أبديا تقديراً واعتزازاً بنا، سألانا عن احتياجاتنا والخدمة التي يستطيعان تقديمها لنا. قلنا: نريد كتباً. استعدا لتزويدنا بالكتب، وطلبا من المديرة أن تدخلها لنا، فوعدتهما أمامنا.

قلنا: ها نحن لسنا مجرّد سجينات، بل طاقة محرّكة في جميع الاتجاهات، لم يكن بالإمكان خلقها لو بقينا في الماء الراكد، مجرّد ربات بيوت، كما أراد لنا المحامي أنطون جاسر!

لم يمضِ أسبوع حتى وصلت مجموعة من الكتب، احتجزت في المخزنَ بحجة مراقبتها. حصلنا عليها بعد شهر، ويا للروعة، كانت

مجموعة من كتب الأدب الروسي المقاوم. الأم لمكسيم جوركي، المعلم الأول، كيف سقينا الفولاذ؟ قصيدة تربوية، الدون الهادئ ومجموعة أخرى تتجاوز عشرين كتاباً.

مرفأ الأمان

أخيراً، جاءنا الأهل للزيارة: يوم الزيارة الأولى، كان عيداً لا يشبه أي عيد. هل كان عيداً أم أن التعبير ليس دقيقاً؟ لكن الزيارة كانت حدثاً مفصليّاً، سنطلّ من خلالها على عالم كنا فيه، ونختبر روابطنا التي ربطتنا به؛ قوتها، حميميتها، تأثيراتها على أطرافها، قدرتها على التفهم والتفاهم، ما تحمله من آلام ومعاناة أو فرح يتمّ نحته من صلب المعاناة، نطل على عوالمنا وما حصل فيها من انقلابات وتخلخلات وما رسخ منها وما انقلب وما وُلد؟

اللقاء الأول مع الأهل بعد الزلزال الذي أحدثه الاعتقال كان جياشاً إلى أبعد الحدود، فمنذ عرفنا أن أهلنا يقفون خارج بوابة السجن، أخذت القلوب تخفق، والأعصاب تتوتر، والعقول تبحث في كل الاحتمالات. بدأ الانهماك في الاستعداد لمقابلة الأهل على أشدّه، والفرح الممزوج بالتوتر بادٍ على الجميع.

لم أكن أعرف أن العلاقة مع الأهل لها كل تلك الأبعاد. قبل ذلك كنت أشعر في كثير من الأحيان، أن الأهل عبء ومسؤوليات وقيود أود التحرر منها. أما اللحظات التي سأضم فيها أمي، فهي شوق الحياة، ومرفأ الأمان، وطعم الحرية، وأجنحة الطيران، ولون الفرح، ولم أعد قادرة على تحمل الدقائق التي تفصلني عنها.

بدأت الزيارات منذ الساعة الثامنة صباحاً. أدخلوا أهل كل واحدة على حدة، بعد أن تنتهي الزيارة الأولى تأتي الثانية فالثالثة، وهكذا، ما يعني أننا سنبقى في حالة استعداد وتوتر طوال النهار. بدأت بنات القدس على التوالي: بنات القمري (ليلى وعائدة)، عزية وزوز، حنان عسلي، انتصار بسيسو، حياة عبيدو. ثمّ نودي على سامية الطويل. رأيتها كما لو أن أجنحة نبتت لها. ستحصل على نصف ساعة تمضيها مع الأهل، لكنها عادت من الزيارة تحلف أنها لم تحصل إلا على أقل من عشر دقائق. أما أنا التي كنت في انتظار عودتها لتحمل أخبار وجود أهلي في الخارج، فشعرت بأنها أمضت ساعات طويلة. لكن سامية عادت ورغبت في الانزواء مع نفسها بعد أن أعلمتني أن أهلي لم يصلوا بعد.

توالت الزيارات، ومضى اليوم بين توديع واستقبال. انتهى يوم الزيارة وأنا ما زلت في الانتظار! أيعقل أن أهلي دون الجميع لم يحضروا! يا إلهي، ماذا حدث لهم؟ ألم يعلموا؟ كيف علم الجميع وأهلي وحدهم لم يعلموا؟ لا بد أن أمراً جللاً حصل معهم. كيف أصف نفسي في تلك اللحظات؟ هل كنت فقاعة وتلاشت؟ هل كنت وهما وانتهى؟ هل كنت قطعة من جليد ذابت وتحولت إلى دمع سكبته داخل الحمام كي لا تراه الرفيقات؟ كنت كل ذلك، وفي حالة من اللاوجود! ما الذي تصورته؟ أية فكرة ضربت هذا الوجود فحوّلته إلى هباء؟ كيف ألملم وجودي وأبعثه من جديد؟

بعد أسبوع، حضرت أختي وحدها.

- أين أمي؟ هل حصل لها شيء؟

شعرت للحظة بأن قلبي معلق بخيط واهٍ سينقطع، وسأسقط في هاوية لا قرار لها.

- أنت تعرفين أني لا أحبّ مرافقة الختيارات، سأرسلها لك هي ونجمة الأسبوع القادم.
- هل نسفوا البيت؟
- قلت لك أن لا تسألي الأسئلة التي لا فائدة منها.

كدت أجنّ وأتشاجر معها، فكيف تقزمني وتفصلني عما يجري معهم إلى هذا الحد! "أن لا أسأل أسئلة لا فائدة منها"! مجمل حديث أختي أن كلّ شيء عندهم تمام التمام! قلقوا فقط، بسبب الإشاعات الكثيرة التي سبق تداولها عن التعذيب وقسوته، وبما أني بخير، فكل شيء هين بالنسبة لهم، وعليّ ألا أقلق مطلقاً!

أعرف أن هذا كلام غير دقيق بالضرورة، لكني رغم الاحتجاج على خطاب أختي، كنت أرحب به في أعماقي، ففي الحقيقة، ماذا أستطيع أن أفعل من أجلهم!

في زيارة لاحقة، زارتني كل من أمي وزوجة أخي والأطفال. رددوا الكلام نفسه، كأنهم حفظوه غيباً! أنا متيقنة، أن هذه توجيهات أختي، لا شك في أنها أصبحت الآمر الناهي، فهذه شخصيتها، تأخذ الأمور والحياة بكلتا يديها.

خلال شهر، حصلنا على أربع زيارات، أحضر الأهل فيها الأكل والفواكه والحلويات، وزارني بالإضافة إلى أسرتي بعض القريبات من الأسرة الممتدة. قالت ابنة عمي في تحياتها لي: "الله

يستر عليك!" وهي جملة تتردّد عندنا كقول السلام عليكم، لكني كنت أدرك مدلولها السلبي والنظرة الضيقة تجاه الفتاة، وكنت أنا الثائرة، فقلت بحدة غير مبررة بغير ذلك الاندفاع الذي يريد أن يثوّر كل شيء: ليطمئن قلبك يا ابنة العم، لن أجد ستراً أكثر مما أنا فيه إلاّ القبر، فحتى الطير لا يستطيع رؤيتي. آه، كم كنت قاسية!

قانون الزيارات

في الشهر الأول، انطبق علينا قانون الزيارة المعمول به في السجن، الذي ينطبق على السجينات اليهوديات، والذي يعطي زيارة كل أسبوع للموقوفة، وزيارة كلّ أسبوعين للمحكومة، ويسمح بدخول ثلاثة أشخاص من الكبار وثلاثة من الصغار في الزيارة الواحدة، كما يسمح بإحضار الفواكه والطعام (يتم تناوله أثناء الزيارة). فكرت بالعبء الجديد على أهلي. داهمني أسى شديد بسبب المعادلة الجديدة التي نشأت، والتي قد قلبت الماضي رأساً على عقب. كنت المنتجة والمساعدة الرئيسة للأسرة، وها أنا أتحول إلى عبء عليها.

فاتحت أختي في آخر زيارة، جَهِدْتُ في إقناعها بالاكتفاء بزيارة واحدة في الشهر دون إحضار شيء معهم، فردّت بغضب واستنكار شديد: شو! إنجنيتي؟! بدك إكون إلك زيارة ولا نأتي! الموت وحده اللي بيمنعنا من زيارتك.

- لا أريد تكليفكم فوق طاقتكم.
- بنبيع اللي تحتنا واللي فوقنا وما بنتخلى عن زيارتك!

آه، لم يعد لي قرار!

لم أدرك في حينها سبب عناد أهلي، فلماذا الإصرار على تحمّل عبء فوق طاقتهم، رغم أن طلبي صادق وحار؟ بعد أربعين عاماً، أدركت بعض الأسرار، حين اطلعت على واقع كثير من الأمهات، وكيف يتحدين المرض وأوامر الأطباء، يشْدُدْن أزرهن ويذهبن إلى زيارة أبنائهن رغم الأهوال التي يصادفنها على الحواجز (التي لم تكن موجودة في زمننا) وأمام بوابات السجون وفي مواجهة صلف السجانين. أدركت أن الزيارة عند الأهل ليست عبئاً وإنما هدف بحد ذاتها، وشكل عميق ورئيسيّ في الصمود والتحدي. لقد عبرت لي لطفية زيادة، أم المجد، عن الألم والصدمة التي أصابتها حين طلب منها ابنها الطلب ذاته من أختي قبل أربعين عاماً، فالزيارة بالنسبة لها، العامل الرئيس للصمود وقوة التحمّل ووقود الأمل.

قانون جديد

لم يكن قد مرّ شهران على وجودنا في السجن، حين استدعت المديرة فاطمة برناوي وبلّغتها بما يلي: يؤسفني أن أبلغكن أنه قد وصلني قانون جديد بشأن الزيارات، ستكون الزيارات من الآن فصاعداً مرّة واحدة في الشهر، ولشخص واحد فقط من القرابة من الدرجة الأولى؛ أم، أب، أخ، أخت، زوج، ابن، ولن يسمح بإدخال أي شيء من طعام أو من غيره. سألتها فاطمة إنْ كان القانون الجديد سيسرى على بناتهم أيضاً، فأجابتها بالنفي.

جاءتنا فاطمة غاضبة، وكانت تحسب أنها لن تتمكن من رؤية أمّها أو أي فرد من عائلتها حسب القانون الجديد إلا مرة واحدة كل ثمانية أشهر. ثمّ، كيف يضعون قانونين مختلفين للسجن الواحد! أليست هذه تفرقة عنصرية، عينك عينك!

كُنّا مشدوهات لما سمعنا، فلم تسرع أيٌّ منا بردّ فعل أو تعليق، فتأجّج غضب فاطمة: ليش ما بتعلقن، أكلتْ القطة ألسنتكن؟

أدارت فاطمة ظهرها ومشت غاضبة، ثم عادت وقالت: سأضرب عن الطعام، إلى حين تغيير القانون. ثمّ انسحبت دون أن تنتظر جواباً.

إضراب عن الطعام

وبيني وبين نفسي وللحظات فكرت أنها جاءت منهم. لست في حاجة لمحاولات يائسة لإقناع أمي وأختي لتقليل زياراتهن، لكنّي أدرك تماماً أنه لا يجوز لي النظر إلى مثل هذا الإجراء من هذه الزاوية، فهو إجراء ضدنا بشكل فاقع. دار نقاش حول ما يجب عمله، وأجمعنا على ضرورة الردّ عليه بالإضراب عن الطعام كما بادرت إليه فاطمة. طلبنا الضابطة المسؤولة وأبلغناها قرارنا إلى حين التراجع عن قانون الزيارة الجديد. ثم التزمنا البقاء داخل الغرف.

مرّ اليوم الأول، سألونا صباحاً وقت التعداد إن كنا سنخرج لتناول الطعام، بعد جوابنا بالنفي، صاروا يقفلون الباب ويغيبون. ذبلت أجسادنا وانزوى الإحساس بالجوع، ونفدت طاقتنا فلم نعد نتحرك خارج الأسِرّة. مساء اليوم الثالث، حضر الطبيب المسؤول (كوهين)، أجرى فحوصاته وكتب توصيته: "إطعام بالقوة"، وعلى الفور، أخذوا يسحبون كل واحدة على حدة. في العيادة كان الطبيب وممرض وممرضة وجندي، إضافة إلى السجانات، يقدمون كأس حليب ويبدأون في المساومة لفكّ الإضراب. لم تضعف منا واحدة، ولم تقبل فك إضرابها، فكانوا يسحبونها بالقوة ويجلسونها على كرسي يوثقون يديها خلفه، ويدخلون من أنفها بربيشا له محقن، ويفرغون كأس الحليب في معدتها.

عادت حياة عبيدو بعد وجبة الطعام العنيفة في حالة صعبة. كانت تتنفس بصعوبة واضحة، ثم ارتمت أرضاً وقد ازرقّ وجهها وازدادت صعوبة تنفسها. صرخنا وقرعنا الباب. جاءت الضابطة مريم (الصفراء كما نلقبّها). نظرت إلى حياة التي كانت تختنق. قلنا لها إنّها تموت، قالت: لتمت! ثمّ أدارت ظهرها وذهبت. جنّ جنوننا. أخذنا نقرع الأبواب حتى تحوّل السجن إلى جحيم. جاءوا ونقلوها إلى المستشفى.

إضراب سابق

كنت أعلنت الإضراب عن الطعام قبل تسع سنوات. لم تكن مفردة الإضراب عن الطعام في حينه مستخدمة، لكنها خطوة انبثقت في وعيي لتصعيد مقاومتي لقرار اتخذته أمي بمنعي من مواصلة دراستي. كنت سأترفع للصف الثالث الإعدادي (التاسع)، وكنتُ الفتاة الوحيدة من قريتنا التي تتابع دراستها في رام الله. أسافر يومياً إلى رام الله مع أبناء قريتنا والعديد من طلبة قريتي الطيبة ورمون المجاورتين. حين انتهت العطلة الصيفية وبدأت أجهز نفسي استعداداً للعودة إلى المدرسة، قالت أمي: ما في حاجة تكوي مريول ولا غيره، إنت بكفيك اللي تعلمتيه، من اليوم وطالع، ما في مدرسة. سقط القرار على رأسي كصاعقة وشقني نصفين. أظلم العالم في نظري وأُقفل أمامي الأفق. رأيت أحلامي تتحطم دفعة واحدة! ما الذي جرى لأمي لتتخذ قراراً كهذا؟

أثناء تلك العطلة الصيفية، حققت أمي حلم حياتها في الحجّ إلى بيت الله الحرام. جاءت نساء القرية للتهنئة، ولم يوفّرن جهداً في تحريضها ضدّ استمرار تعليمي: "شو بدك في وجع هالراس، بكرة بتصير بنتك تكتب رسايل للشباب، شو بدها تفيدك حجتك بعدين،

وين تحطي راسك؟". "طيب يختي، إنت مش أحسن من المختار فلان ولا من الأستاذ فلان اللي قعّدوا بناتهم عندهم في البيت". "اشتريلها ماكينة خياطة وخليها تقعد عندك في البيت تحت عينك"، "البنت كبرت وصارت صبية والكلّ عينه عليها، وإنت ما عندكيش رجّال يتابعها بين هالشباب اللي بتطلع معهم"، وأمي تردّ: البنت شاطرة وحريصة بخاف أظلمها. "يختي ليش بدك تظلميها؟ من اللي علم بنته أكثر منك إنت يا هالأرملة؟ وإنت لما بتخليها عندك في البيت مشان تحافظي عليها بتظلميها!" لكن أمي بقيت متمسكة بالدفاع عن تعليمي. حين انتهت العطلة الصيفية ولم يرسل أحد من أهل القرية بنتا له كي تكمل تعليمها في رام الله. حينها كان التحريض قد فعل فعله.

أين أنت يا أخي؟ أحتاجك الآن لتقف إلى جانبي، لو كنت هنا، لما تجرأ أحد أن يمارس الضغط على أمي، ولما اتخذت مثل هذا القرار. لو أعلمتني أمي بقرارها هذا قبل شهرين على الأقل، لكتبت لك لتكتب لها: ممنوع تخرجي عيشة من المدرسة.

بعد أن تماسكتُ من هول الصدمة، فكّرت في أن عليّ التصرّف. لن أستسلم لهذا القرار، وكان قراري ينبع من أبعاد عميقة في نفسي. بدأت التحرك في الحال. وضعتُ قائمة بالذين سأتحدث معهم ليتحدثوا مع أمي حتى تعيدني إلى المدرسة:

- عمي على رأس القائمة، فهو يحبني ويثق بي ولا يرفض لي طلباً، وموقفه مهم، باعتباره الرجل الأول بعد أخي الذي يحقّ له التدخل في حياتنا رغم أنه لا يملك سلطة علينا.
- جارتنا الحاجة الجرهودية، امرأة قوية وصاحبة قرار ورأي، تحترمه أمي وتعمل له وزناً.

- الحاج محمود أبو عمّار والحاج محمود أبو سلامة، وهما من ختيارية الحمولة ذوي الرأي المسموع، ويملكان آراء متفهمة، بل مشجعة على تعليم الفتيات.

وحين داومت معلمات المدرسة، توجهت إليهن وأحضرتهن للتحدث مع أمي.

على أثر حملة من الضغط المكثف، تخلخلِ موقف أمي، فلجأت إلى تبرير آخر هو وضعنا المادي، خصوصاً بعد الحج والتعديلات التي أجريناها في ذلك الصيف على بيتنا. على غير رغبة أمي، أعلنتْ أخواتي أنهن سيوفّرن مواصلاتي من خلال عملهن في التطريز ونسج القش. مع ذلك، بقيت أمي مترددة. أما أنا، فأخذت أنهض كلّ صباح، ألبس مريول المدرسة وأحمل كتبي وأقف بالباب أنتظر مجيء الحافلة كما لو أنني سأصعد فيها. بعد مرور جميع الحافلات التي تحمل الطلبة، أجلس وأجهش في البكاء. ثم، فجأة، نبتت في رأسي فكرة الإضراب عن الطعام. أعلنت أني لن أتناول الطعام حتى الموت! مع نهاية يوم الإضراب الأول، وبعد أن أنهت أمي صلاة العشاء، جاءت وجلست إلى جانبي، وأخذت تمرر يدها على رأسي قائلة: "إخونّي يمة، كومي كلي، وبكرة بنروح عند المديرة، وأنا بترجّاها عشان ترجّعك. بكلّها إنك كنت مريظة".

قالت المديرة "جميلة حنا": يا حجة، صار لبنتك غائبة عن الدوام ١٨ يوماً. وهذا مخالف للقانون. القانون لا يسمح بغياب أي طالبة أكثر من ١٥ يوماً طوال العام، فكيف تريدين أن أقبلها؟"

مادت الأرض تحت أقدامي. قالت أمي برجاء: بس يا ست جميلة، كانت البنت مريظة.

لم أتابع ما كانت أمي تقوله. كنت أحاول لملمة نفسي بحثاً عن الخطوة التالية. حينها سمعت الست جميلة تنتشلني من وهدة اليأس: بنتك خسارة عليها ما تكمّل تعليمها، عشان هيك راح أقبلها رغم مخالفة القانون. قومي روحي يا عائشة إلى شعبة ب.

كانت عودتي إلى المدرسة ميمونة. بدأ اسمي يشار إليه ضمن الطالبات المتميزات في المدرسة. أما على صعيد القرية، فقد أضفت إنجازاً جديداً وارتفعت أسهمي بعد ما تحدث به كل من الأستاذين التربويين؛ مصطفى عبد الحميد وموسى عمّار أمام رجال البلد باعتزازهم الشديد بابنة بلدتهم (عيشة)، إذ اطلعوا على نتائجي في الامتحان العام للمرحلة الإعدادية، وأعلنوا ذلك في المقهى أمام الجميع. هكذا، أصبحتُ ابنة قريتهم ومصدراً لاعتزازهم.

تعديل القانون

مساء اليوم الرابع من إضرابنا، أخبرنا أن تعديلاً طرأ على القانون: الموقوفة لها زيارة كل أسبوعين. المحكومة لها زيارة كل شهر. يسمح بدخول ثلاثة أشخاص في الزيارة من الأقارب من الدرجة الأولى فقط، ولن يسمح بإدخال أي شيء.

لم نستطع معرفة أخبار حياة عبيدو التي كانت محجوزة في السجن كرهينة بدلاً من أختها. في الزيارة اللاحقة التي تأخرت أكثر من شهرين بسبب إجراءاتهم ضدنا، أعلمنا الأهل أن حياة أنقذت من موت محقق، فقد دخل شيء من الأكل إلى رئتيها. في المستشفى عملوا عملية وفتحوا لها فتحة للتنفس من حنجرتها، بعد تحسّن وضعها، أطلق سراحها من المستشفى مباشرة.

ندفع ثمناً للشمس

تنازعت خروجنا إلى العمل فكرتان متناقضتان؛ فمن جهة، يوفّر العمل لنا حرية حركة من الساعة الثانية من بعد الظهر حتى الثامنة مساء، ونتعرض للشمس لفترة أطول، ويسهّل تفاعلنا كمجموعة واحدة بدلاً من مجموعتين منفصلتين في غرفتين صغيرتين مقفلتين مدة ٢٣ ساعة ونصف الساعة في اليوم. من جهة ثانية، سنعمل يوميا ٧ ساعات عمل سخرة لصالح إنتاج العدو، وينقدوننا عليها أربع سجائر أيلون للموقوفة! أو أربع أغورات للمحكومة! قلنا؛ بل ندفع شمس بلادنا. اتفقنا أن نجرّب العمل مدة أسبوع، ثم نعيد تقييم قرارنا.

في الأرض

تم توزيعنا كالآتي: ليلى قمري وانتصار بسيسو إلى المطبخ. باقي الموقوفات (عائدة قمري، عزية وزوز، حنان عسلي، حياة عبيدو، ليلى عودة) إلى المشاغل لتعبئة ملاقط غسيل أو بُكل شعر، أو

في التطريز. رسمية ومريم وسامية وأنا، إلى الأرض. أعطونا سراويل وقمصاناً كحلية وأبواتاً وطاقية وفؤوساً وأمشاطاً ومكانس للأرض وعرباية.

بدأنا العمل في الأرض التي كانت بوراً، نقطع الحشائش والأشواك، نلمّها وننقلها إلى مكان محدد، نرش الأرض بالماء، ننكشها، نعدّها للزراعة.

للعمل في الأرض سحر. رسمية بشكل خاص عشقته، وعبّرت عن ذلك بأنها على استعداد أن تواصل عملها في الأرض طوال اليوم دون أن تمل. قالت إنها لا تعرف سرّ تعلقها بالأرض، كأنها تقبض على كنز كان ضائعاً. أنا كذلك أحبّ العمل في الأرض. نشأت طفلة متواصلة مع الأرض حتى تماثلت علاقتي بها بعلاقتي بأمي. كنت الطفلة الصغرى في أسرة هي في الواقع فريقٌ يعمل في أرضه وينتج منها عيْشه. أرافق أمي وأخواتي في كل عمل يعملنه في الأرض، وقت البذار ووقت التعشيب ووقت الحصاد، أثناء زراعة الخضراوات وأثناء قطفها، في مواسم التين والعنب وقطف الزيتون. في كل موسم لنا نحن الصغار، بهجتنا وأفراحنا. أوقات البيادر أعياد لا تنتهي، نتسابق على ركوب اللوح الذي يجرّه البغل ويدور بنا دورات لا تنتهي، في الأماسي، نقفز فوقها حتى ساعات متأخرة من الليل إلى أن نذبل ونغطس في النوم، وفي النهاية، يدللنا الكبار بإعطائنا حصتنا من المحصول لنشترى ألواح الحلاوة والحامض حلو، فنلتهمها قبل العودة إلى البيت. والكبار كان لهم فرحهم، فلسان أمي يلهج دائماً بالشكر الدائم لله على نعمه، ويفيض قلبها بالعطاء كما الأرض، فهذه حصة دار خالتي الذين فقدوا أرضهم في دير ياسين، وتلك حصص النساء الوحيدات في القرية أو الأسر المستورة، وحتى للدجاج والطيور نصيب مما ننتج.

وهناك سر خاص بي أطلعتني أمي عليه؛ أثناء حملها بي، توحّمت على تراب أحمر وأكلته بمتعة غريبة، تأخذه من بين شقوق صخرة أشارت إليها!

شكّل عملنا في الأرض متعة لنا واستمر ما يقارب ثلاث سنوات. زرعنا البندورة والكوسا والباذنجان والخيار والجزر، وكان المردود يعود إلى مطبخ السجن.

نعمل ونناضل

في بداية عملنا، دخلت السجن فتاة بريطانية (مرجريت)، أخرجوها للعمل معنا في الحقل. كنّا نجري معها نقاشات حول قضيتنا ونضالنا، وكان إنجازاً حين أبدت تفهماً كاملاً لقضيتنا وأعلنت أنها ستقف معنا وأصبحت لا تفارقنا.

في تلك الفترة، فاضت مجاري البناية وتجمعت تحت شبابيك غرفنا وتحوّلت إلى مكرهة صحية. تركوها دون معالجة. نفد صبرنا ولم نعد نستطيع النوم بسبب الرائحة والبعوض. في أحد الأيام، وعند الثامنة مساء، أضربنا عن الدخول إلى غرف النوم، حملنا حراماتنا وطلبنا الذهاب إلى الزنازين إلى حين معالجة المكرهة الصحية. حملت مرجريت حراماتها ولحقت بنا. أذهل سلوكها الإدارة، واستدعتها المديرة في اليوم التالي، وأخذت تحرضها علينا، وطلبت منها الابتعاد عنا، لأننا مجرمات ومخربات ويمكن أن نخرّب أخلاقها!

ردت مرجريت بغضب: ليس لك الحق في التدخل في علاقاتي، فأنا وحدي أقرّرها. ثم أن هؤلاء الفلسطينيات لسن مجرمات كما تدعين. إنهن مناضلات من أجل حرية شعبهن، وهن عاليات الأخلاق والثقافة، وأنا أحترمهن كل الاحترام.

أسقط في يد المديرة وقالت: يؤسفني أني مضطرة لإبعادك عنهن وذلك لمصلحتك.

- أنا أحدد مصلحتي، ولست وصية عليّ، أنت فقط مديرة للسجن، وأرجو أن تتصلي بالسفير البريطاني لأني أريد مقابلته في الحال.

خرجت مرجريت من المقابلة غاضبة، لكنها أكثر رضا عن نفسها وأكثر وضوحاً وحسماً. وقد بكت حين ودعتنا، ووعدت بمراسلتنا. وفت بوعدها واستلمنا منها أكثر من بطاقة مرسلة من بريطانيا.

أثناء انعقاد المجلس الوطني، العام ١٩٨٤ في عمان، التقيت مع د. نبيل شعث فبادرني بقوله: عرفتك جيداً من خلال فتاة بريطانية كانت تدرس معنا في الجامعة، وسبق أن التقت معك في السجن. كانت لا تملّ الحديث عنكن. لقد شكلتن لها إلهاماً، وكانت من أنشط العاملين لصالح القضية الفلسطينية.

لم تكن مرجريت هي الأجنبية الوحيدة التي دخلت إلى السجن لفترات بسيطة ولأسباب مختلفة، ممن تأثرن بنا وحدث انقلاب في وعيهن وموقفهن من قضيتنا. هناك الكندية (لي) التي روت أنها جاءت إلى الكيبوتس مع مخيم صيفي شبابي، فأحبت مناخ فلسطين وتهربت من العودة إلى كندا. ألقي القبض عليها لمخالفتها فترة الإقامة إضافة إلى امتلاكها حشيشة الكيف. لم تكن "لي" تعرف شيئاً عن قضيتنا، لكنها ذهلت من حجم الكذب الذي حشوه في الرؤوس. تغير موقفها وظهر ذلك من خلال ردود فعلها مع السجّانات، فأسرعوا بالإفراج عنها وإبعادها. أما عارضة الأزياء الكندية، التي كانت مغرمة بأغاني أم كلثوم، فقد وعدتنا حين أفرج عنها بأنها لن تنسانا. وبعد أسبوع فاجأتنا بوقوفها خارج السور

لتغني لنا "إزاي إزاي إزاي، أوصفلك يا حبيبي إزاي، أبل ما حبّك كنت إزاي . . . " بلكنتها الأجنبية، ومن إحدى زوايا النافذة العليا للغرفة، رأيناها تقف إلى جانب مجموعة من زوار سجن الشباب وهي تتجه بكليتها نحونا. انتبه الحراس وطردوها وهي تصرخ عليهم. في اليوم التالي، ارتفع السور من تلك الجهة بواسطة ألواح من الزينكو.

كان لتلك النجاحات الصغيرة أثر عظيم في نفوسنا، فها نحن فاعلات، رغم وجودنا في السجن.

الحق يضيء

في فترة مبكرة من العمل في الحقل، جاءت شرطية اسمها "أوديت"، وظيفتها مرافقتنا أثناء عملنا في الأرض. نعود نحن إلى القسم، وتعود هي إلى بيتها. أوديت شابة في أوائل العشرين من عمرها، لم تتقن العبرية بعد. تركت باريس حيث ولدت وترعرعت، وجاءت إلى دولة المعجزات والانتصارات لتصبح مواطنة فيها. وهي تخدم في الجيش وتعمل شرطية في السجن مع فتيات فلسطينيات.

هي لا تعرف ماذا تعني هذه التسمية. هي تعرف أن العرب أعداء دولة إسرائيل الفتية التي هزمت هؤلاء المتخلفين الذين يعادونها لأنها حضارية!

قلنا: حسنٌ، سيكون لنا عمل مع هذه التي لا علاقة لها بهذه الأرض، ومع ذلك تركت بلدها وجاءت تمارس سلطتها علينا نحن المجبولات من تربتها وصخورها ونباتاتها. كانت الشابة الفرنسية راغبة في معرفة الحقائق. قلنا لها: تجولي في

الضفة الغربية وغزة وشاهدي الذين يعيشون في المخيمات! وحين تعرفين أن لهؤلاء بيوتاً وقرى هم ممنوعون من العودة إليها، اسألي لماذا؟ ولماذا بالمقابل عليك أنت ابنة باريس أن تأتي لتعيشي على أرض هؤلاء وتخدمي في جيش مهمته اضطهادهم وتشريدهم؟

لم تعلمنا الشابة ماذا كانت تفعل بعد خروجها من السجن، لكنها بالمقابل، كانت تأتي إلينا بأسئلة جديدة. بعد ستة أشهر، وقد انتهت فترة خدمتها في الجيش، جاءتنا بلباسها المدني، لتلقي لنا بمفاجأتها الهائلة: جئتُ اليوم فقط لأودعكن وأعلمكن أنّي قررت العودة إلى وطني فرنسا. لقد تحققتُ من صدقكن، واكتشفتُ الأكاذيب التي تضخها الدعاية الإسرائيليّة. لا يمكنني أن أكون مواطنة في دولة قائمة على الكذب وعلى ظلم شعب آخر. أشكركن على كل شيء، وأعتبر أني محظوظة لأني التقيت معكن. سأبقى أتذكركن.

هل نضمها ونقبلها! هل نرقص فرحاً! هل نزغرد! اغرورقت عيوننا جميعاً حين افترقنا. ماذا لو صحت كل الضمائر وأضاءها الحق؟ هل تشرق الشمس ويحل السلام على الأرض؟

صلافة القوة

حلّت مكان الفرنسية، السجانة "تسيونة" التي نعرفها جيداً، صلفة ومتكبرة وتكرهنا، لكنها مُبَجّلة عند كل من يعملن في السجن ويُنظر إليها نظرة حسد من بعضهن! والسّر؟ قيل لنا لأنها من مواليد البلاد!

ولو!!! يعني أن جميع اللواتي يعملن في السجن ويقفلن علينا الأبواب غريبات عن هذه الأرض؟! طيّب، إذا كان المولود على هذه الأرض مبجلاً، فنحن وآباؤنا وأمهاتنا وأجدادنا وأجداد أجدادنا وأجداد أجداد أجداد أجدادنا، مولودون في هذه البلاد، وعلى هذه الأرض، ومجبولون من ترابها ومائها، ونستحق القداسة لا الاضطهاد والتشريد والتعذيب والسجن!

على الرغم من معرفتنا بصلافة تسيونة، قلنا سنحاول، فالنفس البشرية بطبيعتها ميالة للحق. وتسيونة (أي صهيونية) اسم على مسمى، منذ المحاولة الأولى لفتح نقاش معها، أغلقته كما لو تضرب بسيف: لا تحاولن مناقشتي حول الحق، لو أردت اتّباع الحق، لحملت أمتعتي ورحلت من هذه البلاد. أنا أؤمن بالقوة فقط. القوة هي التي تحدد الحق وتخلقه.

يا للصلافة!

قلنا لها: أنت مخطئة، الحق هو الحق وهو الجوهر، وهو دائماً الأقوى بغضّ النظر عن الوضع الذي يمرّ به من ضعْف أو تهميش، وجيّد أنك تعترفين في أعماقك بأنك لست على حق، لكنك تنسين أنّ القوة متغيرة ولا يركن إليها، ولا يمكن أن تضمنوا ألا يصبح صاحب الحق أقوى منكم، حينها، ماذا تفعلون؟

- لن نسمح بذلك أبداً.
- ولكن عليكم أن تعرفوا أنكم لستم الإرادة الوحيدة في المنطقة، حولكم أمة لها تاريخ مجيد، صحيح أنها الآن ضعيفة، ولكن كيف تركنون أنها لن تمتلك القوة يوماً وتتفوق على قوتكم الخاوية من الحق؟

كقطّة حشرت في زاوية ردّت بعنف: لن نسمح لكم بأن تصبحوا الأقوى. وأنا أحذركن من محاولة النقاش معي مرة أخرى.

صارت تقف بعيداً عنا وتصدر أوامرها الصارمة وتمنعنا من التحدث مع بعضنا. من حسن حظنا أنها لم تستمر طويلاً، وكانت ترافقنا مرة في كلّ ثلاثة أيام.

المحاكمة

المحامي

في زيارتها الأولى، أبلغتني أختي عن تكليف مكتب فليتسيا لانجر للمحاماة بمتابعة قضايانا. اشتهرت المحامية فليتسيا لانجر في الأوساط الفلسطينية كمحامية يهودية تدافع عن الفلسطينيين. كان ذلك مثيراً لحبّ الاستطلاع، فكيف لمن هم من الأعداء أن يدافعوا عن المناضلين منا؟ وكان التفسير: لأنها شيوعية، وأن الشيوعيين الفلسطينيين يتواصلون معها، تزورهم ويزورونها. بدوري رغبت في التعرّف عليها.

جاءت فليتسيا لانجر عبر زيارتها اليتيمة، وأبلغتني أنها لن تستطيع متابعة قضيتي بسبب كثرة انشغالاتها (لم يكن هذا هو السبب الحقيقي) ولكنها ستكلف أحد المحامين العرب العاملين معها. بعد أيام زارني المحامي علي رافع، وهو الذي يتابع قضية رفيقتي سارة جودة. ناقشت معه إمكانية الإفلات من تهمة وضع القنبلة، ذلك أن ما جاء في الاعتراف وحيثياته،

لا يمكن أن يشير بوضوح أو بدقة إلى أنني وضعت القنبلة، بل وافقت على الاعتراف لتجنب التعذيب الذي قد يسبب الجنون أو الشلل، والسجن كان خيراً من أيٍّ منهما. كما أني حقاً، حين اعترفت، كنت أعتقد أن أي اعتراف تحت التعذيب هو اعتراف باطل، وأن بإمكاني التخلص منه في المحكمة! أعترف بأني كنت ساذجة، وأن المعرفة الناقصة ذات ضرر أكثر من الجهل. فكيف سيتم إثبات أن الاعتراف كان بسبب التعذيب؟ هذا ما قاله أحد المحققين، لكن الفأس كانت قد وقعت في الرأس كما يقول مثلُنا الشعبي. مع ذلك، ناقشتُ المحامي، فأكد لي استحالة ذلك، فلن يعترفوا أبداً وتحت أيّ ظرف بالتعذيب. وقال إن من الصعب أن يكون في مقدوره تغيير الحكم، لكنه سيدرس الملف بشكل معمق.

في زياراته اللاحقة، أسمعته أسطوانتي عن عدم حاجتي لمحام، ورغبتي في الدفاع عن نفسي، بل رفضي التعامل مع محكَمة احتلال، فكيف لما هو غير قانوني أن تكون محاكماته قانونية؟

كان علي شاباً وطنياً ومتحمساً، لكن الواقع لا مفر منه. فالمحكمة ستعين لي محامياً من عندها في حال رفضي له. عندئذ سأجد نفسي أتعامل مع محامٍ ربما لا أعرف لغته ولا جوهر موقفه.

اتفقنا على أن يستمر في زيارتي والتداول معي، كما سيكون حلقة وصل بيني وبين أهلي والخارج، فما أستطيع قوله له غير ما أستطيعه مع الأهل في غرفة زيارة تراقب كل همسة وكل كلمة. في أول جلسة في المحكمة، أقف وأرفض وجود محام للأسباب المذكورة، فربما تقوم المحكمة بتعيينه من قِبَلِها محامياً ليَ لكونه قد درس الملف.

لوائح اتهام

استلمت من المحامي لائحة الاتهام. كانت طويلة ومعقدة ومحيّرة، إضافة إلى كونها لخمسة متهمين هم حسب الترتيب: يعقوب عودة، رسمية عودة، عائشة عودة، محمود العبيدي، سامية الطويل. قائمة التهم طويلة وتتحدث في التهمة الواحدة عن أكثر من متهم، رغم أنه لا علاقة لي بأي منهم، سوى رسمية. كان ملخص التهم الموجهة لي:

١. وضع قنبلة في السوبر سول دون الإخبار عنها.
٢. المشاركة في وضع قنبلة في السوبر سول وعدم الإخبار عنها.
٣. حيازة متفجرات بدون ترخيص.
٤. حمل متفجرات بدون ترخيص.
٥. عضوية في تنظيم إرهابي وعدم الإخبار عنه!

في صياغة التهم أمور خالية من المنطق، ومثيرة للاستغراب! فكيف نُتهم بأننا لم نخبر عن أنفسنا أننا سنحمل متفجرات مثلاً! هذه الصياغات تحوّلت إلى مصدر للتندر، وفسرناها بأنها دليل على الغباء! لكني اليوم وأنا أستعيدها كتابةً، أضرب جبيني وأنا أقول: معقول؟ معقول أننا لم نستطع رؤية الحقيقة التي تقف وراء صياغات كهذه؟ إنهم لا يريدوننا إلا مخبرين! وهنا أستحضر تعليق صبحية شعبان على برنامجهم الإذاعي "من المستمعين العرب"، بقولها؛ إنهم لا يريدوننا إلا مستمعين!

في زيارته ما قبل الجلسة الأولى للمحكمة، طلب مني المحامي اختصار الكثير من التعذيب، خوفاً من أن يبدو غير معقول أو أن يبدو من نسج الخيال! صرخت به: هل تشكك أنت في روايتي عن تفاصيل التعذيب، عِلْماً أني اختصرت الكثير منها؟ ذعر من

ردّ فعلي، وأكد أنه لا يشكك، ولكنه يتحدث عنهم، وهو يعرف كيف يفكرون، وكيف يبتسمون ويرسمون البراءة على وجوههم، ويجعلون من الضحية، ضحية ثلاث مرات؛ حين يقع عليها التعذيب، وحين ينفونه، وحين يتهمونها بالكذب!

معنى الأحكام

كانت المقاومة بعد هزيمة ٦٧ قد أنبتت لنا أجنحة، وخلقت فينا إرادة كفيلة بأن تُحرّك الجبال. حينها قلنا: سوف نهزمهم، وإن بقاءهم فوق أرضنا لن يدوم أكثر من بضع سنوات. هكذا كانت الاستهانة بالأحكام التي سيصدرونها حتى لو كانت مؤبّدات. ورأينا المحكمة ساحة مواجهة سياسية مع المحتلين، فبلورتُ ورسمية أفكارنا وخطابنا الذي سنلقيه فيها، وكان جوهره: دولتكم شرّدت شعبنا، العام ٤٨، واحتلت باقي وطننا، العام ٦٧، وهي تشعل نار الحروب، وتقف وراء كل قطرة دم تراق في هذه المنطقة. دولتكم هي التي يجب أن تقدّم للمحاكمة. أما نحن، فنناضل من أجل حقوقنا في وطننا، ومن أجل حريتنا، ومن أجل سلام يقوم على العدل. هذا حقّ لنا تقرّ به كل شعوب العالم ودولها، وهو معترف به منذ فجر التاريخ. وسنقول (للقضاة) كذلك: أنتم لستم مؤهلين لمحاكمتنا، لأنكم تدافعون عن الاحتلال الذي هو عدوان صارخ على شعب كامل وعلى بلاد كاملة. أنتم ودولتكم من يجب محاكمتهم. ونحن أصحاب الحق في محاكمتكم. كتبنا خطابنا الذي لم يكن مجرد خطاب يلقى في محكمة، بل هو جوهر قناعاتنا التي نستمد منها صمودنا واستعدادنا لدفع الثمن. أطلعت المحامي على الخطاب، قال إنهم لن يسمحوا لنا بأي كلام سياسي.

قبل الجلسة

يجب أن نبدو أمام أهلنا أفضل ما نكون. نفكر في الذين سيحضرون المحكمة من الأهل والأصدقاء. نحلم بعملية هروب، نحلم بكل شيء إلاّ الأحكام!

عند الثامنة صباحاً صعدنا إلى سيارة الشرطة. لم يقيدوا أيدينا ولم يعصبوا أعيننا، وكنا نلبس ملابسنا الخاصة. عشر دقائق وكنا أمام محكمة اللد العسكرية.

مدينة اللد موجودة في وعيي. لا، ليس فقط في وعيي. أشعر أنها موجودة في كينونتي. كيف أعبر عن هذا؟ هي ليست مجرد معارف سمعتها من أم محاسن الترتير وهي تتحدث عن مدينتهم وبيتهم في اللد، لكني أعرفها! كيف؟ لست أعرف. لكن مفردة "أعرف" ليست دقيقة. هي موجودة هنا في مركز وعيي. هم ينقلونني من سجن إلى محكمة! لا! إنهم يأتون بي إلى قلب المكان الذي أعرفه منذ زمن بعيد. تولّدت عندي حالة من النشوة كما لو كانت (اللّد) جزءاً مني! كان ذلك التآلف والتعارف مع المكان أحجية، كيف يحصل هذا؟ هل الوطن نرثه بكينونتنا كما نرث لون عيوننا ولون بشرتنا ونبض قلوبنا؟

كان الأهل في انتظارنا في الساحة الخارجية للمحكمة. لوّحنا لهم بأيدينا. تقدموا باتجاهنا فمنعتهم الشرطة من الاقتراب. في جهة أخرى من الساحة، كانت مجموعة صغيرة من المتظاهرين تحمل العلم الإسرائيليّ. لوّحوا بقبضات أياديهم مهددين دون أن يحاولوا الاقتراب منا.

داخل المحكمة

سبقنا إلى قاعة المحكمة كل من يعقوب عودة ومحمود العبيدي، وجلسا في قفص الاتهام. ابتهجت لرؤية يعقوب، فها هو لا يزال حياً، أما محمود، فلم أكن عرفته من قبل. قفص الاتهام محاط بحاجز خشبي، بارتفاع متر تقريباً، وفيه مقاعد خشبية. على يمينا وفي واجهة القاعة، ارتفعت منصة القضاة. في مواجهتنا كانت أماكن المحامين، وعلى يسارنا صفوف مقاعد الجمهور. ها نحن في مسرح، ونحن أهمّ اللاعبين فيه.

دخل المحامون وتداولوا معنا بعض الأحاديث. دخل الأهل فانشغلنا بهم. سلمنا عليهم قبل أن يتم إبعادهم. تبادلنا الابتسامات والقبل في الهواء. لوّحتْ الأيدي وعلتْ قبضاتها تشدّ أزر بعضها. صرخ الحاجب: محكمة! وقف الجميع إلا نحن.

دخل ثلاثة قضاة ببزات عسكرية. توجهوا إلى المنصة المرتفعة، أحدهم خلف الآخر. جلس الذي كان في المقدمة في الوسط. جلس الثاني على يمينه والثالث على يساره. أمر الحاجب الجمهور بالجلوس وافتتح الرئيس الجلسة. تُلِيت أسماؤنا حسب الترتيب، وكان على كل واحد أن يؤكد حضوره، تم استعراض المحامين. جاء دوري فأعلنت رفضي لوجود محام لي. بعد الانتهاء من تفقد المحامين والتداول، تم تكليف المحامي نفسه (علي رافع) بمتابعة قضيتي. تُلِيَتْ لائحة الاتهام، ثم وجّه القاضي الرئيس سؤاله لكل واحد منّا:

- هل تعترف بالتهم الموجهة إليك؟

نفى كل من يعقوب ورسمية ومحمود وأنا، التهم الموجهة لنا، وأعلن كل منا عدم شرعية محكمة الاحتلال فأسكتونا. رفعت الجلسة إلى موعد آخر. خرج القضاة. اقترب الأهل منا ومعهم

طعام وفاكهة. سمح لنا بتناول بعضه على وجه السرعة، ثم أعادونا إلى السجن. كان ذلك اليوم مليئاً بالأحداث، فدارت الأحاديث عنها إلى حين مجيء الجلسة التالية، حيث نبدأ بالتحضير لها قبل أيام من تاريخها، لأنها الفرصة التي نغادر فيها السجن.

طبخة كُرَش!

في الجلسات اللاحقة، أحضر الأهل أصنافا كثيرة من الأطعمة. كانت الأمهات والأخوات ينشغلن في إعداد أفضل ما يتقن من الأطعمة ليوم المحكمة. الأهل يسألوننا عن الأطعمة التي نرغب في تناولها. قرّرت رسمية أن تطلب كرشات (اللفاتوة يشتهرون بهذه الأكلة وكثيراً ما كنا نتداول النكات حولها).

كانت الجلسة التالية: جاءت فترة الغداء وتواردت الطناجر وفي مقدمتها طنجرة الكرش، رُفع غطاؤها فصرخت رسمية مازحة: قنابل، قنابل! سمع الجنود التعليق، وأسرعوا لإلقاء نظرة إلى طنجرة الكرش. وضعوا أصابعهم على الزناد، وصرخ أحدهم كي نبتعد وهو يقول: قنابل، قنابل. انفرط ضحكنا. في الجلسة التالية، أعاد الأهل أطعمتهم وكانت طبخة الكرشات آخر عهد لنا بأطعمة أمهاتنا.

المحكمة والتعذيب

قال المحامون؛ إن موكليهم أدلوا باعترافاتهم تحت التعذيب والتهديد، وأن الإفادات المنسوبة إليهم مكتوبة بلغة لا يعرفونها، وواجب المحكمة معرفة الظروف التي كتبت فيها الإفادات. تحدث يعقوب وكشف عن رأسه. شاهد الجميع تقرّحات شديدة في دافوخه ما زالت تنزّ صديداً ودماء. تحدثت رسمية بما لاقته وأهلها

من تعذيب وإهانات. جاء دوري. بدأت أتحدث عن التعذيب. تعرقلت وتشابكت الكلمات في حلقي. كم هو مؤلم أن تستعرض جروحك وألمك! وأمام من؟ أمام عدوّك الذي قام بتعذيبك، وأمام جمهور! كان الحديث عن التعذيب تعذيباً بحدّ ذاته. اختصرت الكثير وجلست التقط أنفاسي. علّق القاضي باستغراب: إنه أمر لا يصدق! لكن المحامي أكد أن القضاة تأثروا، وظهر ذلك على وجوههم، لما حمله كلامي من شحنة عالية من الصدق. طلب القاضي إحضار المحققين الذين تمت الإشارة إليهم. حضر (الغريب) فقط باعتباره الناطق باسم المحققين والعارف لكل شيء عن مجريات التحقيق كما ذكر أمام القضاة.

أقسم الغريب اليمين أن يقول الحقّ كل الحق، ولا شيء غير الحق، لكنه لم يقل إلا الأكاذيب، إذ أنكر إنكاراً مطلقاً أن يكونوا استخدموا أي شكل من أشكال التعذيب التي ذُكرت! وأنكر وجود أيٍّ من الأوصاف أو الأشخاص الذين ذكروا ووصفوا، وقال إن هذه الشخصيات محض خيالات وأوهام في ذهن المتهمين، اخترعوها لتبرير اعترافاتهم التي قدّموها بمحض إراداتهم الحرة ودون أي ضغط أو إكراه أو تهديد! لكنه اعترف (لأول مرّة في تاريخ المحاكم، كما قال المحامي علي رافع) بأنهم صفعوني على وجهي لتهدئتي من حالة هستيرية كنت كسرت خلالها لوح زجاج لسطح المكتب، وطالب المحكمة بأن تغرّمني ثمنه!

لم أكن أصدق حتى ذلك الحين أن البشر يمكنهم أن يكونوا كاذبين ووقحين إلى هذا الحد! كنت أؤمن بأن حَلْفَ اليمين يُلزم قول الحق، وأن الإخلاص للحقّ لا بد أن يكون المرجعية الأساسية لسلوك كلّ إنسان في هذا العالم. كيف لأحد أن يتنكّر للحق ويكون كاذباً إلى هذا الحد! لم ينكر الغريب الحقائق فحسب، ولكنه اختلق أكاذيب.

قال إن يعقوب لم يتعرّض لأي نوع من التعذيب، أما الجروح في رأسه من فِعْلِه هو، المتهم حاول الانتحار بضرب رأسه بالحائط، فأنقذوه بمنعهم إياه من إيذاء نفسه، والواجب عليه شكرهم لا اتهامهم والإساءة إليهم!

شهاداتنا المشفوعة بالقسم كانت كذباً كما ادعى الغريب، أما كون الإفادات كتبت بلغة لا نفهمها، فلا قيمة لذلك، لأنهم كانوا يترجمون لنا كل جملة، وهم أمناء في ترجمتهم!

تساءلت في اندهاش كيف يقلبون الحقائق بالكامل، فعلّق يعقوب: لماذا الاندهاش من تفصيل صغير في طاحونة كذبة كبرى يا رفيقة؟ إنهم يقلبون حقائق وطن بكامله!

إصدار الأحكام

مع اقتراب نهاية العام على اعتقالنا، وبعد حوالي عشر جلسات أو أكثر، وصلنا إلى خط النهاية. امتلأت قاعة المحكمة بالمصورين والصحافيين: إنها الجلسة الختامية، وفيها سينطقون بالأحكام. طلب القاضي من كل منا أن يدلي بأقواله قبل النطق بالأحكام. كان المحامي قد أخبرني أن المدعي العام عرض عليه صفقة؛ أن أعترف بالتهم أمام المحكمة وأطلب الرحمة، وسيقول بأن قنبلتي لم تنفجر ويطلب لي خمسة عشر عاماً، فرفضت.

اتفقنا (رسمية وأنا) مع يعقوب أن يكون حديثنا إدانة للاحتلال، ودفاعاً عن حقوق شعبنا، صغنا بياناً مختصراً ومركزاً، يبدأه المتهم الأول يعقوب فإن أسكتوه تكمله رسمية وأُكمل بدوري من حيث انتهت رسمية، لكنهم أسكتونا قبل أن يكمل أي منا جملة واحدة.

رفعت الجلسة للتداول ثم عادوا ونطقوا بالأحكام التالية :

- يعقوب عودة ثلاثة مؤبدات مدى الحياة، وعشر سنوات .
- رسمية عودة ثلاثة مؤبدات مدى الحياة، وعشر سنوات .
- عائشة عودة مؤبدان مدى الحياة، وعشر سنوات .
- محمود العبيدي خمس عشرة سنة .
- سامية الطويل، خمس سنوات .

محملات بأحكام ثقيلة

عدنا إلى السجن وقد سبقتنا أحكامنا. تركّزت العيون علينا ترقب كل حركاتنا وتعابير وجوهنا ونظراتنا وخطونا ووقفتنا. أزعجني ذلك أكثر مما أزعجني إصدار الحكم. لماذا تلك النظرات الثقيلة؟ هل حدث أمر غريب؟ أية قيمة لحكم يصدره محتلّ ضد مقاوم؟ هل تغيّرت المعادلة؟ ألسنا كما كنا قبل المحكمة: مناضلات وهم المحتلون ومغتصبو الأرض والحقوق؟

بذلتُ جهداً كبيراً كي أبدو وكأن شيئاً لم يحصل، لكن النظرات كانت تقيدني، ومشاعر أسى تطل من عيون الرفيقات. ضحكت رسمية ورنت ضحكاتها، أما أنا، فلفني إحساس مبهم وثقيل. اجترحت الحديث مع الرفيقات عبثاً. بعد الغداء، خرجت إلى الساحة وانزويت وحدي، فاستجابت الرفيقات لرغبتي. كان ثقل يجثم على صدري، وتولدت عندي رغبة في العراك. حين بدأت الشمس تنحدر خلف الأفق، جلست أتأملها. اقتربت الساعة من السادسة وبدأت السجانة تدعو للدخول إلى القسم. لم أستجب لدعواتها المتكررة، أرغب في التمرد على قوانين السجن وعندي رغبة في التحدي والصراع. سأضرب السجانة إن حاولت إدخالي بالقوة.

لم تقترب السجانة (جينا)، وآثرت الوقوف تراقبني من بعيد. هل أدركتْ ما كان يعتمل في رأسي، أم كانت متعاطفة ومتفهمة؟

في اتساع الدائرة

من قلب فلسطين

لم نكن خرجنا للعمل بعد. فتحوا أبواب الغرف من أجل فترة الفورة، ولما كان الجو حاراً، جلسنا فوق بلاط الممر نستمد منه بعض البرودة. دخلت امرأة قصيرة وسمينة في العقد الخامس من عمرها، تحمل صرّتها على رأسها. فتحت السجانة أحد أبواب الغرف الخاصة بالسجينات الإسرائيليّات وطلبت منها الدخول، لكن القادمة الجديدة رمت صرّتها على أرض الممر وجلست أرضاً تتلمس بعض البرودة. صرخت فيها السجانة كي تدخل الغرفة، ردت عليها المرأة بلهجة فلسطينية "حلي عني يا مستورة، والله ما أنا كايمة لو إيش ما يصير، أنا فاكعة من الشوب".

كانت هذه فوزية، التي فردت لنا قصتها من أولها حتى آخرها من اللقاء الأول: في العام ٤٨، حين اشتد الهجوم على مدينة اللد، كان زوجها أحد المدافعين عن المدينة. احتضنت طفلها ابن السنة وابتعدت به، ومع اشتداد القتال وتصاعد حركة الهرب من

جحيمه، وجدت نفسها وطفلها وقد أصبحا ضمن جموع اللاجئين الذين استقر بهم الرحيل في قطاع غزة وحيل بينهم وبين العودة إلى بيوتهم ومدنهم وقراهم، دون أن تعرف شيئاً عن مصير زوجها، إلى أن استمعت إلى رسالة من الراديو الإسرائيليّ في برنامج "من المستمعين العرب إلى ذويهم".

إثر توقف حرب العام ٦٧، التقى الزوجان من جديد. عادت فوزية مع زوجها إلى بيتها في اللد. كان الابن قد شبّ وخرج قبل الحرب إلى الخليج، ليعمل هناك. عادت فوزية لتكون عروساً من جديد (تضحك وتقهقه). أصبحت تخرج مع زوجها (عريسها) في معظم الأيام إلى مكان عمله في الحسبة كبائع خضار، وتقهقه هناك بسعادة. يوبخها زوجها ويطلب منها أن تخفض من قهقهتها، فتدزه بكوعها (وهذا ديدنها) لتذكّره بسعادتها، إذ لم تعد لاجئة بلا بيت وبلا رجل. تُحدِّثنا وتقهقه، وفجأة تأخذ في النشيج حين تتذكر أيام اللجوء، كطفل كسرت لعبته.

في أحد الأيام، حضر شخص يحمل (سحّارة) خضار وطلب من الزوج الاحتفاظ بها إلى حين عودته. لم يعد. حملت فوزية الأمانة على رأسها. بعد وصولهما البيت، انفجرت قنبلة وتهدمت أجزاء من البيت وأصيب الزوج، أما فوزية فالله حاميها.

اعتقلتهم الشرطة، وفوق خراب ديارهم كما تقول، حكموها أربع سنوات، وحكموا زوجها سبع سنوات، إن لم تخني الذاكرة.

تدزني بكوعها وتسألني: فكرك يا عايشة إللي عملها مش جاسوس؟

لم تكن فوزية تعرف القراءة والكتابة، فكانت أول طالبة لدينا في صف محو الأمية. تحمل دفترها كيفما تحركت. تقهقه وتقول:

إجت هالسجنة لصالحي، هيني بدي أطلع من السجن أستاذة.
لكنها لم تكن طالبة نجيبة أبداً.

صبحية شعبان

ألقت صرّتها التي استلمتها من المخزن الأسود وجلست فوقها وشخصت بعيون تشعّ دهشة وذكاء. لها وجه صبوح، وابتسامة فيها كثير من المودة. صبحية في السابعة عشرة من عمرها من مدينة الرملة. محكومة ستة أشهر، كان أوّل ما عبّرت عنه وهي تضع يدها على قلبها، هو قلقها على والدها الذي تركته في التحقيق تحت التعذيب.

اندفعت نحونا بمحبة تلقائية، كأنها كانت تبحث عنا مدى عمرها. أحببناها، كأن لقاءنا شكل وحدة روح كانت منقسمة منذ سنين طويلة وبقيت ضالتنا، نسعى إليها بينما كانت تضيء أعماقنا دون أن نمسك بها.

رغم صغر سنّ صبحية، فهي لا تعرف القراءة والكتابة، لكنها تمتلك من الحكمة ما لا يملكه الكبار أو المتعلّمون. كانت بكر والدها ومأمن أسراره، يصطحبها معه ويعتمد عليها، ورغم ذلك لم يرسلها إلى المدرسة ولم يرسل أحداً من أبنائه، إذ لا يريد تعليمهم اللغة العبرية بدلاً من العربية، ولا يريد لأبنائه وبناته الاختلاط بالمجتمع الذي شرّد شعبه. أخذ على عاتقه العناية بهم، فجعلهم يرافقونه في العمل في بيارتهم وأرضهم. قال لهم: أرضنا تغنينا عن الحاجة إلى هؤلاء. اشتغلوا فيها واعتمدوا عليها. وكان جمال عبد الناصر ملهماً لهم وباعثاً الأمل فيهم، يحرصون على الاستماع إلى خطاباته بالسرّ، خوفاً من ملاحقة الشرطة.

علقت صبحية على برنامج "من المستمعين العرب إلى ذويهم" بقولها: هل ترين كيف تُريدنا إسرائيل؟ مجرّد مستمعين! "من المستمعين العرب!!" لا سمة لنا إلا الاستماع، لذلك هي حريصة على إسماعنا المسبّات والتحقير ليس لنا وحدنا، وإنما لكل ما هو عربي!

سمعت التعليق لأول مرة فانبهرت به: كيف لم نفكر في دلالته رغم استماعنا له عشرات الآلاف من المرات! أية شابة هذه وأيّ أب؟

صبحية كانت طالبة نجيبة حقاً. خلال شهر تعلمت القراءة والكتابة. فجأة، دعوها لأخذ أغراضها. امتقع لونها ووضعت يدها على قلبها: أخشى أن يكون قد حدث مكروه لأبي. كان قلب صبحية قد عرف الحقيقة قبل أن يعرفها عقلها، فوالدها استشهد تحت التعذيب، كما نقل الأهل الخبر لنا.

كان لدخول المزيد من النساء المناضلات إلى الأسْر دلالة إيجابية عندنا، فهو يوسع دائرتنا وأفقنا، ويخلق تفاعلاً ويضيف تجارب، والأهم أنه يغذي الأمل فينا، ويؤكد أن شعبنا سائر في نهوضه وفي مقاومته، وأن اتساع دائرة النساء اللواتي يغادرن حالة السلبية والانزواء، هو البرهان على هذا النهوض. في تلك الفترة، اتسعت الدائرة وتعرّفنا على المزيد من الشخصيات والمناضلات من مناطق مختلفة من فلسطين.

أمينة الحسيني، ربما في منتصف الأربعين من العمر. تعرّفتُ من خلالها على نموذج لشخصية أرستقراطية. كانت دمثة بشكل يلفت الانتباه وليس من السهل تقليده، وكانت مترفّعة عن التفاهات وتحافظ على مسافة مع الآخرين، وحتى مع الأشياء، لا يفارق الكتاب يدها الذي كان عادة بالإنجليزية، فإذا حصل شيء في محيطها، ترفع عينيها عن القراءة وتتأمل ما يجري، ثم تعود إلى

صفحات كتابها. ورغم ذلك، نشأت علاقة احترام ومحبة معها، واستمتعنا بالنقاش معها في غير تلك النقاشات الثورية التي نريد فيها تغيير العالم وخلقه من جديد، بل حول مفاهيم الحياة.

سعادة النابلسي، كانت نمطاً آخر لشخصية أرستقراطية. شديدة الثقة في نفسها. تنظر إلى العالم من موقعها الطبقيّ ومن زاويتها الفنية. سعادة أنهت دراستها الجامعية في مصر في مجال الفن التشكيلي، ولم تتصوّر قط أن يزجّ بها في السجن لسبب مجنون؛ هو كونها أخت رندة النابلسي، التي انسلخت عن طبقتها ودخلت العمل الثوري، وبالذات العمل المسلح، وكانت في سجن نابلس تنتظر حكما عالياً.

الثنائي: **رندة النابلسي وسهام الوزني**، أطلق سراح سعادة، وصدر الحكم بحقّ أختها رندة عشر سنوات، وكانت معها صديقتها سهام الوزني التي حكمت ثماني سنوات. تم نقلهما إلى سجن الرملة حال صدور الحكم بحقهما، بينما بقيت في سجن نابلس عشرات من النساء الموقوفات أو المحكومات أحكاماً خفيفة.

رندة، جمعت في شخصيتها صفات أرستقراطية وثورية في الوقت ذاته: دمثة ورقيقة، ورغم صغر سنها (فهي لم تنه دراستها الثانوية)، إلا أنها كانت واسعة الثقافة ذات الطابع الثوري الذي يسعى إلى تغيير العالم لصالح الطبقات المسحوقة، إضافة إلى الرومانسية.

كنت زرت بيت سعادة ورندة، العام ١٩٦٨، دون أن ألتقي أو أتعرّف على أيٍّ منهما. كانت مهمتي منحصرة مع أختهما مها، إضافة إلى مهمة أخرى تتطلّب الاتصال بشادية أبو غزالة. انبهرت بكلا البيتين (بيت النابلسي وبيت أبو غزالة). كانا قصرين يختزنان تاريخاً عريقاً، لم أكن أنا ابنة قرية دير جرير، وحتى ابنة رام الله، شاهدت مثلهما من قبل.

رندة، الثورية والرقيقة كزهرة ياسمين، أصبحت وَرْدَة السجن وبَلْسمه. (سمينا نوعاً من الزهور لم نكن نعرف اسما له؛ رند).

(سهام، توأم روح رندة، أبعدت بعد فترة، لتلقى قدرها وتستشهد على أرض سوريا أثناء حرب تشرين، العام ٧٣.)

لطفية الحواري، بالإضافة إلى كون الرفيقة لطفية صديقتي، كانت دينامو التنظيم في منطقة رام الله والقدس. خبر اعتقالها شكّل صدمة لي، أما خبر نسف بيتها فشكّل أحجية. لطفية خرجت من الأسْر قبل اعتقالي بأسبوعين تقريباً. فكرتُ: نَسْفُ بيتها يعني دخولها العمل المسلّح، فمتى حصل ذلك؟ هل من الحكمة أن تخرج من الأسْر وتدخل إلى العمل المسلح مباشرة؟ تذكرت أننا لم نتحدث بعد خروجها من السجن كفاية. كنت دخلت على خط العمل المسلح ونتهيأ للعملية، لا بدّ أن تحفّظي معها، ومن ثم اعتقالي، شكّلا لُغزاً عندها، وها هو اعتقالها ونسف بيتها يشكلان عندي لغزاً.

كنت تعرفت على لطفية في الصف العاشر حين جاءت إلى مدرسة بنات رام الله الثانوية منقولة من مدرسة بنات البيرة، كإجراء عقابيّ على نشاطها السياسي، فشكّلت شخصية خلافية: فريق شديد الانتقاد لها، وفريق شديد الإعجاب. لكنّها وبالتأكيد كانت الأكثر حيوية وإثارة للجدل، وصاحبة مبادرات واقتراحات ومشاريع نشاطية غير منهجية، على غير ما كنّا عليه، كثيرة القراءة لكتب غير منهجية، تحوّل أفكارها إلى أفعال دون تردّد، ما إن تتولد فكرة في رأسها حتى تبادر إلى تجسيدها. بادرتْ إلى تأسيس مجلة، كتبتْ هي معظم مواضيعها، إضافة إلى نوادٍ مدرسية لأنشطة غير منهجية. كانت علاقتها مع المعلمة الشقراء والمحبوبة "نهيل عويضة" مميّزة، وكانت هذه العلاقة مثار غيرة لدى عديد من

الطالبات. نمط شخصيتها أثار اهتمامي. تبادلنا الكتب وناقشناها معاً. دخلتُ من خلالها إلى فضاءات الشأن العام. بواسطتها أصبحتُ أقرأ "الوحدَة"، النشرة السرية لحركة القوميين العرب. الوحدة العربية حلم يحرك الوجدان، أمنية تعشّش في الأعماق، هدف أعطي الروح من أجله، والانتماء لحركة تعمل من أجل الوحدة العربية يملؤني اعتزازاً. ورغم كوننا شخصيتين مختلفتين، أصبحنا صديقتين ورفيقتين لا تفترقان تقريباً، وبالتنسيق فيما بيننا، وبالتعاون مع معلمتنا نهيل عويضة، تم استقطاب العديد من بنات المدرسة إلى حركة القوميين العرب، ومن أبرزهن: روضة الفرخ، سلافة برغوثي، فاطمة سحويل، فاطمة الرمحي، شريفة حمودة، وجيهة وجيه، لكن وللحق، فإن الدور الرئيس كان للطفية.

الانتماء إلى الحركة فعّل فينا طاقات كانت كامنة، وأخرجنا من الدائرة المغلقة التي يشكّلها الاهتمام بالتحصيل العلميّ وحده، فانخرطنا في أعمال تطوعية مع جمعية إنعاش الأسْرَة، وفي المخيمات، وفي مجتمعاتنا المحلية، وهذا الانتماء هو الذي وقف وراء تميّز سلوكي أثناء الحرب وما بعدها، وبرز ذلك حين كان البعض يأتي ليسرّ ليّ عن وجود أسلحة هنا وهناك، رماها بعض أفراد الجيش الأردني، ولا مجال لسرد المزيد من الأمثلة، وهي كثيرة.

بعد توقّف حرب العام ٦٧، كان أول عمل قمت به هو الاتصال بها. لم نضيّع وقتاً، وبالتنسيق مع السيد عبد الجواد صالح رئيس بلدية البيرة حينذاك، بادرتْ لطفية إلى تأسيس فرقة كشافة، وحصلت من البلدية على مقرّ، أصبح مقراً لنا (رفيقات حركة القوميين العرب)، نلتقي فيه ونلعب كرة الطاولة والريشة الطائرة ونطالع كتباً ومجلات ونناقشها، ونرتب أعمالاً تطوعية وأنشطة اجتماعية.

كانت رفيقة عمر، وها هي تدخل الأسْر، ليستمرّ مشوار حياتنا معاً. وضعوها في الزنزانة (القديمة). كنت أسمع صوتها تطلب ماء أو دواء، وكانوا يتجاهلونها، ما يزيدني ألما. نُقِلتْ إلى قسم الغفارة، وأخيراً إلى القسم، وأصبحنا في غرفة واحدة.

كعادتها فتحت لي قلبها. كانت متألمة كثيراً مما تعرضت له في التحقيق من تعذيب. عانت من قسوة العزل دون أن تعرف المكان الذي كانت فيه، (ربما في سجن صرفند، أو أي سجن آخر كما قالت). زنزانة لا ترى النور، ولا تستطيع الوقوف فيها، فبقي ظهرها محنياً طوال الوقت، بلا فرش أو غطاء. أصوات تعذيب تسمعها خلال ليالٍ طويلة. كلاب ضخمة يوقفونها باب الزنزانة تهمّ بتمزيقها، ومحقق يرقب خوفها ويقهقه! حين كانت تذكر الكلاب، كنت أرى خيالات الرعب تموج على وجهها.

ها هي صديقتي التي مشيت معها في شوارع رام الله والبيرة والقدس، أصبحت تعاني من أوجاع شديدة في الظهر، تمتدّ إلى ساقها، وأحياناً تشعر بأنها لا تستطيع تحريكها، وها هو حكمٌ بعشر سنوات يُلقى على كاهلها.

كما تصورتها!

كنت أجلس ولطفية في ظل الشجرة الوحيدة الموجودة في الساحة المسيّجة التي نتحرّك فيها. دخلت سيارة إلى داخل السجن، وتعدّت بوابة القضبان وتوقّفت بالقرب من مكاتب الإدارة. نزلت من السيارة مجندة، ثم نزلت شابة ممشوقة الطول كعود خيزران -كما تصف أمي جمال الطول- شعر حريري كخيوط ذهبية ينسدل ويغطي ظهرها. علّقنا؛ ما أجملها من فتاة! هاتف في أعماقي

قال إنّها **عائدة سعد!** هكذا تخيلتها تطير في سماء فلسطين، حين سمعت عن عمليتها أثناء التحقيق. راقبنا دخولها إلى المكاتب. ذهبوا بها إلى المخزن الأسود وعادت إلى القسم تحمل صرّتها. تحركت طاقة كامنة في روحي. قلت للطفية: يجب أن تكون هذه عائدة سعد، وكانت هي بعينها. كانت تحمل حكماً بعشرين سنة. كان الحكم يزيد على عمرها بثلاث سنوات. عائدة بريئة كالأطفال وشفافة كالبلور. احتلّت في القلب مكاناً لم يحتلّه غيرها؛ كانت ابنة لنا. سألناها مرة: كيف استطعتِ إلقاء قنبلتين على دورية عسكرية يا عائدة؟

قالت: ببساطة، ليس من حقهم أن يجوبوا بدباباتهم شوارعنا وحوارينا. يجب أن نلقي عليهم القنابل، وأنا رغبت في فعل ذلك كثيراً، وفعلت.

هكذا اتسعت دائرتنا.

وتكشف القلوب أسرارها

فاض الشوق

ليس من السهل تخطي السد المقام في وجه الحبّ في ذلك الزمن، كان فتح القلوب حتى تعبر عن مكنوناتها من العواطف عملاً جبّاراً، إن لم يكن مغامرة كبرى، قد تؤدي إلى حرب على الحب والمحبين، وعلى الفتاة بشكل خاص. كان عليها أن تحافظ على حبها كبؤبؤ عينيها، يمدها بالحياة والأمل دون أن تجرؤ على كشفه. لكننا داخل المعتقل، تخطينا الكثير من الحواجز الاجتماعية والمقولات السلبية، ودخلنا صميم معركة كبرى، فهل تستمرّ السدود والقلاع وإقفال القلوب بمفاتيح ترمى في الجبّ؟ لا بدّ لدائرة الصمت أن تنفتح وتسيل منها الأسرار وتتحوّل إلى بلسم للقلوب وشموع تبدد ظلمة الأسْر، وتصبح الأرض سَهْلاً مشتركاً بلا فواصل.

فاض شوق سامية. جاءتني والدموع تملأ مآقيها. لم تعد قادرة على كتمان حبّها، وتريد أن تتحدث عنه وتشارك غيرها فيه. هل يعرف الحب غير المشاركة، فكيف تبقى وحيدة معه؟ تريد عرضه

في الشمس، وأن تقول بأعلى صوتها إنها في شوق إلى حبيبها، في شوق لمعرفة أخباره، وهل هو مشتاق مثلما هي مشتاقة؟ هل يسأل عنها؟ هل ما زال يحبّها؟ كيف ستسأل عنه وهي لا تجد سبيلاً إلى ذلك؟ لو تأتي أختها أمينة سرّ قلبها وحدها في زيارة! لكن أمها لا تتنازل عن حقها في الزيارة، ولو عرفت أن ابنتها غارقة في الحب لأقامت الدنيا ولن تقعدها. هي تعرف أمها وغير قادرة على مواجهتها ولا بد من مخرج!

أخيراً جاءت أختها في زيارة وحدها، وكانت بترتيب مع الحبيب: فهل يسع العالم كله فرحة سامية؟ عادت وقد خفّت مثل فراشة، فراحت ترفّ وتدور. ها هو الحبيب يقف إلى جانبها، مؤكداً إخلاصه، وسيتقدم لخطبتها رسمياً، وسينتظرها مهما كان حكمها. سيقنع والديها بأن يكتب كتابهما لأنه سيكون عامل تسريع في الإفراج عنها، فلديه جنسية أميركية ستساعده على أخذها معه إلى أميركا، وسوف يستشير محامياً!

"أن تحبّي وأن يسأل عنك الحبيب وأن ينتظرك، هذا رائع، أما أن تذهبي إلى أميركا!". قلت ذلك مازحة، لكني كنت في الحقيقة جادة، فالسفر إلى أميركا بما يعني الهجرة يغمّني، فكيف نناضل للثبات على أرضنا ثم نتركها ونهاجر إلى بلاد أخرى؟

قلت لسامية بشكل غير مازح هذه المرة: هل تهاجرين يا سامية؟

أطرقت تفكر، ثم رفعت رأسها وسألتني بدورها: وهل أمضي العمر في السجن؟

- لا تقولي العمر، فأنت لم تعرفي حكمك بعد.
- أنت تعرفين أنه سيكون طويلاً.

- لا أعتقد، فأنت تحت السنّ القانونية، ولم تفعلي شيئاً يستحقّ الحكم الطويل.
- لكنّي أحبّه، ولا أريد العيش بعيداً عنه، ما دمت أستطيع ذلك.

أسقط في يدي، فالموقف محيّر ومربك، ولا شيء يتقدم على الحبّ حينما يكون موجوداً، كما أن من حقها أن تتحرر من السجن وتعيش مع حبيبها وتشكل أسرة. ولكن لماذا السفر إلى أميركا وترك البلاد لهم؟ هل أستطيع أن أقول لها: اصمدي في الوطن وعليه أن يصمد هو كذلك!

لماذا تكون خياراتنا كالمستجير من الرمضاء بالنار؟

رافقت تفاصيل عواطف سامية. كانت تضيء قنديلاً لنا في عتمة السجن، وأفرجت بدوري عن أسرار قلبي، رغم أنّي لم أكن في انتظار أحد، ولم يكن أحد في انتظاري. الحبيب الذي رفّ القلب له، لم يعد إلا ذكرى، أهرب إليها كلما أصاب الروح الظمأ.

كان اليوم الأول من رمضان الأول بعد هزيمة العام ١٩٦٧. عدت من رام الله قبل الإفطار بدقائق. دخلت البيت لاهثة. كان الأهل يجلسون حول مائدة الإفطار في انتظار الأذان، وكان هو يتوسط أمي وأخي. ومضة في لحظة التقاء العيون، انبثق عنها عالم من السعادة. كانت الومضة كافية لتحويلي إلى كائن من أثير، وليهتف قلبي: "إنه هو بالذات"! ولا بد أنه ردد هتافه الخاص "إنها هي بالذات". أسرعت إلى غرفتي قفزاً، رميت بحقيبة يدي كيفما اتفق وانضممت سريعا إلى المائدة.

لم يكن غريباً ولم يكن ضيفاً! روحي تعرفه منذ الخليقة، كان عضواً طبيعيا في الأسرة. كان غائباً وقد حضر! يحتفل أخي به بفرح وتبسّط، وأمي تناديه "كل يمّه هذه وهذه". وتبسّطت بدوري مثلما كان متبسطاً، وها هو يضفي على الجو فرحة عودة الابن الغائب، ويفجر ينابيع السعادة في قلبي. وتساءلت في نفسي إن كنّا خلقنا معاً.

كان قائد مجموعة فدائية تسللت عبر نهر الأردن، واتخذت من مغاور وادي "الحبيس" في الشرق من قريتنا، مرتكزاً لها. كان الرفاق في رام الله قد أبلغوني أن مجموعة فدائية ستصل وسيكون بيتنا حلقة الوصل معهم.

حين اختليت مع نفسي في غرفتي، رقصت ودرت حول نفسي بينما ذراعاي على اتساعهما كجناحي طائر يهم بالطيران. "فدائي"؛ يا للكلمة الساحرة! ربما كان هذا هو السرّ، وهو السحر الذي أصابني؟ لكن لا، إنه شيء آخر، شيء أصابني في نقطة مركزية في كينونتي، فانفجر منها ينبوع سعادة، ها هو يفيض ويحملني على أجنحة تبحث عن فضاءات لا تنتهي.

كيف لومضة أن تخلق عوالم بهذه الروعة؟ أية أسرار نحمل في ذواتنا لا نكاد نعرفها حتى تُفاجئنا؟ كنت أعتقد أنني أعرف الحبّ حين أستمع وأردّد أغاني عبد الحليم حافظ وعبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش، وأدندن معهم، وأشعر بأن قلبي معلّق بخيط متأرجح، وأتصور أن الحبّ حاضر، لكن الحبيب غائب. أغني "الحبيب المجهول" لعبد الوهاب فأتماهى مع ما تخلقه من أوهام الحبّ، بينما كنت أهزأ من العواطف التي تحوم حولي!

لم أعد تلك التي كانت قبل آذان مغرب اليوم الأول من رمضان ما بعد الهزيمة، لقد أمسيت مخلوقاً آخر من شيء اسمه السعادة.

صباح اليوم التالي، كناّ نهمّ بالصعود في سيارة الفوكس خاصتنا للذهاب إلى العمل، وإذا به يقف أمامنا! هل هبط من السماء؟ اتسع الكون وأدركت أنه جاء من أجلي بالذات لينثر سعادة تملأ الأرض والسماء. جلس إلى جانب أخي فتوفرت الفرصة لي لتأمله دون أن يشعر بذلك أحد، هل أحسّ بي؟

في عين يبرود، حيث أدرّس، نزل ليفسح لي المجال للنزول، وقفنا قبالة بعضنا، وجهاً لوجه، لحظة كانت كافية لنتأكد أننا روح واحدة.

كيف قطعتُ المسافة ما بين الشارع العام ومدرسة بنات عين يبرود؟ هل لامستْ قدماي الأرض؟ لا، لم أشعر قطّ أني أطأ الأرض، لأني تحوّلت إلى فراشة ترفّ بأجنحتها وتتنقّل بين البساتين - وكانت البساتين كثيرة على جانبي الطريق.

سألتني المعلمات: أي بشرى تنقلينها لنا يا عائشة، فالفرح منك يفيض؟

تكرّر مجيء عبد السلام على رأس مجموعات فدائية، خطّطت وقامت بعمليات ضدّ تجمعات للجيش الإسرائيليّ. طورد أخي، وغاب عبد السلام. وفي زيارتي الأولى للأردن، العام ٦٨، بكى أخي! ثم رفع رأسه وقال: استشهد (على أرض الأردن).

ها أنا لا أنتظر أخباراً ولا رسائل، لكن لحظات الفرح والسعادة التي انبثقت من وجوده تبقى متلألئة وحاضرة كقنديل في عز الظلام.

وشرّعنا أحاديث الحب: مريم الشخشير تشكو من الشوق كذلك، وتنتظر إشارة من الحبيب. جاءتها الإشارة مع أختها: سينتظرها مهما طال الزمن، وسيكتب لها دائماً، ويسأل موافقتها ليتقدم

رسمياً لخطبتها. ورسمية تكشف عن حبّها ليعقوب. وقد أعلنا فيما بعد خطبتهما. أما لطفية الحواري، فكانت واضحة منذ البداية إذ كتبت كتابها قبل دخولها السجن على الحبيب الذي كان أسيراً ومحكوماً سبع سنوات.

ثم، ،

استلمت رسالة آتية عبر لندن! كانت من بهجت يعلن فيها حبّه وانتظاره لي مهما طال الزمن!

لماذا دخلت على خطّ الحبّ الآن يا بهجت؟ ألم نعش إخوة وأصدقاء ورفاقاً وأبناء عمومة سنوات طوال دون أن يتدخل الحب بيننا؟ لماذا تدخل باب الحب من باب الشهامة؟ هل تعتقد أن الحبّ يقبل أن يرتدي عباءة غير عباءته؟ ألا تعرف أني سأحكم مؤبداً؟ هل تريد أن تهب عمرك للشهامة؟ ويرد بهجت أنه الحب لا الشهامة. وتتوالى الرسائل والحوارات فيما بيننا. ويبقى بهجت مُصرّاً على موقفه. وتتحوّل رسائله إلى ما يشبه فيضان الندى في جفاف الصيف، وإن لم تكن رسائل حبّ بالمعنى المعروف.

كانت رسائل الحبّ أكثر ما ينعشنا، كل رسالة لأيٍّ منا، حين تصل، تحوّل السجن إلى عيد.

هل أحببت بهجت كحبيب، أم بقي كما كان؛ الأخ والصديق؟

في ظل الحرمان المطلق والحاجة الأكيدة للحبّ، قد نخلق لأنفسنا أوهاماً تساعدنا من تخفيف قسوة الواقع. لكنها في الواقع ليست إلا زبدة تذوب لمجرّد أن تلمسها أشعة الشمس. بهجت سافر إلى الخليج حال حصوله على التوجيهي. كان عليه أن يعيل أسرة مكوّنة من خمسة أفراد، غاب عنها الأب منذ زمن طويل، وتحملت

الأم وحدها المسؤولية، وجاء دور الابن البكر ليساعد في تحمل المسؤولية الثقيلة. حصل بهجت على تصريح لزيارة الأهل والبلاد العام ٧٨، وإذا به قد تقدّم من مصلحة السجون وطلب تصريحاً خاصاً لزيارتي. تفاجأت بزيارته وبإحضار المأذون والخاتمين معه!

كيف أصف الموقف؟

يقف أمامي ولا أرى إلا أخاً شهماً، أمضينا تسع سنوات كاملة نخلق فيها الأوهام دون أن تتحوّل إلى حقيقة. اتخذت قراري: لا استمرار في وهم. حاولت أن أوضح، لكنه قال بإصرار: لن أقبل رفضك وأنت داخل السجن، فالذي في السجن، لا يمكنه معرفة حقيقة مشاعره. سأنتظرك حتى لو بعد ستين عاماً، وحين تتحررين، سأقبل قرارك مهما كان، ولن أفرض نفسي عليك أبداً.

كان عنيداً، وكانت الحقيقة جلية أمامي، فقرّرت حسم الموقف، فأحرّره وأحرّر نفسي. خرج غاضباً ولا أعرف ماذا أيضاً، لكنّه لا شك، بدأ رحلة جديدة في حياته.

لا بد من الفعل

ليس ابنكِ

هيأت نفسي للزيارة. طال انتظاري. لعب الفأر في عبّي كما يقولون، وفكرت: قد يكون اليوم هو يوم نحسي مع "يعل"، فهي تشرف على زياراتنا منذ فترة، وتخلق لنا المشاكل. لم تمرّ زيارة دون مشكلة لواحدة منا أو أكثر. حذّرنا من سلوكها الاستفزازي وتحدثنا عنه مع المديرة، لكن شيئاً لم يتغيّر.

كانت الزيارة الأولى من نصيب عفيفة بنورة. حال عودتها من الزيارة، أخبرتني أنه لا يوجد من الأهل في الخارج حتى حينه غير أختي ومعها "عودة" طفل أخي.

عند عودة فاطمة برناوي من زيارتها، أعلمتني عن مشكلة مع "يعل" التي ترفض إدخال "عودة" إلى الزيارة، وترفض أختي الدخول بدونه، ونصحتني أن أطرح المشكلة على المديرة. استغربت المديرة ووعدت بحلّ المشكلة. مع ذلك بقيت أنتظر إلى أن شارف يوم الزيارة على الانتهاء! ثم نودي عليّ. دخلتُ غرفة الزيارة ولم أجد

أهلي كالعادة، ولكني سمعتُ جدالاً حاداً بين "يعل" وأختي في غرفة التفتيش المجاورة، حيث كان الباب الفاصل مفتوحاً.

سألت يعل: ألم يصلك أمر المديرة بإدخال الطفل للزيارة؟ قالت: هذا من شأني أنا، وليس من شأن المديرة، فهي لا تعرف القوانين مثلما أعرفها!

استغلت أختي الفرصة وتقدمت نحو غرفة الزيارة وكان عودة يمسك بتلابيب ثوبها. أسرعت "يعل" وشدّت الطفل لمنعه من الدخول. أفقدني المشهد صوابي. قلت بصوت احتجاجي: لقد سمحت المديرة بإدخاله. فلماذا تمنعينه؟

- هذا غير ممكن، إنه ليس ابنك!

أخذت "يعل" تشدّ الطفل كما تفعل ذئبة، وأختي تمسك به. أيّ غضب أشعله الموقف في رأسي؟ عربد غضبي. أردت القفز فوق الحاجز والانقضاض على "يعل"، أمسكت بي السجانة، وجاءت أخرى بسرعة البرق. صفقت "يعل" الباب وغابت خلفه، وغابت أختي. أطبق الغضب بكامل سيطرته على كياني، لا متنفس أمامي إلا الشتائم والتهديدات، فتطايرت مني أطيافاً ورفوفاً. أمسكت السجّانات بذراعي، واقتدنني إلى القسم، وأنا مستمرة في إطلاق التهديدات النارية فسمعني كل من كان في السجن وعرف ما حدث. أقفلت السجانات عليّ باب الغرفة، وبقيت وحدي أحترق بغضبي وقهري.

مع انتهاء يوم العمل، تدفقت الرفيقات إلى غرفتي. كان الغضب يحتلّني بشكل كامل. كان مشبعاً بحسّ من القهر ورغبة في الانتقام، فأطبق عليّ النطق. تحجرت ملامحي كتمثال. بذلت الرفيقات جهوداً كبيرة لإخراجي عن صمتي، لكني لم أنطق.

أشعل الموقف رعبهن، وشنّت "رندة النابلسي" هجوماً كاسحاً: عظيم يا ست عائشة، شاطرة بس في التنظير علينا عن أهمية الصمود وعن ضرورة إفشال مخططات العدو! وأنت الآن واقعة في كمين "يعل" وبتنفذي مخططها! مش هذا اللي بدها إياه "يعل"؟ مش بدها تقهرك وتسمّ بدنك؟ بتقدري تقولي إن الأمر مش هيك؟ بتقدري تنفي إنك مش في كمين "يعل"؟ تجرّئي بعد اليوم واحكيلنا عن الصمود في وجه مخططات العدو!

فتح هجوم رندة كوة في جدار صمتي. انطلقت كلماتي كحمم بركانية، أزبدت وأرغيت وأرعدت. شعت ابتسامة من عيني رندة. تنفس الجميع الصعداء. وحدثتني رندة فيما بعد عن رعبها من إمكانية تعرّضي لجلطة دماغية.

منذ أن تعرفت على رندة، اكتشفت فيها هذا الذكاء الخاص، وقدرتها على شحن عواطفها النبيلة للإمساك بمفاتيح النفس البشرية. هذه إحدى سماتها التي وضعتها في موقع الثقة والمحبة من الجميع على الإطلاق، كما فرضت احترامها على الأطراف الأخرى من إدارة وسجّانات وسجينات.

هذا الانفراج ربما أنقذني حقاً من جلطة، لكنه أبقى على معدتي مغلقة بمفاتيح الغضب، فلم أتناول طعام الغداء أو العشاء أو الإفطار في اليوم التالي.

لا بد من الفعل

كنت ولطفية الحواري نناقش كل الأمور معاً بانفتاح وصراحة. قلت لها: يجب أن أعمل شيئاً ضدّ "يعل"، لن أحترم نفسي بعد اليوم إن لم أفعل شيئاً ضدها.

وافقتني الرأي وقالت: نعم، يجب أن تُعطى هذه اللئيمة درساً، لأنها تمادت كثيراً. ولكن ما الذي يمكن عمله؟

- يجب أن أضربها!
- لا تنسي أنها قوية البنية ومدربة تدريباً عسكرياً جيداً، وأي صدام معها لن يكون في صالحك، وفي هذه الحالة قد تلقنك أنت الدرس، بدلاً من تلقينها درساً.
- لا تستهني بطاقتي، فلديّ من الغضب ما لا تتصورين.
- لا تنسي أن غضبك اليوم، لن يكون نفسه في الغد.
- غضبي لن يهدأ قبل أن ألقّنها درساً.

تداولنا أفكاراً واحتمالات عدة، واتفقنا أنه لا يجوز الاكتفاء بالتهديد دون الفعل، لأنه يسخّفنا أمام الأعداء، ولن يحسبوا لأقوالنا قيمة. استعرضنا عدداً من الخطط والاحتمالات، وتم الاتفاق على خطة معينة مع إبقائها سرية إلى أن يتم تنفيذها.

صباح اليوم التالي، نهضت باكراً، وبإحساس من يستعدّ لخوض معركة، وكنت أول من خرج إلى العمل. كنت ورسمية ورندة ومريم الشخشير وسامية الطويل، نعمل في الحقل. سبقتُ الجميع كما لو أني أستعجل الزمن. عملنا في ذلك اليوم كان في قطعة أرض غير مسيّجة، تقع في منطقة بين الساحة المخصصة للقسم (أ) والبوابة الخارجية ومكاتب الإدارة والمخيطة. كان الموقع إستراتيجياً بالنسبة لخطتي، إذ يتيح رؤية حركة "يعل" ورصدها، ويسهل حركتي. واظبتُ على مراقبتها. دخلت البوابة الرئيسية بثيابها المدنية واتجهت نحو مكاتب الإدارة، ثم خرجت منها بعد أن ارتدت ثيابها الجيشية، وضمت دفتر ملاحظاتها إلى صدرها، واتجهت نحو المخيطة. جيد، ستمر الآن من أمامي. تسارعت دقات قلبي، وحين اقتربت، ناديت عليها وتقدّمت نحوها كأن

شيئا لم يحصل بالأمس. تقدّمت نحوي كما لو أنها لم تفعل شيئاً كذلك. حين أصبحت قبالتي، رشقت عيونها بقبضة من التراب، وأخرجت جوربا وضعتُ فيه حصى صغيرة كنت جمعتها من الأرض لتصبح بحجم حجر مناسب، وقذفت به وجهها وأنا أقول لها: عشان تتذكري وتكوني إنسانة. صدمتها المفاجأة، وقبل أن تمد يدها كنت قد ابتعدت.

وقف كل من في السجن مذهولاً: الإدارة والسجينات في المخيطة ورفيقاتي اللواتي يعملن معي في الحقل. كان الحدث على مرأى من الجميع. عمل صغير في لحظة معينة، يحدث تخلخلات ويقلب معادلات وعوالم! انقلب عالم السجن وانقلب عالمي الداخلي. ارتفع صوت سجينة إسرائيليّة كانت "يعل" قد سببت لها مشكلة قبل أيام: تسلم إيدك يا عائشة، بتستاهل "يعل" (الزناة).

هذه إهانة جديدة. انسحبتْ نحو مكاتب الإدارة، وانسحبتُ أنا بالقرب من الرفيقات. أطلّت ابتسامات محبّة غامرة من عيونهن، أما أنا فأصبحت واحدة جديدة غير التي كنتها بالأمس أو حتى قبل لحظات! لم أعد المحبطة، أو الغاضبة، أو المقهورة أو الراغبة في الانتقام، لقد انجلى داخلي وصار متلألئاً كبلور مغسول، وكما الطبيعة حين تشرق شمسها بعد عاصفة من الأمطار.

دقائق، وكان الجنود (التجبورت) قد حضروا. تقدمت الضابطة المسؤولة مريم أمام الجنود. مريم هذه كانت جدّية ولا تعرف الابتسام، لكني لمحت في نظرتها وتعبير وجهها شبه ابتسامة كما لو أنها تقول: تسلم إيدك، أو هكذا تخيلت. ربما كانت ابتسامة تشفٍّ في "يعل" التي كانت مكروهة حتى من زميلاتها. أو ربما تخيلت في لحظتها أن الكلّ يحييني! حين اقترب الجنود مني قلتُ

كما لو كنت ألقي إليهم أمراً: لا تقتربوا مني، إني أعرف طريقي إلى الزنزانة!

بانت ابتسامة الضابطة مريم بوضوح وأعطت أمرها: لا تلمسوها، وسيروا إلى جانبها فقط.

سارت الضابطة أمام الجميع في اتجاه الزنزانة. أحاط بي ثلاثة جنود؛ واحد على يميني وآخر على شمالي والثالث والسجانة "راحل" من خلفي. قلت في نفسي: ها أنا أصبحت المركز وهم يدورون في فلكي. كنت أسير وأستمع إلى وقع خَطوي. ها أنا أقبض على الفرق بين اللحظة والأمس! وشتان بين العائشتين وبين الزمانين وبين الخطوين! بالأمس كنت مقهورة ومظلِمة النفس ومشحونة بقوى الغضب. أما اللحظة؛ فهادئة ومضيئة ومتلألئة وواثقة. بالأمس؛ كانت إنسانيتي مذبوحة ومهانة حتى النخاع، وها أنا اليوم أستردها.

كنت أقارن بين الموقفين المتناقضين بين ذلك اليوم وأمسه أثناء تقدمي نحو الزنزانة ناهضة الكتفين والرأس. كنت أسير تلك المسافة القصيرة مرتين يومياً؛ صباحاً وظهراً لأخذ أدوات العمل في الأرض ثمّ إعادتها دون أن يعني لي ذلك شيئاً. أما اليوم، فالدرب يردد صدى كل خطوة من خطواتي وأجعله شاهداً على التغير الذي طرأ عليّ! كما أحتفظ بصدى خطواتي في نفسي نبعاً أستمد منه طاقة تعينني على مواجهة أي ظلام قد يغطي حياتنا. أدركت أثناء ذلك أن لا إنسانية لمن لا يرفض الظلم والقهر، وأن كل من يقبل الظلم يقبل التخلي عن إنسانيته. ما كان أجملني وقد تحررت مما سوّد نفسي!

فتحت الضابطة الباب الرئيس لقسم الزنازين. كان يفضي إلى ممر، على يمينه باب آخر يفضي إلى ممر آخر، اصطف على جانبه

الأيسر خمسة أبواب، فوقفت أمام الأوسط، وراحت تقلّب حزمة مفاتيحها، وقبل أن تفتحه أشارت إلى الجنود كي يبتعدوا إلى مدخل الممر.

دخلت السجانة "راحل" الزنزانة خلفي، وانتظرت الضابطة خارجها وأغلقت بابها دون إقفاله. طلبت السجانة خلع حذائي ففعلت وناولته إياها كأني أميرة وهي خادمتي! رمقتني بغيظ وتقابلت نظراتنا في تحدٍّ صامت. (كنا نصنفها ضمن حزب "يعل"). طلبت خلع صدريتي وشريط شعري ففعلت. أخذتْهما وخرجت. أقفلت الضابطة باب الزنزانة، وانصرف الجميع.

في صميم الحرية

- حسنا يا عائشة؛ أنت حرة الآن تماماً، لا شيء يقيدك، لا حقد ولا رغبة في انتقام، لا أحد تكلمينه، لا كتاب تقرئينه، لا قلم تكتبين به، لا مذياع تستمعين له ولا تلفاز تشاهدينه وحتى لا حذاء! تحسست الأرض بقدمي، شعرت بإلفها وبقدمي تحتفل بحريتها إذ لا شيء يقيدها. كل شيء فيّ حر. دبكت وعملت حركات بهلوانية تأكيداً على حرية أعضائي كلها. هذا رائع! قفزت إلى رأسي فكرة طازجة ولامعة: يجردونك من كل شيء، فتدخلين في صميم حريتك!

عدت أصفق وأردّد (رائع رائع). درت حول نفسي مع غبطة الاكتشاف، ثم توقفت: هذا بيان رقم واحد. مددت يدي أفتش عن بكلة في شعري، وجدت واحدة. حفرت بياني الأول على الجدار المحاذي للباب بعيداً عن أعين السجانات. كان لوقع البيان

الأول محفوراً على الحائط إيقاع جميل، جعلني أردد من جديد: رائع رائع، كما لو كنت على خشبة مسرح.

لا بأس، ها أنا في زنزانة حديثة ونظيفة. بدأت في عد بلاطها، فتبين أن طولها متران وعرضها متر ونصف المتر تقريباً، بها مرحاض يرتفع عن أرضها بمقدار عشرين سنتيمتراً أو أكثر، فُصل بحائط صغير بارتفاع وعرض متر واحد. كان المرحاض قذراً. حنفية صغيرة إلى جانبه، لكنّها خالية من الماء. في أعلى الحائط المجاور للمرحاض نافذتان صغيرتان في صف واحد بارتفاع ٢٥سم وعرض ٤٠سم تقريباً، محصنتان بثلاثة قضبان حديدية سميكة في تواز مع السقف الذي يشكل الحافة العليا لها. أردت القفز فوق فاصل المرحاض، ربما أستطيع رؤية مشهد خارجي. حركة الباب الخارجي جعلتني أتراجع.

خبز وماء

كانت المديرة ومعها الضابطة والسجانة. وقفتْ متجهمة الوجه. طلبت أن أبقى واقفة لأنني الآن أمام محكمة. ارتدت نظارتها وفتحت دفتراً في يدها وقرأت: ".......يحكم عليها أسبوعين في الزنزانة. يكون أكلها طوال الأيام الثلاثة الأولى خبزاً وماء فقط"!

هكذا انتهت المحكمة وأقفلت دفترها وعادت أدراجها. فكرت: أية محكمة هذه التي لا يتكلم فيها إلا من يصدر الحكم! ثم أخذ الحكم يتردد في وعيي كبندول الساعة؛ "خبز وماء فقط، خبز وماء فقط"! ياااه! كيف اشتقّ عقلها هذا الحكم؟ كيف للطعام أن يكون موضع حرمان؟ سأصعد التحدي وأعلن الإضراب عن الطعام احتجاجاً على استخدامه عقاباً.

بدأت أفلسف الأحداث فأرى الحكم تافهاً ولا يعنيني في شيء، فسواء أكلت خبزاً وشربت ماء فقط أو أكلت أشهى المأكولات

فالأمر عندي سيان، فأنا في حاجة إلى ما يسد أودي، وسواء كنت في القسم أم في الزنزانة، فكلاهما سجن، بل بحثت عن إيجابيات وقلت: أنا في حاجة للإنفراد مع نفسي، وها هي الفرصة جاءتني. سأردّ حكمها إليها، سأعكس المعادلة؛ هم المتهمون وأنا التي تصدر الأحكام، أليسوا المضطهِدين (بكسر الهاء) وأنا المدافعة عن كرامة الإنسان، فمن يحاكم منَ؟ أي حكم يصدرونه ضدي لن يحققوه، سأحوّله إلى تجربة جديدة. لقد تحررت من الإحساس بالقهر، وهذا هو الأهم، أما إجراءاتهم فلا تعنيني، فعالمي لا يستطيعون الدخول إليه ولا التأثير فيه.

"وليكن،

لا بد لي أن أرفض الموت

،،،،،،،".

شدتني الإضاءة الآتية من النافذة. قفزت مثل طرزان فوق الفاصل الذي يفصل المرحاض. ارتكزت بيدي على الحافة السفلى للنافذة. جسدي كقوس مشدود جاهز للانطلاق رغم رائحة زكمت أنفي. أية مفاجأة! عالم واسع يظهر أمامي! مرتفعات الضفة الغربية، وسهول تنداح في أسفلها، والشارع الذي يربط اللد والرملة، وسيارات في حركة مستمرة. سجن الرجال وساحته الخارجية. عشرات من الأسرى بلباسهم البني يشتغلون. باب صغير في السور الفاصل بين السجنين. لم يكن ممكناً أن أرى أفقاً واسعاً كهذا لو لم أدخل الزنزانة! يا للروعة يا عائشة: يدخلونك الزنزانة فيتسع الأفق! عظيم يا عائشة، هذا بيان رقم ٢. قفزت وحفرت بياني الجديد، ثم عدت إلى حيث كنت وبقيت مقوّسة إلى أن سمعت

صوت الباب الخارجي، قفزت وبدأت عمل تمارين رياضية. كانت السجانة تحمل قطعاً من الخبز وكأساً بلاستيكياً. وضعتهما على العارضة الحديدية للباب وقالت: سأفتح الماء لخمس دقائق فقط.

قلت: أنا مضربة عن الطعام احتجاجاً على إطعامي الخبز والماء فقط. هذا حكم لا إنساني.

انصرفت دون تعليق. أسرعتُ إلى حنفية الماء لتنظيف المرحاض، لكن الماء لم يجد منفساً ففاضت، فأسرعت وأقفلتها.

"وليكن،
لا بد لي أن أرفض الموت
،،،،،".

من جديد إلى النافذة. كان الأسرى ينسحبون من ساحة عملهم. لقد انتهى يوم العمل.

بقيت هناك حتى الإرهاق. نزلت وجلست أرضاً. أسندت ظهري ورأسي إلى زاوية، أغمضت عيني ورحت أتأمل: ماذا سأفعل خلال أسبوعين في الزنزانة؟ لكن الأفكار ذبلت بسرعة ساحبة إياي إلى غفوة سريعة.

أفقت. كانت رقبتي تؤلمني والبرودة تغلغلت في عظامي، والجوع هجم بلا رحمة. كأن أنزيمات معدتي التي انحبست منذ الأمس تجمعت معاً لتحدث فيضانا من الجوع! مددت يدي نحو قطع الخبز بشكل تلقائي، لكنني تذكرت أني أعلنت الإضراب. كان النهار قد أخذ يخبو.

خبز طازج

جاءت السجانة بوجبة العشاء وقد سبقتها رائحة خبز طازج، ثلاث قطع وضعتها مكان القديمة. أضاءت ضوء الزنزانة، وعادت أدراجها دون أن تنطق بحرف. كان لرائحة الخبز الطازج سحر. فاضت عصارات معدتي وامتلأ كياني جوعاً وفاض. قطع الخبز جالسة فوق عارضة الباب بقوة وجلال. يا لرائحتها في تلك اللحظات! كانت أبهى وأروع رائحة على وجه الأرض! كان لها جلال شدني وأردت الانحناء له تعظيماً. ماذا أفعل أمام هذا البهاء وهذا الجلال وهذا الفيضان من الجوع؟ خاطبت نفسي كما لو كنت أخاطب طرفاً آخر: هل نسيت أنك أعلنتِ الإضراب عن الطعام؟

- كنت غبية.
- كيف سيكون موقفك إذا تراجعتِ الآن؟ أي ذلٍّ سيصيبك! تضعفين أمام قطعة خبز؟ يجب ألا تسمحي لنفسك بالضعف أبداً. هل فهمتِ ذلك؟
- نعم، لن أسمح لنفسي.

ذلك الحسم لم يدم طويلاً. أكملت مناقشتي مع نفسي: لماذا أعلنت الإضراب؟ كنت متسرعة يا عائشة؟

- لا، لم أتسرع. كان من الواجب الاحتجاج على حكم كهذا؟
- . . . . .
- نعم، كنت متسرعة.
- متى ستتعلمين ألا تكون قراراتك متسرعة؟

شددت قامتي مستنهضة قواي الداخلية: لا، لم أتسرع، كان لا بد من احتجاج على استخدامهم الأكل وسيلة للقصاص. هل يعقل أن يحكموا بالخبز والماء فقط ولا أحتج؟ لا نامت أعين الجبناء يا عائشة. لا تجعلي الجوع يؤثر على إرادتك وموقفك.

جلست أفكر في موقف السجانة وخيبة أملها، مبعدة التفكير في الطعام. لكن الجوع عاد مهاجماً: إلى متى ستستمرين في الإضراب؟ هل ستستمرين يوماً واحداً أم ثلاثة أيام؟

- لا معنى لإضراب يستمر ثلاثة أيام. أنت لا تهدفين قصاص نفسك. يوم واحد كفيل بإيصال الرسالة التي رغبت في إيصالها.

عند وصولي إلى هذا القرار، هدأت. كان قراري الأول غائماً. أما الآن فصار واضحاً ومعقولاً. غداً أعلن انتهاء الإضراب بوضوح فأقول إن إضرابي ليوم واحد كان لإيصال رسالتي بأنه لا يجوز استخدام الطعام وسيلة للقصاص.

- إلى أن يأتي الغد، لا بد من الصمود.

غريب كان أمري! أحاور نفسي بصوت عال! فهل أنا عائشة واحدة أم أكثر؟ كأن بي شخوصاً عدة! قطع الخبز تستهزئ مني ومن قراراتي. أدرت لها ظهري بهدف تجاهلها. بدأت أنشد وأغني إمعاناً في تحديها. لا أستطيع تقدير الفترة التي بقيت في وضعية إدارة الظهر، إذ ألقيت القبض على نفسي متلبسة! كنت قد صمتُّ والتف رأسي نصف دورة كاملة، كانت عيوني تبحلق في قطع الخبز! وانشدّ كامل جذعي ومال باتجاهها!

متى سكتُّ عن الغناء؟ متى التفّ رأسي؟ متى حصل كل ذلك؟ كيف غاب وعيي؟ كيف اختفت اللحظات التي امتدت بين الوضع السابق وهذا الوضع الغريب من وعيي؟ ما الذي غيّب وعيي وقاد جسدي دون إرادة مني؟ ما القوة التي تسكنني وتتحكم بي وتتآمر على إرادتي؟ هل يعني هذا أن إرادتي في الإضراب لم تكن إرادة كاملة؟ أليس هذا ضعف إرادة؟ لا، لن أسمح بأن تضعف إرادتي أمام قطعة من الخبز؟!

أدرت ظهري من جديد لقِطَع الخبز. ومن جديد، كنت قد أدرت رأسي وجذعي مبحلقة في قطع الخبز!

- عيب يا عائشة! لن تموتي من الجوع حتى الغد، ولن تنهي إضرابك بصورة ذليلة وضعيفة، وقبل قول كلمتك الواضحة. أنت أمام أعداء يحسبون عليك كلّ نهفة. ستقولين غداً أمام السجانة بوضوح "إضرابي عن الطعام يوم أمس كان احتجاجاً على الحكم". ثمّ تتناولين الخبز في حضرتها. هكذا ستتصرفين، هل تفهمين؟

حين قلت "هل تفهمين" وجهت الكلام لقطع الخبز كأنها كائن بشري! وعندها قررت مواجهتها وتحديها! حدّقت فيها وخاطبتها بكلمات مشحونة بالتحدي!

تصورت أمي تراني وأنا أكلم قطع الخبز، فتضرب كفاً بكف وتقول: "انجنت بنتي، يا حيفك يا عيشة، كان عقلها بوزن بلد، بس اليهود جننوها"! انشغلت بمحادثة أمي لأطمئنها وأهدئ من روعها كما لو كانت تجلس معي! ويا للغرابة! توارى الإحساس بالجوع، وفقدت قطع الخبز جاذبيتها!

هل العيون تأكل كما كانت تقول أمي؟

العيون تأكل!

تؤكد أمي أن العيون تأكل، فإذا نظرت عيون جائعة إلى طعام دون أن تأكل منه، فإنها تسحب بركته، والشيء بلا بركة يصبح فارغاً من القيمة!

في بداية الخمسينيات، مرت البلاد بقحط أوْصَل الناس حد الجوع. استهلك الناس خزينهم من قمح وشعير وعدس وغيره. بفضل حرص أمي وتدبيرها، احتفظتْ بكمية قليلة من طحين القمح لتفاجئنا بين فترة وأخرى بتقديم خبز قمح غير مخلوط بالذرة أو الشعير كوجبة متميزة. عجنتْ وذهبتْ لخبزها في طابون دار أبو سلامة (أقرب الجيران). جلسنا ننتظر عودة أمنا مع الخبز بفارغ الصبر. ما إن وضعت الخبز أمامنا، حتى التهمنا كل الأرغفة. جلست أمي مشدوهة وحائرة. كانت تضرب كفاً بكف وتتمتم: "الله إخونّي، لو ناولتهم رغيف خبز! كان ربنا طرح في الخبزات البركة! بس هيهم أكلوها بعيونهم ونزعوا بركتها!". تحت ضغط أسئلتنا عن الذين أكلوا الخبز بعيونهم. سردت لنا الواقعة التالية: كانت تخرج الأرغفة من الطابون وتضعها فوق طبق القش حينما شاهدت صبيين يقفان ويحدّقان في الأرغفة الساخنة بعيون جائعة. وبدلاً من تقديم رغيف خبز أو حتى قطعة صغيرة (من عيونهما)، صرخت بهما كي يبتعدا. وها هي تؤنب نفسها على فعلتها تلك. وقد تأكد لها أن الأطفال الجوعى، أكلوا الخبز بعيونهم.

هل هي مجرد أفكار وقناعات تدفع الناس ليكونوا رحماء فيما بينهم؟ أم أن العيون تأكل حقاً؟ وكيف أفسر اختفاء الإحساس بالجوع بعد تحديقي في قطع الخبز؟

ذكريات الحب

استوقفتُ كل لحظات الحب ثم انخرطت في بكاء يسيل حزناً كما لو كنت للحظة علمت باستشهاده. انفجر بكائي كما لم أبكه من قبل. لم أبكِ استشهاده بما يكفي، إذ كنت أحذر من البكاء الواضح فأنا لا أملك تبريراً. أنتظر نوم الجميع لأبكي بتكتم تحت ستار اللحاف. سمعتني أمي مرة فاعتقدت أني في كابوس فنبهتني. "اسم الله عليك يمة ياعيشة، شو مالك؟".

كان الحديث عن الحب في ذلك الوقت مستحيلاً. فكيف بالبكاء بما يستحقه الحبيب!

ها أنا في الزنزانة أجد الفرصة للبكاء.

أوغل الليل في مسيره، هل أدركتُ ذلك؟ هل شعرتُ بالبرد وأنا أجلس على الأرض دون فرش أو غطاء؟ لم أشعر بحضور السجانة إلا وهي تقف بالباب. أزعجني ذلك. كانت كائناً غريباً يغتصب خلوتي ويسحبني من شعري ويلقي بي في صقيع قاتل. لم تتحدث، فقط كانت تراقب. كم كرهت تلك العين المراقبة. لو أني لم أفتح عيني كي لا أراها! لو أني كنت نائمة فلم أستيقظ! طلبت فرشة وغطاء. عادت أدراجها دون أن تنطق بحرف. انتظرت ربما ساعة أو أكثر. حضرت دون المطلوب. غضبت وقلت: إن الحكم لم يتضمن حرماني من النوم بلا فرشة أو غطاء، أريد أن أنام. عادت دون أن تنطق بحرف. بعد ربع ساعة ربما أو أكثر، فتحت الضابطة باب الزنزانة وأدخلت السجانة المرافقة الفرشة وبطانيتين. كانت رائحة الفرشة تشعر بالقرف فلم أحتملها وبدأت أسعل. طلبت تغيير الفرشة، أخرجت السجانة الفرشة وذهبتا دون النطق بأي حرف! كنت مخطئة حين اعتقدت أنهم سيحضرون لي غيرها. تركتُ أنام ببطانيتين. جعلت واحدة

فرشة والثانية غطاء دون مخدة. كان النوم شبه مستحيل، فأسندت ظهري إلى الحائط والتففت بالبطانية، وبين محاولة النوم واستحضار الذكريات، لم أدخل عالم النوم إلا مع شقشقة الفجر.

صحوت على رائحة خبز طازجة. كانت السجانة تبدل قطع الخبز. نهضت وخاطبت السجانة: كان إضرابي يوم أمس احتجاجاً على استخدام الأكل وسيلة للقصاص. أنا اليوم أنهي إضرابي. أدارت السجانة ظهرها دون أن تنبث ببنت شفة.

لا شيء مثله

حين قضمت قطعة خبز، أحتفل كياني. يا لروعة ذلك الطعم! كان أسطورياً. كيف لم أكتشفه من قبل رغم تناولي الخبز يوميا؟ صحيح أن خبز أمي الطازج كان شهياً دائماً، لكن هذا الطعم وهذا المذاق الذي اكتشفه هنا في الزنزانة، ليس مثله شيء. لا بد أنه الطعم البكر الذي طعِمه جدنا الإنسان الأول يوم تعرف عليه لأول مرة فقدّسه. لا بد وأنه الطعم البكر الأول الذي عرفه الوعي الإنساني! جميل هذا الاكتشاف! ها أنا أتواصل مع جدنا الإنسان الأول. هل عرفتم يا عبد السلام روعة هذا الطعم أثناء تجوالكم في جبال فلسطين؟

كنت أتذوق الطعم وأحادث الحبيب، لا كجائعة كاد الجوع يكسر إرادتها بالأمس، وإنما كمكتشفة لأعْظم كنز يمتلكه البشر، أتذوقه بتأنٍ بالغ، وأختزنه وأملأ كينونتي به. أمَضغُ الخبز مستمتعة، أستل منً ذاكرتي ما علق بها من ذكريات وأفكار حول الخبز وأشارك فيها الحبيب الذي أسكنته معي: هل تذكر يوم كانت أمي تحضر أرغفتها الكثيرة من خبز طابونها وأخرى على الصاج، وكنت أنت وأخي تحمّلانه على ظهر الحمار أمام الباب الخلفي لبيتنا؟

يا سلام يا عبد السلام؛ ها أنا أمتلك في لحظة واحدة أمرين مقدسين: حب وخبز!

كان عمي يصف المرأة التي يراها جميلة بقوله: "صباحها أجمل من رغيف الخبز الساخن" وأما المرأة التي لا يراها جميلة فيقول: "صباحها مش حلو حتى لو معه رغيف خبز ساخن". هل ذاق عمي طعم الخبز الذي أتذوقه الآن حتى جعله مقياس الحسن والجمال؟ أم أن كل جوعى العالم يعرفونه؟ كم أحبك يا عمي!

ابن عمي محمد كان يملك حادثة طريفة هو بطلها حين كان ولداً. كان يسردها لنا نحن الصغار بصورة درامية، فنضحك حتى نتشقلب على ظهورنا، وإذا نسي مرّة سردها، نلحّ عليه ونتعربش على ظهره حتى يقوم بتمثيلها ونبدأ بالضحك حتى التعب، ولا نملّ من تكرارها أبداً. ولا بد من إضافات جديدة في كل مرة يقوم بتمثيلها: شاهدتُ مرة (س) يأكل قطعة خبز، سال لعابي وزقزقت عصافير بطني (كانت البلاد تمرّ بسنوات قحط،) صرخت عليه: "يا حرامك! بتاكل الخبزة وهي ميتة؟".

انزعج الصبي (وكان غبياً) وقال: إنت كذاب، خبزتي مش ميتة.

- أنا مش كذاب، حطها ع الأرظ. إن اتحرّكت بتكون مش ميتة، وإن ما اتحركت بتكون ميتة.
- وضعها الصبي على الأرض، فلم تتحرك، صرخ خائفاً: "يمة خبزتي ميتة". وراح يجري ويبكي خبزته الميتة. أما أنا فهجمت عليها والتهمتها.

كان يمثل ذلك ويعيد التمثيل، فنضحك حتى نقع على ظهورنا.

تحت المجهر

لماذا أنا أنا؟ لماذا كانت خياراتي هي خياراتي؟ وما الخيط الذي ينظمها؟ ما العوامل التي أثرت في تكوين ما أنا عليه؟ أية عائشة كنت سأكون لو أن أبي لم يمت وأنا صغيرة؟ لماذا كان خياري السجن وليس الهرب؟ ما علاقة هذا الخيار بهاجس الحرية الذي يسكنني؟ أين تكمن نقاط قوتي؟ وأين تكمن نقاط ضعفي؟ ماذا لو جاءتني فرصة التحرّر من السجن قريباً؟ كيف سيكون دوري في الخارج؟ وماذا ستكون خياراتي؟ ما هي الدروس التي يجب حملها إلى الخارج؟

ضحك أبي

اليوم الذي سبق موت أبي كان يوم قطاف العنب من الكرم المحيط ببيتنا. وقفتْ بعد الظهر شاحنة كبيرة. أُنزلت منها (سحاحير) كثيرة. حضر أبناء العمومة والحمولة وبناتهم، جلس أبي وسط الكرم على كرسيّ من القش، أمامه ميزان ذو كفتين (أتمثل صورته

بكل تفاصيلها)، وكنت أجلس بالقرب منه منتظرة اهتمامه. الكل يقطف العنب ويضعه إلى جانب أبي، فيمسك بكل قُطْف ويرفعه أمام عينيه، يتأمله ويتغزل به، ينظفه من الحب الفاسد قبل أن يضعه في كفة الميزان، ثم في السحاحير التي كانت تنقل إلى الشاحنة. حين يجد حبة بركة، وهي حبة عنب كبيرة بشكل استثنائي، يقطفها ويقدمها لي قائلاً: هذي أحلى حبة لأحلى وأشطر بنت، فأشعر بأني كذلك.

في ذلك اليوم عمّ الانشراح أجواءنا وضحك الجميع. ومساء تلك الليلة، أشع أبي سعادة ملأت البيت وفاضت لتصل صديقه حسن أبو عمار، الذي كان مُعَزّباً (من العِزْبة) في كرمه في سفح (جبيل صلاح) المقابل. في فصل الصيف كان الناس يتركون البيوت ليقضوا صيفهم في كروم العنب والتين. يحفرون الآبار ويبنون العرش أو (القَصر) من الحجارة الصغيرة التي تمتلئ بها الكروم.

تلك الليلة، كان البدر يضيء الجبال. انحفر المنظر في ذاكرتي. وكان أبي يجلس في شُباكنا المجوز متكئاً على كوعه. أتذكره، يحادث صديقه ويتبادل معه النكات فيضحك بصوت عالٍ، جعل جدران بيتنا تضحك معه، وكنت سعيدة، أقفز وأتشقلبّ فوق الفرشات التي مدّتها أمي لننام عليها. لم يعجبني انشغال أبي عني، رحت ألاعبه المصارعة حتى وقعت في النوم. (كان أبي مصارعاً).

في اليوم التالي ذهب أبي لزيارة صديقه الحميم (أبو ميليا) من قرية الطيبة المجاورة. أثناء عودته، عرّج على أصدقاء من البلد يقومون ببناء بيت لهم. قدموا له كأساً من الشاي. بعد دقائق، رأوا رأسه وقد تدلّى. كان قد مات! كان ذلك في ١-٩-١٩٤٩. لم يكمل أبي عامه الخامس والأربعين!

لم أدرك معنى الموت في حينه. لكن أمي شقّت ثوبها حين أدخل أبي إلى البيت جثة، وجرت دموع كثيرة، وسكن الحزن بيتنا، ، لكن أخي الذي لا أحتفظ له بأية ذكرى قبل وفاة أبي، أصبح بعد ذلك هو فرحي.

ماذا لو أن أبي لم يمت؟ أي فقدان وأي فراغ تركه الموت في نفسي؟ هل حقاً ملأ أخي الفراغ وعمّر نفسي بالفرح كما كان أبي، أم أن اليُتم ندبة في النفس يمكن أن تُجمّل، لكنها لا تنمحي؟

في حضن أخي

كان أخي يقترب من العشرين من عمره حين وجد نفسه مسؤولاً عن أسرة تتكون من أم وأخوات ثلاث. كنت الصغرى، فأصبحت أثيرة ومدللة. غمرني بحبّه وترعرعت في حضنه. تأثرت به كثيراً. كل ما صدر عنه وكل ما قاله انغرس في وعيي. كنت فَرَحَه وكان فرَحي، يأخذني معه أينما يذهب، حتى على (العِلّيّة) التي كانت حكراً على الذكور.

كان أخي يهتم بالسياسة وبالأمور العامة والمجتمع. كان يرسم أحلاماً فيستمع له الشباب. تشدّني أحلامه وتنحفر في وعيي وشماً.

كنت أجلس في حضن أخي وأستمع لأحاديث الشباب عن جامع البلد الآيل إلى السقوط. تركوا العلية واتجهوا إلى مدير المدرسة الأستاذ سعيد سمور. ناقشوا معه أمر الجامع، وكنت في حضن أخي مشدودة لما يقولون. اتفقوا على المباشرة في العمل لبناء جامع جديد، وكانت المحصلة:

- فرض دينار كضريبة على كل ذكر يحمل هوية.
- تشكيل لجنة لجمع التبرعات من النساء (يمتلكن ذهباً).
- يشرف على الصرف الأستاذ سعيد مع المخاتير.
- يشارك جميع أهالي البلد رجالاً ونساء في العمل، البنّاء وحده من خارج القرية وهو الذي سيكلف القرية مالاً كثيراً.
- إطعام العمال يتم تداوله بين الأسر.

وقف أعضاء اللجنة لجمع التبرعات أمام بيتنا، وهو أول بيت في القرية. كان أخي أحد أعضائها. خرجت أمي إليهم. مدت يدها إلى رأسها وقطعت قطعة ذهبية من عليه وقدمتها لهم. أذكر المديح الشديد الذي كاله الشباب لأمي فامتلأت افتخاراً بها وبأخي. وأذكر الحماسة الشديدة التي تحدث بها أخي عند عودته من جولته في جمع التبرعات عن نساء القرية، اللواتي قدمن الذهب دون استثناء، وقال كثيراً في كرمهن، حتى صار ما تبرعن به يقارب ثلاثة أرباع تكاليف الجامع، فأحسست بالاعتزاز بنساء قريتنا. قال أخي إن جامع قريتنا سيكون الأوسع، ومئذنته ستكون الأعلى بين كل القرى المجاورة، فزاد إحساسي افتخاراً بقريتنا.

بلا إبطاء، بدأ العمل في تنفيذ المشروع. تحوّلت القرية بجميع أفرادها، رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، إلى خلية نحل: رجال يقطعون الحجارة من وديان القرية وينقلونها على ظهور الدواب؛ شباب يبنون (الكبارة) من حجارة الصوان؛ صبايا يجمعن الحطب من الكروم ومن الجبال ليوقد الشباب النار ثلاثة أيام متواصلة ليل نهار، حتى تتحول الحجارة إلى شيد (جير). كنت الصغيرة التي تلحق بأخواتها والصبايا أينما يذهبن، وأنا أحبهن يسرن أسراباً يغنين أو يتضاحكن. أقفز حولهن وأمامهن. أحببت شوباش الشباب وأهازيجهم التي تعلو حين تقترب

الصبايا منهم، ويسارعون إلى أخذ (حملات الحطب) من على رؤوسهن، فتنطلق زغاريدهن، فأقفز وأطير فرحاً. (الغريب أني لا أذكر أطفالاً آخرين شاركوني تلك الأيام السعيدة كما لو أنني كنت الطفلة الوحيدة التي تتعربش أثواب الصبايا!).

كنت أرافق أخي أيضاً حين يأخذ إبريق الشاي أو الطعام، ويذهب إلى دقّيقي الحجارة في ساحة المستوصف، التي ستصبح ساحة مشتركة مع الجامع. كنت أشاهد ارتفاع البناء وأستمع إلى الأحاديث والهرج الذي يدور بين الناس.

اكتمل البناء وجاء يوم العَقْد، وأي عَقْد في القرية عرس، فكيف حين يكون عَقْد الجامع؟ كان عَقْد الجامع عرساً جماعياً لكلّ أهل القرية، وذروة للفرح. الكل شارك في نقل الطين والماء، حتى إنني حملت طابة طين بين يدي وطرت بها وأوصلتها إلى العقد. كان هناك رجال كثر، بعضهم يطلق الشوباش (نوع خاص من الغناء لمثل هذه المناسبات، له إيقاع حماسي). غنى لي أحدهم شوباشاً، فتحوّلت إلى طائر، فثار الخوف عليّ من الوقوع وأنا لا ألوي على شيء. عند الظهر، أقبلت النساء مجموعات يحملن الطعام ويغنين. أخذ الرجال صواني المفتول وتحلقوا وكنتُ معهم إلى جانب أخي. بينما عملت النساء حلقات غنائية.

رسخ ذلك اليوم في ذاكرتي كأجمل حدث وأجمل عيد. أصبح لنا نحن الأطفال أجمل بناء: مئذنة ترتفع كثيراً بأدراج دائرية، ستصبح لعبتنا المفضلة ونتبارى في الصعود إلى أعلاها لنجرّب أصواتنا في الآذان. امتلأنا فخراً أمام أهل القرى الأخرى، وكنت أشعر بأننا أنجزنا أحدث وأوسع جامع وأعلى مئذنة في المنطقة.

مع وقف التنفيذ

على أثر نجاح البلد في بناء جامعها، سمعت أخي يتحدث عن تحويل أراضي النجمة الزراعية إلى جنات وبساتين فاكهة وبيارات! إذا تعاونوا وشقوا طريقا إليها واستخرجوا الماء منها. تحدث عن مشكلة تفتيت ملكية الأرض التي تشكل عائقاً في استثمارها، وأعطى أمثلة: عندي خمس قطع صغيرة من الأرض لزراعة الحبوب منتشرة في مواقع مختلفة. أحتاج ثلاثة أيام ونصف اليوم لحراثة (زبير) ويوماً ونصف اليوم في (حمدون)، ونصف نهار في (الشرفات) ويومين في (الظهر) وثلاثة أيام ونصف اليوم في (أبو خالد). والكل مثلي. لو كانت هذه القطع مجمعة في قطعة واحدة بدلاً من هذا التفتت، لوفرت جهوداً كبيرة، فلماذا لا نتفق ونتبادل قطع الأرض فيما بيننا، لتكون للواحد منا قطعة كبيرة في مكان واحد؟

كان خيالي ينشغل في تصور البساتين الخضراء الواسعة جداً جداً، وأحلم بالفواكه الكثيرة من تفاح وبرتقال ورمان وأجاص، أتصوّر ألوانها الجميلة وقد أصبحت أكواماً تملأ ساحات واسعة.

والتعليم أيضاً

كان لأخي صندوق خشبيّ يحفظ فيه كتبه. حين يعود من عمله، أو من الخدمة العسكرية، يفتح صندوقه الخشبي، ويأخذ كتاباً. أجلس أمامه أو في حضنه، يقرأ بصوت عال، فأستمع إليه يتحدث بأصوات أناس آخرين. حين يغيب، أفتح الكتب لأرى الكلام، فلا أجد إلا خطوطاً سوداء، فأحلم باليوم الذي سأقرأ فيه مثل أخي.

لم تكن في القرية مدرسة للبنات، فقد أغلقت على أثر نكبة الشعب الفلسطيني، العام ١٩٤٨. ولم يعد فتحها إلا في العام ١٩٥٢، وسوف أذهب إليها دون أخواتي اللواتي أصبحن أكبر مما يناسب ذلك.

مع قدوم السنة الدراسية ٥٥-٥٦، تكرّر ذهابنا إلى المدرسة يومياً لمدة عشرة أيام أو تزيد، دون أن تأتي المعلمة، بينما انتظم الأولاد في دراستهم. سَرَتْ إشاعة بأن مدرسة البنات لن تفتح. رأيت المستقبل يتسرّب مني، وأن مأساة أخواتي حين أقفلت مدرستهن إثر نكبة ١٩٤٨ ستتكرر معي. فكرت: لماذا لا أدرس في مدرسة الأولاد؟ ألسنا نلعب في الحارة معاً، ونذهب إلى كروم العنب والتين معاً؟ ونركب على لوح دراس القمح؟ ونرافق خرافنا معاً؟ فلماذا لا نتعلم معا؟

صنعت الفكرة أجنحة لي، طرت إلى أمي وقلت لها: مدرستنا لم تفتح ويقال إنها لن تفتح. سأذهب يوم السبت إلى مدرسة الأولاد وأتعلم معهم، وبدأت أسرد لها حججي أعلاه وزدت عليها: ألم تقولي أن المختار "ظاهر حمادنة" أرسل بناته مريم وسمية إلى مدرسة الأولاد؟ لماذا لا أذهب لأتعلّم مع الأولاد، وأعدك أني سأسبقهم!

استمعت أمي دون تعليق، ثمّ لفّت شاشتها على رأسها وخرجت إلى دار عمّار، أرسلت طلباً بضرورة حضور أخي على جناح السرعة، وكان أخي يعمل في دكانة في قرية "العوجا"، فحضر في اليوم التالي واصطحبني معه لأدرس هناك.

طرت فرحاً لأني سأسكن في "العوجا" التي أحببتها، وضقت ببكاء أمي التي كانت تضمني وتبكي غربتي وابتعادي عنها كأني ذاهبة إلى بلاد الواق واق.

في العوجا، صارت لي أسرة جديدة وأمّ ثانية، وأحاطني الناس هناك بحب كثير، كما لو كنت أسبح في بحيرة من المحبة، وغرقت في طبيعة أحببتها كما لو كنت جنيناً في رحم أمه. أو زهرة تعيش على ضفاف الماء.

من الطابق الثاني

كنت أتأمل ارتفاع علالي دار عمار، فأجدها شاهقة جداً، ماذا لو أن شخصاً يقع من فوقها! لا شكّ في أنه سيتحطم. أفزعني التصور، فضربت رأسي فكرة: يستطيع أن ينقذ نفسه لو قفز في الهواء قفزات عدة! بهرتني الفكرة، وصرت أشرحها لمن حولي، ضحكوا مني وقالوا: بس إياك تعمليها. كيف لا يفهمون؟ إنها حقيقة!

في صباح اليوم التالي، شرحت الفكرة لزميلاتي في المدرسة، لكنهن ضحكن مني، فقلت سأثبت لكن صحة ذلك. قفزت عن بلكون المدرسة وكان يرتفع حوالي ٣ أمتار، وأنا مصممة أن أقفز في الهواء من على ارتفاع أقل من متر عن الأرض! لكنّي صرت على الأرض في اللحظة نفسها، ويدي اليمين تحتي وقد انتفخ الساعد منها وأصبح أعوجَ، ولم أستطيع تحريكها. لم يهمني استهجان سلوكي المجنون، ولا يدي التي علّقتها بعد ذلك في رقبتي، لكن أين اختفى الزمن، رغم أن الفكرة حقيقية، وأستغرب كيف لا يفهمها الناس، فقيل لي: ما أعندك!

تفويض بالسلطة

بدأ أخي يتحدث عن السفر إلى أمريكا، إذ رآه السبيل الوحيد لتحقيق أحلامه العريضة. لم يكن من السهل على أخي السفر،

فأمي تدرك ثقل المسؤولية التي ستقع عليها وحدها مع ثلاث بنات، في مجتمع يرى فيه بيت بلا رجل كبيت بلا أعمدة، لذا ستعارضه وتقف له بالمرصاد ولن تسمح به. أما أنا فعشت الحيرة بين الطرفين: أدرك قلق أمي وأشاركها فيه، وفي الوقت ذاته أحلم بأحلام أخي وأريد له تحقيقها.

حُسِمتْ المعركة بين أمي وأخي وأصبح سفر أخي واقعاً لا محالة. وكان ذلك في الثاني من شباط، العام ١٩٥٦. ليلة السفر يتجمع الأهل والأقارب والأصدقاء للوداع. قال أخي أمام الجميع: اسمعي يمة؛ لا تفكري للحظة، أنه من الممكن أن أنساك أنت وأخواتي أو أن أطيل غيبتي. سأكتب لكن رسالة كل أسبوع وأرسل مصروفاً كل شهر إن شاء الله، وعندك عيشة تستطيع القراءة والكتابة. إياك أن تفكري باستدعاء أحد لقراءة أو لكتابة الرسائل لي. أي رسالة ليست بخط عائشة سأمزّقها قبل قراءتها. سأرسل النقود باسم عائشة لأنها الوحيدة التي تقرأ وتكتب.

كان لهذا الإعلان أمام الجميع وقع عظيم على نفسي. شعرت بأني كبرت كثيراً لأني موضع ثقة أخي الذي يعطيني سلطة مثل سلطته.

برّ أخي بوعوده. وها هي أول بطاقة تصلنا من مرفأ بيروت قبل أن يصعد سفينة متجهة إلى الإسكندرية. ومن الإسكندرية أرسل لنا بطاقة عليها صورة لمرفأ الإسكندرية وأخرى من مرسيليا فجنوى، فبرشلونة، قبل أن يبحر في محيط الظلمات.

من كل محطة من هذه المحطات، وصلتنا بطاقاته، وكان المرسَل إليه: عائشة عودة، ومن الداخل: أمي الحبيبة، أخواتي العزيزات.

تحدث لنا في بطاقاته عن نفسه وأصحابه، وعن تلك المدن، وعن توفقه في إيجاد عمل على ظهر السفينة. أرسل لنا أول مبلغ من مرسيليا. بعد أربعين يوماً من السفر بحرا، وصل البرازيل وأرسل لنا رسالته الأولى من مدينة ريو دي جانيرو. ومن هناك ثابر على إرسال الرسائل والنقود بانتظام. فكّ رهن البيت، وحصلنا على مصروف شهري مقداره خمسون دولاراً، تصبح مئة دولار في الأعياد.

سأحافظ على استقلالنا

فجأة، انقطعت رسائل أخي. انقلبت حياتنا، وسكننا الخوف والقلق على مصيره ومصيرنا. وفي محاولة للبحث عن أخباره، ذهبتُ مع أمي سيرا على الأقدام إلى قرية المغيّر ثم إلى قرية ترمسعيا، لنسأل أهل أصحابه الذين حدثنا عنهم في رسائله، عسى أن يكونوا حدثوهم عنه كما يحدثنا عنهم، لكننا لم نحصل على شيء.

وذات يوم، ذهبت لشراء بعض الحاجيات من دكان الحاج تيّم، وحين كنت عائدة، رأيت الناس يجرون نحو بيتنا. داهمني قلق واحد هو أن مكروهاً حصل لأخي! خبطني خوفي من فكرة اليتيمات في بيت عمهن! انتفضتُ هوْلاً من الاحتمال ورفضت هذا المصير! قلت: لا. لن أسمح بأن نفقد استقلالنا، لن أسمح بذلك. سأدافع عن استقلالنا كما كان سيدافع أخي. مع هذا القرار طرت جرياً إلى البيت. كان البيت قد اكتظ بالناس، وصوت أمي يولول ويندب: "يا حبيبي يمة، يا قطيعتي أنا وبناتي"؛ فقلت وأنا أتقمص شخصية أخي: إيش في؟

أفسح الجميع الطريق لي نحو أمي. كانت تجلس في الوسط وتمزّق شعرها. سألت من جديد: إيش في؟ ناولتني أمي صورة

ورسالة وهي تدق صدرها بيدها : "كامل مات يمة . كامل مات يمة يا حبيبي". وفي لمح البصر تناولت الرسالة ونظرت إليها، كانت بخط أخي الذي أعرفه جيداً، فقلت جملتي الشهيرة التي قلبت الموقف رأساً على عقب : ولكن هذه الرسالة بخط أخي كامل! فلو حصل له شيء كيف سيكتب رسالة بخط يده؟

أوقفت أمي ندبها وتعلقت القلوب والأنظار بشفتي وما ستنطقان به. انتظر الجميع قراءتي للرسالة، ذلك أن أحداً من الموجودين لم يكن يعرف القراءة.

كانت الرسالة اعتذاراً منه عن تأخره في الكتابة بسبب مرضه وإجراء عملية جراحية له، وأرفق مع الرسالة صورته وهو تحت العملية ومغطى بالأبيض، ولما استلمت أمي الرسالة وكنت أنا خارج البيت، ولكثرة شوقها، فتحت الرسالة تتأمل خطوطها. رأت الصورة فاعتقدت أنها صورته في الكفن. صرختْ هولاً، تجمع الناس دون أن يستطيع أحد فكّ حروف الرسالة.

ارتفعت أسهمي في القرية، وتحوّلتُ إلى الفتاة التي يشار إليها بالبنان. بدأ أهل القرية يتحدثون عن أهمية التعليم للبنات مثلما هو للأولاد. أما أنا فتعمقت ثقتي بنفسي واكتسبتُ سلطةً جديدةً تمّ الاعتراف بها من قبل أمي وأخواتي وعمي والمجتمع.

هل أخرج من السجن؟!

جلست أراقب حركة نملتين ضيفتين. سمعت أحاديث تدور خلف الزنزانة، تركت الضيفتين وقفزت إلى الطاقة. كان شابان بلباس الأسرى يجلسان خلف الزنزانة ويتحدثان عن عملية خطف ثلاث طائرات قام بها فدائيون من الجبهة الشعبية، ويطالبون الإفراج عن الأسرى. احلوّت: سأخرج من الزنزانة ومن السجن أيضاً.

أمضيت تلك الليلة أفكر في عالم الحرية، وأتذكر أجواء الثورة والمقاومة في الأردن، التي كانت تضيء لنا مستقبلاً جديداً متحرّراً من أثقال الهزائم والضعف والتخلف.

في اليوم التالي، عادا وجلسا في المكان ذاته. قالا إنهما تحايلا ورتبا مجيئهما لنقل سؤال من الرفيق "تيسير قبعة" يريد أن يعرف رأينا ما إذا كنا نؤيد سياسة خطف الطائرات أم لا، لتبليغ القيادة في الخارج بآراء الأسرى. أجبت بشكل تلقائي: لست مع خطف الطائرات.

متى فكرت في الموقف؟ أنا لم أفكر ولم أتأمل ولم أقلّب الأمر من كلّ الوجوه، على الرغم من أن خطف الطائرات سيحرّرني من السجن! هل تمت صياغة الموقف أثناء النوم؟ هل سيغضب موقفي الرفيق تيسير قبعة؟

فيضان جماهيري

في ظهيرة ذلك اليوم، كان هرج كبير يقترب من الزنازين. دخلت السجانات وفتحن أبواب الزنازين. لم أصدّق أذني وهي تلتقط صوت الخالة أم خليل (سميحة خليل) المميزّ بلفظ حرف القاف مشدّدة. تدفق جَمْعٌ من النساء، وكانت الخالة أم خليل بينهن. اكتظت الزنازين، وكان من نصيبي ضيفة هي الرفيقة بثينة، خطيبة الرفيق الأسير "أبو الوفا". حدثتني بثينة أن إسرائيل قامت باعتقال الأهالي، ومن ضمنهم أمي، وهي في سجن نابلس، وقالت إن السجون في الضفة الغربية اكتظت، فأحضروا هذه المجموعة إلى الرملة.

لم تمكث زائراتي إلا بضع ساعات، وغادر الجميع بالهرج نفسه، خصوصاً الخالة أم خليل التي كانت توبّخ إسرائيل وتنتقد إجراءاتها التعسفية. وكنت أتساءل إن كن سيعدن إلى بيوتهن أم سينقلن إلى مكان آخر، وإذا كنت سأخرج من السجن أم سيتمّ الالتفاف على مطالب الفدائيين! وانثالت ذكريات المقاومة في الأردن.

في القواعد الفدائية

في ظل اندفاعنا في النضال، ألححنا على التدرب على استخدام السلاح. مع بداية العطلة الصيفية للعام ١٩٦٨ كنّا ١٢ رفيقة جاهزة للتدرب في الأردن. اصطحبتُ أبناء أخي (نائلة وعودة) وتوجهت

إلى عمان. سلّمت الأطفال لأبيهم وأبلغته بهدف زيارتي. تململ قليلاً، ثمّ تمنّى لي التوفيق. حضرتْ وداد قمري واصطحبتني إلى المعسكر. كانت ثلاث رفيقات قد سبقنني. مع حلول المساء كان قد اكتمل عددنا. في الحال، دعانا المدرّب، وبدأ يشرح القواعد التي علينا الالتزام بها بشكل صارم. عرّفنا بالبرنامج التدريبي الذي سنخضع له، ثم أدخلنا مباشرة في التعرّف على الأسلحة ومواصفات كل منها ومصادرها.

بعد عدد من الأيام، أتقنّا استخدام عدد من الأسلحة: المسدس، الكلاشنكوف، الدكتريوف، العوزي (الإسرائيليّ)، القنابل اليدوية، وآن الأوان لفحص جاهزيتنا من خلال المشاركة في حراسة المعسكر ليلاً. كانت مناوبتي من الواحدة بعد منتصف الليل حتى الخامسة صباحاً.

هُوّلتْ لنا المخاطر أثناء الليل: قد يتسلل العدو للقتل والتخريب، وهناك الضباع والوحوش، وسلامة الجميع مسؤوليتنا، قد يأتي أحد المسؤولين فجأة، فإذا وجد الحارسة غافلة أو نائمة أو لا تحمل سلاحها، أو نسيت كلمة السر، فقد يسجنها. تم تزويدي بكلمة السر والتأكيد على القواعد الواجب الالتزام بها. حملتُ سلاحي وخطوتُ مبتعدة عن الخيمة قليلاً. كان السكون مطبقاً إلا من زيز الليل. تضخم السكون وأصبح وحشاً سيبتلعني. وقف شعر رأسي، وهممت بالعودة إلى الخيمة جرياً. تذكرت دفاعي عن نفسي أمام عمي بأني أكثر جرأة من ابنه، وأني لا أخاف من العتمة مثله. وها أنا جبانة أخاف من العتمة! أي عيب وأنا أحمل السلاح؟ ممّ تخافين؟ أليس ما حولي هو ما عرفته في النهار! الحجارة هي الحجارة. الأرض هي الأرض. لكني تصورت ضبعاً يخرج من بين الصخور. أمسكت بالكلاشنكوف لأصارعه

واسترجعت معلوماتي عن الضبع وكيفية التعامل معه. لكن ماذا لو تسلل عدوّ إلى المعسكر؟ وقف شعر رأسي من جديد. كيف أتأكد أنه عدوّ وليس رفيقاً؟ هل أطلق النار؟ أستعمل كلمة السر، فإذا لم يعرفها يكون عدواً. ماذا لو أن كلمة السر تسربت إلى العدو؟ كيف ستتسرب؟ لكن المدرب وضع هذا الاحتمال! يا للهول، في هذه الحالة يوجد جواسيس؟ جواسيس! لا لا لا هذا مستحيل. لماذا يكون هذا مستحيلاً؟ يا لهول الخيانة! نُقتل بسبب الخيانة؟ أقتل بيد العدو ولكن ليس بسبب الخيانة. لكن لا، لا أريد أن أُقْتلَ قبل أن أفعلَ شيئاً.

فكرت في رفيقتي التي سبقتني: هل خافت مثلي؟ وكيف تغلبت على خوفها؟ لم يبدُ عليها الخوف حين سلّمتني سلاحها وذهبت جرياً إلى النوم. (سألتها في اليوم التالي عن أقصى مكان وصلت إليه أثناء تجوالها في الليل. نظرت إليّ باستنكار: ماذا جرى لك؟ هل تعتقدين أني غبية! أنا لم أبتعد عن المكان خطوة واحدة. وفكرت في حينها، هل يعني أني أنا الغبية؟ لا، إنها رعديدة وجبانة ليس إلا).

مع استمرار الحوار مع النفس، تولدت إرادة التحدّي. أخذت أبتعد خطوة خطوة وأنا أتلفت في كل الاتجاهات ويدي على الزناد، أصارع غول الخوف والوحشة، حتى بدأت أسمع خرير ماء النبع الصغير الذي كنا نجلس عنده أوقات الراحة السريعة. اقتربت بحذر. سمعت نقيق الضفادع. فجأة وقف شعر رأسي وانتصب غول الخوف من جديد: ماذا لو كان ضبع على النبع أو بشر يفاجئني فيطبق على فمي ويأخذ سلاحي؟ اكتسى جسدي بشوك كالذي يكسو جسد النيص. فاق الخوف من احتمال وجود بشر كلّ خوف. أطبقت على سلاحي. كتمت أنفاسي وأصخت السمع ودققت النظر فيما حولي. وجدت

نفسي أرى ما حولي بوضوح. كان البدر يضيء الليل. يا للخوف! العتمة ليست مطبقة كما كنت أشعر!

ضفادع

زيز الليل ونقيق الضفادع يكثّفان صمت الليل وسكونه. في يوم من أيام الطفولة، كانت لي معركة مع خوفي من الضفادع - هل عليّ أن أصارع خوفي دائماً؟ كنا شلة من بنات وأولاد. كانت التلال والوديان المحيطة بالقرية ساحات ألعابنا بما فيها من صخور وأشجار وأعشاب وأزهار ونباتات وحشرات وسلاحف وضفادع وقنافذ. كان جمع السلاحف والفراشات من ألعابنا المفضلة. أما الضفادع فكانت لعبة الأولاد دون البنات. الولد الذي كان يمسك بضفدع يستمتع في إخافة البنات. كنا نهرب وصراخنا يصل السماء، فيتعالى ضحك الأولاد زهواً وانتصاراً. لم يرق لي الهرب من الأولاد خوفاً من ضفدع. قرّرت أن أتحدى. يجب أن أمسك بضفدع! وفكرت: لماذا يمسك بها الأولاد ولا أمسك بها أنا؟ ما دامت لا تأذيهم، فهي لن تؤذيني، وهم ليسوا أجرأ مني. نعم، سأقبض على ضفدع وأخيف الأولاد مثلما يخيفوننا.

حين أتيحت لي الفرصة ولمست يدي جلده الدبق، سرت بي قشعريرة وارتجفت روحي. ارتخت يدي وهرب الضفدع. حين التقطتُ أنفاسي، نظرت إلى يدي فوجدتها سليمة ولم يمسسها سوء! أحسست بالمهانة. قلت: سأعيد المحاولة! تحينتُ الفرصة وأطبقت يداي عليه رغم ارتجافي وخوفي، ثم صرخت صرخة الانتصار كما يفعل الأولاد. كنت أنتظر أن يخافني الأولاد وأن يهربوا مثلما كنا نهرب. تجمعوا وأحاطوا بي وراحوا يساومونني عليه، ثم هددوا بسرقته مني!

كان الفصل صيفاً والقمر بدراً والنسيم رقيقاً. أخذت أراقب شقشقة الفجر شيئاً فشيئاً وأنا أحتضن سلاحي. تابعت النظر إلى فلسطين بجبالها وأغوارها أمامي تبتسم، فابتسمت لها وأخذت أخاطبها كما أخاطب حبيباً. كان فجر جديد قد أشرق في نفسي، وقد اجتزت زمناً فلكياً. ها أنا صارعت خوفي من الليل وفي جبال بعيدة عن البيت والأهل، وها أنا أحمل سلاحاً وأعّد نفسي لأساهم في تحرير وطني، فأيُّ مستقبل سنصنعه؟ لا شيء سيهزمنا بعد الآن.

في الثقافة الأممية

كان المدرب حريصاً على جلسة ثقافية كل ليلة قبل الذهاب إلى النوم، ليحدثنا عن الثورات ونضال الشعوب من الجزائر، واليمن الجنوبي، وفيتنام، والصين، وكوبا، وعن مناضلين عالميين مثل كاسترو، وجيفارا، وماو تسي تونج، وجياب، وعن أننا جزء من جبهة نضال عالمية. كان يعرض كتباً تمتلئ فيها الخيمة قائلاً أنه لا بد من قراءتها إضافة إلى كثير غيرها، قائلاً إن البندقية بلا ثقافة، تتحول إلى بندقية مأجورة. كان يطرح أسئلة ويجري نقاشات، وكانت ثقافته تبهرنا وقد سيطرت على قلوب عديد منا. سَألَنا مدرّبُنا ما الذي نريده من نضالنا؟ وسأل كذلك: هل نناضل من أجل إعادة الحكم الهاشمي؟

لسعني السؤال كما لو كان حية. قلت برد سريع ومنفعل: لا، مش ممكن. يستحيل.

علّق: لماذا لا؟ هل نناضل لننفصل عن الأردن؟ وكيف نفسّر دعوتنا إلى الوحدة العربية ونحن نريد الانفصال؟

لم يكن من سبيل للإجابة. رفضي لعودة الحكم الهاشمي لم يكن من رؤية سياسية أو رغبة انفصالية، فأنا على استعداد لإعطاء حياتي من أجل الوحدة العربية، لكنه نابع من خوف وقهر تراكم في الوعي بحيث دفعنا للعمل سرّاً، ولازم أحاديثنا واجتماعاتنا وقراءاتنا. لم أنسَ الملاحقات التي تعرّضتُ لها وأنا في كلية المعلمات، وكذلك قصص التعذيب التي كانت تقضم أعصابنا وتمتهن إنسانيتنا، وتشلّ رد فعلنا إلاّ من الهمس خوفاً من حيطان تسمع!

في العام ١٩٦٥ جرت اعتقالات واسعة في صفوف حركة القوميين العرب وغيرهم، قيل الكثير عن التعذيب، ذعِر عديد من أعضاء الحركة وأداروا ظهورهم حتى أن بعضهم تجنب رد التحية لرفيقه السابق إذا ما التقى به صدفة! حصل هذا معي حين أدارت رفيقات ظهورهن لي، وتجاهلن تحيتي حين التقينا في معهد المعلمات بعد عودتنا من العطلة الصيفية. أتذكر الصدمة والبكاء المرّ الذي بكيته. لكن الذي كان يزيد من قهرنا، هو إدراكنا أن محصلة ذلك لم تكن إلا خدمة صافية للعدو!

لم يكن بمقدوري في ذلك الزمن، ولا حتى في زمن الزنزانة، أن أتحدث عن نظام سياسي بمواصفات محددة. لم تكن الديمقراطية مثلاً أحد مفرداتنا السياسية. كان وعينا السياسي قبل حرب ٦٧ يتكئ على شعارات سياسية عامة تتلخص في الوحدة العربية، وتحرير فلسطين، يضاف إليها الحرية أو الاشتراكية، وحتى شعار الثأر، بينما يستبطن وعينا في الغالب، أن أفضل وسيلة لتحقيق تلك الأهداف، هي انقلابات عسكرية. ألم تكن الثورة المصرية محصلة لانقلاب عسكري؟

هزيمة حرب ١٩٦٧ جاءت بعدوّنا المطلق إلى متناول أيدينا، فاندفعنا إلى مقاومته. انتصبت قاماتنا، واحتلت شعارات المقاومة

كامل وعينا وحوّلناها إلى فِعل مُعاش، وها هي مقاومتنا تستقطب كل العرب، فلماذا علينا الانشغال بقضايا أخرى من مثل عودة هذا النظام أو الانفصال؟ حين نحرّر فلسطين ستكون الدنيا غير الدنيا. عبد الناصر الذي يحارب في حرب الاستنزاف هو سيدي. جياب الذي حفر تحت الأرض ليصل بجيشه إلى عدوه وحرّر بلاده وشعبه أنتمي إليه. كل المقاتلين من أجل حرية بلادهم وشعوبهم في هذا العالم هم إخوتي. أما النظام الذي كان يقمعنا ويمنعنا من القتال ضد عدونا فأنا لا أريده. هل كان بإمكاني صياغة جوهر موقفي في تلك الليلة بهذا الوضوح الذي أكتبه الآن؟ لا، لكنه كان كامناً ومُشَكِّلاً النبع الذي ينطلق منه موقفي، ويُصيغ نَهْج حياتي. قلت لطالباتي مرة ونحن نقف أمام بيت في طور البناء: إن البناء في ظل الاحتلال هو عمل عبثي كالذي يبني بيته فوق الرمال، لأن الاحتلال قد ينسفه في أية لحظة، مشيرة إلى البيوت التي كان الاحتلال قد نسفها في كل من قرى بتين ورمون، كنت أؤمن بكل ما أقول. كنت مندفعة لا ألوي على شيء غير المقاومة. ألم نعبر برزخاً كان من الصعب عبوره لولا المقاومة؟ يحظر علينا العودة إلى ما كنا عليه، لأنه يعني العودة إلى الهزيمة التي انتقعنا بذلها، فكيف وقد رفضناها وامتشقنا قاماتنا وحملنا سلاحنا واندفعنا في مقاومتنا نعود إلى الخلف!

هل أذكر شيئاً مما قاله الرفيق؟ أبداً. لكني كنت أعي ما استجدّ في وعيي وفي حياتي. مع ولادة المقاومة ولدنا من جديد. نشأت بيئة نفسية وذهنية واجتماعية جديدة في العلاقة مع الذات ومع الأهل من أم وأخ وأخت وأبناء عمومة ومع المجتمع وحتى مع العالم. كان الخوف من الاعتقال زمن الحكم السابق يشلّ تفكيري، وكنت مدركة أنه لن يفهمني أحد، وسأكون مدانة من الجميع. أما المقاومة، فقد استقطبت كلّ أفراد أسرتي بل والعائلة

الممتدة، إضافة إلى أسر عديدة من القرية. أصبح الجميع ينظر بافتخار إلى المقاومة، والاعتقال من قِبَل الاحتلال أصبح شرفاً. عظّمت المقاومة فعل تحرير طاقاتنا، وحوّلتنا من هامشيين مقموعين مقهورين، إلى فاعلين ومقرّرين وصانعي تاريخ. ذاك الانبثاق الداخلي لم يكن ليحصل في ظل السلطة السياسية السابقة. فكيف كنت سأقبل العودة إلى القمقم؟ وكيف كان بالإمكان التعبير بمثل هذا الوضوح، على الرغم من كمونه في الوعي؟

تلك النقاشات زودتني بفكرة جوهرها؛ أننا لسنا وحدنا في النضال، بل يمتد نضالنا إلى كامل الكرة الأرضية. وفي زنزانتي حضر هذا الوعي بقوة. كنت أشعر بالتواصل مع كل المناضلين في العالم. أرى مناضلين يقبعون في زنازين مثلما أقبع أنا في زنزانتي، فأحادثهم وأخلق منهم شخصيات بأسماء وملامح محددة، أزورهم في زنازينهم في الهند ونيكاراجوا والبرازيل. فهل سأخرج قريباً من السجن لأعود من جديد إلى مجتمع المقاومة؟ هل سيعود الشابان لأعرف منهما آخر التطورات في الخارج؟ (لم يعودا).

الـ"لا" تنبثق من جديد

سلام هي حتى مطلع الفجر

واظبتُ على الصحو باكراً لمرافقة انبلاج الفجر وتدرّج ضيائه حتى شروق الشمس. كنت أعيش حالة غير مسبوقة من الإحساس بسلام يمس عمق الروح، إنه سلام الفجر الذي يعم الكون وسائر الكائنات، ومن عمق هذا السلام، تنهض الحياة بشكل تدريجي لتبتسم مع إشراقة الشمس. "سلام هي حتى مطلع الفجر". هذا إذن السلام الذي تتحدث عنه الآية الكريمة، لا بد أن (حتى) في الآية الكريمة هي أداة تشبيه وليس ظرف زمان كما تعلّمناه، وسلام ليلة القدر يصل إلى مستوى سلام مطلع الفجر ويشبهه، إنه سلام لا يتفوّق عليه سلام. جميل هذا الإدراك. كم من المرات قرأت الآية الكريمة وأنا أعتقد أن سلام ليلة القدر ينتهي مع مجيء الفجر! كم من مرة قرأت القرآن دون التفكير والتأمل في آياته؟ كنت في شهر رمضان أختمه قراءة لروح أبي وأخرى لروح أختي "جميلة" وثالثة لروح عمّي. كنت أقرأ وأسجد عند آية السجود. الآن وهنا في الزنزانة اكتشف

أني كنت أمثل حالة السجود، بمعنى القيام بالحركة دون فهم المعنى، تراني أمي ساجدة فتدعو لي بالهداية والخير! فأسرّ بدعائها.

قرّرت أن أطالب بالحصول على القرآن. لا بدّ أن معاهدة جنيف تضمن هذا الحق. نعم، سأناضل للحصول على القرآن وسأقرأه بتمعن وتفكّر. ألم أقرر أن أحوّل الزنزانة إلى صومعة؟ طلبته من الضابطة أثناء الجولة الصباحية. فتحت عينيها على اتساعهما كأنها لا تصدق ما تسمعه. قلت بثقة إنه مكفول في حقوق الإنسان وفي معاهدة جنيف.

قالت: سأبحث، إن كان ذلك من حقك.

مضى اليوم بكامله دون إحضار القرآن أو الحصول على جواب رغم الإلحاح. في اليوم التالي حضرت طبيبة السجن وأمرت بإحضار فرشة لي. في اليوم ذاته أحضروا القرآن. أدركت أن مندوباً للصليب الأحمر في زيارة للسجن.

التفاف على الحكم

في صباح اليوم الثامن، فُتح باب الزنزانة وانتقلتُ إلى غرفة صغيرة مجاورة مخصصة للعزل، تعتبر فاخرة مقارنة بالزنزانة، فيها تخت نظيف وطاولة صغيرة وكرسي. حصلت على بعض الكتب، وأحضر الطعام ساخناً، وكان باب الغرفة يفتح لساعات، والباب الخارجي لساعة في الشمس. قلت لنفسي: ها أنت في حالة نقاهة!

بعد أسبوع، عدت إلى الزنزانة من جديد، فأحسست بثقل العودة. أين أنا من عائشة في أسبوعها الأول؟ هل هذا كان هدفهم؟ أي كسر حالة التحدي التي لا بد أنهم لمسوها عندي، لا كما قالوا عن

أن القانون لا يجيز حجز الأسير عن التعرّض للشمس مدة تزيد على أسبوع؟ إنهم غير صادقين في تبريرهم، وإلا، لماذا حجزونا عن الشمس مدة ٤٥ يوماً في المسكوبية؟ هذا هو: تلاعب بالحكم والتفاف عليه. لا تحققي لهم هدفهم في كسر إرادتك.

هل الوجود في الزنزانة يضيء الرؤيا ويجعل العقل يفكر بوضوح؟ هل ضجيج الحياة التي نجري إليها تبعد عنا الصفاء؟ لكني حقاً كنت في شوق شديد إلى الرفيقات، والآن سيتأخر لقائي بهن أسبوعاً في زمن لا يتحرك. ها أنا أدرك جيداً صعوبة الوضع الذي تعيشه الموقوفات إدارياً. كلما تستعد الأسيرة للخروج من السجن، تفاجأ بتمديد التوقيف فترة أخرى بهدف تفتيت صمودها وقواها النفسية. تفهمت بشكل أعمق ضرب رسمية للضابطة "بيرلة" عندما جددوا التوقيف الإداري لأختها ليلى. حين اقترب موعد الإفراج عن ليلى بعد عام من التوقيف الإداري، وقد أكدت المحامية للشقيقتين أن الإفراج عن ليلى مؤكد، بدأت أسارير الشقيقتين، وبخاصة رسمية، تنفرج. جاءت الضابطة "بيرلة" وطلبت رسمية وليلى لمقابلة المديرة. فكّرت رسمية أن الفرج قريب، وسترتاح حين تكون ليلى إلى جانب الأب والأم الكبيرين في السن. لكنها صدمت حين أعلمت أنه تم تجديد التوقيف ستة أشهر أخرى. ثارت رسمية وزمجرت. تدخلت بيرلة بطريقة زادت من غضب رسمية فأمسكت بها من شعرها وضربتها على مؤخرة عنقها فأوقعتها فاقدة الوعي.

حُملت بيرلة إلى المستشفى ونقلِتْ رسمية إلى الزنزانة.

"ليكن،

لا بد لي أن أرفض الموت،

،،،،،".

انشغلت بقراءة القرآن والتأمل في آياته، وبلورت أفكاراً لمسرحيات سأكتبها حين أخرج من الزنزانة، ورحت أنتظر لقاء الرفيقات بشوق كبير.

أنهار من الألوان

في الأيام الأخيرة من أيام الزنزانة، كنت أغمض عيني استعداداً للنوم، فينساب نهر من ألوان لم أرَ مثلها قط، ثم سرعان ما يتحوّل إلى تشكيلات من أزهار وأشجار بألوان وأنواع لا نهائية، مرتبة ومنتظمة ومتغيرة كماء النهر الجاري. تشكيلات وتشكيلات في غاية البهاء! من أين وكيف لعقلي أن يستحضر كل تلك الصور والتكوينات التي لم تكن من عالم رأيته من قبل؟ هل يتواجد في الكون شيء بهذا البهاء؟ صرت أنتظر المساء بشوق لأغمض عينيّ حتى تنساب هذه الأنهار!

صدمة

أخيراً استطاعت رندة مكالمتي. كانت رندة تعمل في المغسلة القريبة من الزنازين. مع وجودي في الزنزانة، أحضروا مكانها واحدة من بناتهم. استغلت هذه الفرصة لتصرخ وتحادث الأسرى من الرجال من خلف الأسوار دون أن تنجز عملاً، فأعادوا رندة للعمل تحت رقابة مشددة، لكنها نجحت في مكالمتي بجمل مقتضبة ومكثفة:

- "يعل" انتقلت من السجن.
- أكلنا خبزاً وماء تضامنا معك.
- نُعِدّ لاستقبالك باحتفال كبير.

في اليوم الأخير، ومنذ الصباح، وقفت خلف الباب أحثّ الزمن على الإسراع، لكنه كان عنيداً وكسولاً، فاستطالت الساعات الأخيرة كثيراً. ثمّ جاءت السجانة "يوسيفة". وددت الطيران راغبة في الاستقبال نكاية بالمديرة والسجانات. نظرت إلى الحقل وإلى المخيطة فلم أرَ أيّاً من الرفيقات. تحيرت، فرندة تحدثت عن احتفال ينطلق من كل مواقع العمل، ولا أرى أيّاً من الرفيقات في أي موقع من مواقع العمل. سألت "يوسيفة"، فقالت: ألا تعرفين؟ لكنها لم تكمل. تذكرت أن جميع السجانات، خلال الثلاثة أسابيع، لم تتكلّم أيٌّ منهن معي. عرفت فيما بعد أنه حظر عليهن ذلك. ولاحقاً، وفي السنوات الأخيرة، حظر على السجانات أن يفتحن أي نقاش أو حوار مع ثلاثتنا "رسمية ومريم وأنا" خوفاً من تأثيرنا على السجانات. قلقت وأسرعت إلى الغرف: كانت مفتوحة على غير العادة. حين وصلت الباب، ارتجفت روحي ومادت الأرض من تحتي. من مات؟ هل حصل لأمي شيء؟ هل حصل لأخي شيء؟ كانت جميع الرفيقات يجلسن في حلقة على الأرض، ويقرأن القرآن، وقد جللن الأسرة بالأبيض إعلانا عن موت وكفن!

لكن الموت كان أكبر!

كان موت الرئيس جمال عبد الناصر، فأي فراغ سيغزو زماننا؟

اليأس يتسلل

توالت زيارات الأهل وهم يتشحون بثياب الحداد، فقائد الأمة الذي كان يضيء لهم الأمل مات. جلّ أحاديثهم كانت عن حلقات الندب التي عمّت كل قرية وكل مخيم وكل مدينة. رفعت الأعلام السوداء فوق كل بيت. تحدّثوا عن اليتم الذي أصابهم مع غيابه

في أحلك اللحظات. كان الندب الفلسطيني مركباً، فأتون حرب أيلول جعل الموت كذلك، وقنديل المقاومة الذي أضاء أملهم، يتم تكسيره بأيدٍ عربية (يا للهول)! فمن أين سيولد النور والأمل؟

كانت القصص بنغمها المرّ واليائس تمزقنا. وإذاعة إسرائيل تُجرّح أعماقنا. ولا مفرّ. هجم الحزن وألقى بكاهله. هل كان حزناً؟ كنتُ مشدودة إلى الأرض بخيوط غير مرئية، تمتد إلى كامل الأرض العربية! حين أتحرّك، أجد أني أسحب جسداً ينوس بأثقال لا أعرف كيف ناخت على كاهلي وأحنت الظهر مني. لم أكن وحدي أعاني، فهذه صورتي أراها في رفيقاتي يجررن أقدامهن وأجسادهن، وقد انطوت كلٌّ منّا على ذاتها، وعمّ الصمت. هربتُ إلى الكتاب، أبحث في ثناياه عن بصيص أمل.

تركت الكتاب وغصت في لجة يأسي: رأيت ثورتي تخوض معركة وجود دون أن أستطيع المشاركة في الدفاع عنها. زاد يأسي لأني لا أستطيع المشاركة في قضايا شعبي المفصلية! تضخمت في نفسي قدرتي على الفعل وأحسست بأني لو كنت في الخارج لكان لي فعل مفصلي! قد أقتل؟ ليكن، فذلك خير من هذا اللافعل واللامشاركة واللاشيء. إنه القهر بعينه، إنه السجن! نعم، هذا هو السجن. أحسست بأني لم أدرك معنى السجن إلا في تلك اللحظة! السجن حالة تجد نفسك فيها مجرّداً من أية حيلة للتواصل والفعل. السجن يعني أنك معزول، ليس عن أهلك فحسب، ولكن عن الفعل، عن المشاركة. آه ما أقساه.

حين وقعتْ حرب حزيران ٦٧، وكان ابن عمي خالد (أبو نياز) يعمل في الخليج، ترك كل شيء وركب أول طائرة مع المئات من أمثاله ليتوجهوا إلى أرض المعركة للمشاركة في الدفاع عن الوطن

والشعب والوجود. حين وصلوا الأردن كانت الحرب حُسمت والحدود أغلقت. تسلل عبر النهر وانضم إلى أهله، اعتقل وعُذّب، لكنه كان حراً وكان قادراً على اتخاذ قراره بنفسه والتحرك في الاتجاه الذي يمليه ضميره. أما السجن! فحالة عجز مطلق. كيف لم أستطع أن أرى ذلك؟ يا إلهي، أين المفر؟

حضر بقوة قول أختي في أول لقاء على هامش جلسة التوقيف الأولى، كان القول مختبئاً في تلافيف وعيي، جاهزاً للقفز في مثل هذه اللحظات! "ليش تسألي، إحنا فالتين وبنعرف اندبّر حالنا، إنت بس فكري في حالك، كيف تظل صحتك ومعنوياتك عال العال . . . ". يومها وخزني قولها كشوكة في القلب فأسرعت إلى إقصائه، وتمسكت بجانبه الذي يحمل لي الطمأنينة عن أهليتهم لمواجهة صعاب الحياة. ها هو القول يتضخم في نفسي وأرى هول ما كانت تدركه أختي ولم أكن أدركه أنا. كانت تدرك الحقيقة بينما كنت أموّهها عن نفسي! كانت ترى معنى السجينة! إنها إنسانة لا حول لها ولا قوة، وليس بمقدورها إلا أن تفكر في نفسها! أما أنا، فكنت أموّه الحقيقة وأقول إني أقوم بدور جوهري في صميم معركة وجودنا رغم كوني في السجن. الآن، وأنا أستمع إلى ما يتعرّض له شعبي وثورتي ولا أستطيع أن أفعل شيئاً، حتى مكان نومي لا أستطيع تغييره! فإني أعرف الآن ما هو السجن!

سكن فعل المقاومة وتوقّف توارد مناضلات جديدات إلى السجن، وكان مؤشراً على انحسار المقاومة: ألم يعد الشعب يرغب أو لم يعد قادراً على فعل المقاومة؟ كان تساؤلي في جوهره يحمل الجواب اليائس الذي لم أعبّر عنه لأي من الرفيقات. هل كانت الرفيقات يفكرن بما أفكر فيه وتحتفظ كل منهن بهواجسها خوفاً من انعكاساتها على الأخريات؟

جلست أتأمل تلك التداعيات. كان اليأس يسكنني فرأيت أن الوضع سيبقى هكذا، وأن حياتي ستنحصر بين الجدران، فلن تكون عمليات تحرير أو عمليات تبادل أو انتصار قريب! ستمضي حياتي في السجن! ولن يتاح لي الخروج إلى الحياة من جديد!

أناخ اليأس بكلكله على صدري ككتلة رصاصية، واغرورقت عيناي بالدموع.

"لا" تنبثق من جديد

زهقت روحي من ثقل اليأس فلم تتحمله فصرخت "لا". كانت كتلك الأ "لا" التي صرختها في ظلّ تعذيب رهيب، انبثقت منها إرادة مقاومة مطلقة، في مواجهة ظلم مطلق، فانتصرت إرادة المقاومة، وتلألأت روحي وانهزم الموت وانهزموا بظلمهم. كانت هذه الـ"لا" من المنبع ذاته، انبثقت من جديد قنديلاً في لحظات اليأس. يا لجبروت (لا)!

(لا) يا عائشة، لا تصمد الحياة على حالة بذاتها، وشعبك لن يموت، هي غفوة لن تطول، وإذا طالت، فعليك أن تبقي صامدة، ارسمي واكتبي، وإذا جاءك الموت وأنت ما زلت في السجن، لتخرجي جثة أبية صامدة، إنه الحق لا يموت.

نفضت "لا" الموت عن روحي، وتبخّرت كتلة الرصاص عن صدري، وكما لو أن الشمس أشرقت بعد طول غياب، كما لو كنت نبتة تفتحت فوق الأرض، نهضتُ وسرتُ وقد غابت الخيوط التي كانت تشدّني إلى الأرض، واتجهت خفيفة ومبتسمة نحو الرفيقات.

قنديل الأمل

بعد ذلك الانقطاع في تواتر دخول المناضلات إلى السجن، جاءتنا عفيفة بنورة تحمل مؤبداً إثر قيامها بعملية زرع قنبلة. كنا ننتظرها بعد سماعنا عن العملية. جاءتنا من مدينة بيت لحم، كأنها تعرفنا منذ زمن بعيد. بلا تعقيد، كانت كلماتها الأولى: فكّرْتُ: يمكن تحتجن ممرضة، فجئت. هل ترحبن بي؟

نعم، كنا في حاجة إليها كي تعيد الثقة في مقاومتنا وفي شعبنا، وتعالج الروح فينا قبل الجسد، وتطرد اليأس منها. قلنا إن شعبنا هو طائر الفينيق.

قسم جديد، مرحلة جديدة

أُنْجز مبنى جديد ومنفصل، وسيصبح خاصاً بنا. صحيح أن المبنى الذي كنا فيه مريح من حيث غرفه ونظافته وإضاءته، لكن وجودنا مع السجينات الإسرائيليّات كان يضعنا في دائرة خطر دائم وإزعاج مستمر. وصحيح أنهن فتيات مسكينات، وقد اطلعنا على قضايا كثير منهن، إلا أنّ تقلّب أمزجتهن والتغيّر السريع لمواقفهن كان يشكل خطراً؛ ففي لحظة قد تهتف الواحدة منهن باسْمنا وتكيل المسبات للأشكناز ولدولة إسرائيل، وبعدها مباشرة تنقلب علينا وترغب في قتلنا. وهن يرددن بشكل هستيري: ديفيد ميلخ إسرائيل (داوود هو ملك إسرائيل)، ويتحلقن ويرقصن على أنغامها حتى حالة الهستيريا التي قد تقود إلى ارتكاب جريمة في حقنا.

ها نحن ومع نهاية العام ١٩٧٠ نحصل على قسم خاص بنا: القسم الجديد سيُعرف من الآن فصاعداً بالقسم (ب). وهو على غرار سابقه الذي سيصبح اسمه القسم (أ)، مع فوارق قد تبدو قليلة الشأن لكنها كبيرة التأثير. أهم هذه الفوارق كانت الألوان. في حين كان اللون الأخضر الحشيشي هو لون القسم (أ)، حل اللون السكني القاتم في القسم (ب) وبمساحات أكبر، فبدا المكان كئيباً

ومتجهماً، وكانت كآبته متحالفة مع تجهم السماء وبرودة فصل الشتاء التي صفعتنا حال دخولنا القسم الجديد. لو أتينا إليه من المسكوبية مباشرة، لوجدناه عظيماً، أما وقد انتقلنا من القسم (أ) بألوانه الخضراء المضيئة إلى هذه الكآبة، فشيء آخر، ولم يسبق أن احتلت الألوان مساحة من التفكير والنقاش والتأمل، كما حصل في ذلك اليوم. لقد اكتشفنا أن اللون يمكن أن يكون أداة عدوان! هذا اللون يبث كآبة متواصلة تصدم عيوننا حيثما ننظر وأثناء النوم والصحو لتصفع فرحنا بشكل دائم!

"وليكن،
لا بد لي أن أرفض الموت،
،،،،".

بعد دخولنا الغرف الباردة، وقبل أن نرتب أغراضنا، التففنا حول بعضنا كما تفعل وريقات وردة، وانطلقت حناجرنا بأغانينا الثورية إلى أن تحررنا من أسر الكآبة، وفاضت حماستنا وأعلنّا: نعمّر المكان بإرادتنا.

حلّ وقت الغداء، وجاءنا الطعام من القسم (أ) بارداً، أما الساحة الجديدة، فقد ضُيّقت وجُرّدت من كلّ لون من ألوان الحياة، كما ضّيقت مجال رؤيتنا بشكل كبير. أعلنت رسمية أنها ستزرع أزهاراً في الساحة، (نفّذت رسمية وعدها، وفي فصل الربيع، أصبح لدينا بعض الأزهار، وتميزت إحدى النباتات المتسلقة التي راحت تتسلق الجدار وتغطي أجزاء منه بخضرة يانعة، فأصبحت درّة الساحة، نقف أمامها ونتأملها ونتشرّب خضرتها ويناعتها. في أحد الصباحات وجدناها قد جُزّت، فأثار هذا العدوان غضبنا وحزنّا لدرجة البكاء، أمّا رسمية ففجعت وتطلّب منا مواساتها).

في الأجواء الحماسية، بدأت الاقتراحات تتوالد. قلنا: سنؤسس دولتنا! وبالفعل، بدأ يتشكّل لدينا أول نظام متكامل لمجتمعنا داخل السجن.

مشهد مسرحيّ

كتبت لطفية الحواري نصاً مسرحياً، وقامت على إخراجه احتفالاً باستقلالنا في القسم الجديد. حُدّد يوم العرض ليكون يوم جمعة. فاجأتنا حنة شموئيلي اللبنانية المولد والنشأة، بقطع إجازتها لحضور المسرحية. لم نكن ننتظر ملابس وأضواء مسرحية وعرضاً على خشبة مسرح. عرضنا في غرفة الطعام، ودارت الأحداث حول الصراع الذي نعيشه: أحد جنود الاحتلال يدس صواعق في بيت فلسطيني أثناء تفتيشه، ثم يعلن عن اكتشافه أسلحة لينسف البيت بعد ذلك، وهذا في الواقع ما حصل مع لطفية وبيت أهلها.

جن جنون حنة شموئيلي، فنحن كما قررت، نكذب على الجيش الإسرائيليّ وأخلاقياته المشهود لها في العالم! أمرت بإنهاء العرض، ففجّرنا تمرداً. حضر الجنود لإدخالنا إلى الغرف بالقوة. وصدرت الأوامر بعدم السماح بالقيام بمثل ذلك النشاط، إلا إذا قدمنا لهم النص وأجازوه مسبقاً!

تنظيم الكانتين

لم يكن يسمح لنا بالحصول على الأموال، لكننا كنا نتقاضى ٤ أجورات بدل أجرة العمل اليومي. تتم محاسبتنا كل ١٥ يوماً لنشترى بأجرتنا مواد من الكانتين. هكذا تتمتع الواحدة منا بدخل نصف شهري قدره نصف شيقل تقريباً، لا أحد يستخفّ من هذا

المبلغ! صحيح أنه لا يجوز استلامه نقداً، لكننا نأخذ مقابله كيلو سكر مثلاً، أو بكيت شاي، أو بكيت بسكويت أو لوحا من الشوكلاتة، أو علبة شامبو. يعني أننا نستطيع الحصول على عدد من السلع الرفاهية، ونحتفل في الأسبوع مرة أو مرتين مثلاً، نشرب الشاي ونوزع البسكويت، أو لوح الشوكلاتة. كان ذلك رائعاً! وهو بالضرورة يتطلب تنظيم كل إمكانياتنا تحت قيادة كفؤة، وقد وقع الاختيار على عفيفة بنورة لتصبح وزيرة اقتصادنا. صحيح أن دخولنا لم تكن متساوية، فمن تعمل في المطبخ تتقاضى أجراً يومياً قد يصل إلى ٦ أجورات، ولطفية لا تعمل بسبب وضعها الصحي، وبعضنا تتعرض أجرتها لإجراءات عقابية لأسباب غاية في التفاهة، لكن على كل واحدة، قبل ذهابها إلى الكانتين، أن تمرّ على الوزيرة لتأخذ توجيهات الشراء. هكذا نجحنا في توفير احتياجات رفاهيتنا، وكانت لنا الحقوق نفسها. عملنا حفلات الشاي ووزعنا البسكويت أو الشوكلاتة أيام الجمع، وأحياناً مرتين خلال الأسبوع، ثم أصبحنا نلتقي يومياً عند الرابعة عصراً، وقد نحول اللمة إلى حفلة أناشيد وأغانٍ. ولا ننسى المناسبات الخاصة كوصول رسالة من حبيب. كانت دولتنا اشتراكية تتداول المحبة بدلاً من النقود.

تنظيم حياة ثقافية

إصدار مجلة

قررنا إصدار مجلة ثقافية سميناها "العروة الوثقى". انهمكنا في الكتابة، وصدر العدد الأول منها مكتوباً على دفتر من ٦٤ ورقة، واحتفلنا بصدورها احتفالاً كبيراً حتى إننا أكلنا بسكويتاً وشوكلاتة في الوقت نفسه. أما العدد الثاني فكتب على دفتر من ٩٦ ورقة، وكذلك كان العدد الثالث وهو الأخير. تحوّلت الأعداد الثلاثة إلى

مادة تثقيفية للقادمات الجدد. حصلت إحدى قصصي القصيرة على إشادات متعددة، وكذلك مادة كتبتها عن تجربة الزنزانة.

مكتبة ومدرسة

دأب الصليب الأحمر على تزويدنا بالكتب، ثم زودنا بخزانة وضعناها في غرفة الطعام وأوكلنا مفتاحها ومسؤوليتها إلى مريم الشخشير التي سنسميها وزيرتنا للثقافة. وضعنا قائمة بالكتب التي سنناقشها بشكل جماعي: سيتم كل يوم جمعة عرض كتاب ومناقشته، إضافة إلى القراءات الفردية. ومع ازدياد عدد الأسيرات، برزت الحاجة إلى مدرسة وصفوف مختلفة: للأميات، لطالبات الإعدادي ولطالبات الثانوي، أو لعمل دورات في اللغات. وزّعنا إعطاء الدروس حسب التخصصات المتوفّرة في كل مرحلة من المراحل. ولم نكتفِ باتباع المنهاج (الأردني) الذي زودنا به الصليب الأحمر، بل قمنا بصياغة مواد جديدة، فحذفنا وأضفنا. مما أضفناه مثلاً قصص لغسان كنفاني، ومواد عن الثورات التحررية.

أصبح يوم الجمعة يوماً حيوياً ومميزاً، فإضافة إلى الأجواء الصباحية التي نصنعها أثناء تنظيفنا الغرف والقسم وما يرافقها من أغانٍ وضحك وشيطنات، كان بعد الظهر مخصصاً لعرض الكتب في نقاش حيوي حرص الجميع على المشاركة فيه، ما أثار غيظ السجانات، فأصدرن أمراً بمنعنا من هذا النشاط، وحظرن التجمع لأكثر من ثلاثة أفراد. وبين كر وفر، قمنا بتنظيم نقاش الكتب داخل الغرف لمجموعات ثلاثية، ما خلق برنامجاً مكتظا ومستوى أعلى من التنظيم، ومستويات متعددة من النقاشات.

أنشطة رياضية

التزمنا يومياً بحصة رياضية، نلعب تمارين، نجري بشكل دائري داخل الساحة، وحتى نلعب الـ ٧ حجارة والزقيطة. ثم زودنا

الصليب الأحمر بكرات وحبال للقفز، ومضارب وريشة طائرة، كما زودنا بمجموعة من الألعاب الأخرى: شطرنج، دومينو، اسكربل والشدّة التي احتفلت بها عفيفة بشكل خاص.

أصبح سجناً مركزياً

تحوّل القسم الجديد إلى سجن مركزي لنساء فلسطين. أحضروا جميع الأسيرات من سجني نابلس وغزة. قلنا: ها هي الأطراف تأتي إلى القلب، وها هي قاعدة الدولة تتسع. نحن المحكومات أحكاماً مؤبدة أو أحكاماً عالية، كنّا أكثر المعنيات بهذا التوسع، فكلما زاد عدد الأسيرات واتسعت مناطقهن، ازدادت حياتنا ثراء، وأصبحت لنا مهام كنا ننظر إليها غاية في الأهمية، فنقول مثلاً إننا نُعدّ الكادر الثوري لرفد الخارج.

في البداية، وصلت من سجن نابلس كل من **نجوى الشخشير**، **ودوريس خوري**، و**روضة التميمي**، وكان هذا إثراء حقيقياً وإضافة نوعية لمجتمعنا في السجن. تميزت نجوى برقتها وبصوتها الملائكي وهي تغني لفيروز. **دوريس خوري** ستصبح معلمتنا للغة الإنجليزية وستعلمنا ألعابا فكرية لم نكن نعرفها، وحين حصلنا على الشطرنج من الصليب الأحمر، علمتنا إياها إضافة إلى حضور إيجابي يعكس نفسه على جونا العام. روضة كانت طاقة محفزة على التفاؤل وخلق الأفكار العملية والابتسام والضحك. أدركنا أن البشر ثروة حقيقية، وليسوا كما يقول سارتر بأنهم الجحيم.

من مناطق الـ٤٨ جاءتنا "**غزالة**" من سخنين، أم لأربع بنات ولديها من العواطف والمحبة ما يفيض عن حاجة دولتنا الوليدة. لن أنسى حصتي من محبتها حين عملت مفاجأتها ورتبت مع الرفيقات احتفالاً فاخراً بعيد ميلادي، وزّع فيه قالب من الشوكلاتة وعلبة

من البسكويت، وقدمت لي زهرة، وغنينا زهرة المدائن. مستني المفاجأة في العمق، فلم يسبق أن احتفلتُ بعيد ميلادي، وكان الاحتفال الأول بعيد ميلاد في السجن، إذ لم يكن ذلك جزءاً من ثقافتنا أو عاداتنا.

من غزة، في البداية جاءتنا **غالية أبو ستة** شاعرة رومانسية، ومعلمة لغة عربية، أسمعتنا كثيراً من الشعر وغمرتنا بمحبتها. بعد خروجها، غذّتنا برسائل تحمل أشعاراً لمحمود درويش. لن أنسى أبداً، غرامها بشرب الشاي لدرجة أنها تتمنى أن تجده في الحنفيات مثل الماء. ثم جاءتنا مجموعة من خمس مناضلات: **دلال أبو قمر**، و**رايقة**، و**خضرة**، و**فرحانة**، و**الطفلة حرية**، التي لم يتجاوز عمرها ١٤ عاماً. وهن من المعسكرات الوسطى. سنسمع من بنات غزة قصصاً كثيرة عن العمل الفدائي وعن (البيايير) التي تحتضن الفدائيين والفدائيات، وكيف يقوم الاحتلال باقتلاع أشجارها وتجريفها (توازيها نسف البيوت في الضفة الغربية)، وستصبح دلال قوتنا الضاربة كما وصفتها الإدارة، ورايقة بهارات أيامنا.

فكر جديد، ورؤية جديدة

"العلم والناس والمجتمع" كتاب اختلف عن باقي الكتب بتجليدته التي توحي بالأهمية، والكتاب لمجموعة من الكتّاب السوفييت، ورقه مصقول جيداً، خطه مرصوف، صفحاته تزيد على ٤٠٠ صفحة. أمسكت به وبدأت أتصفحه، فيه فكر جديد، كفيل بإحداث انقلاب في وعيي بعد أن ينسف ما هو قائم. تردّدت، لا يجدر بي الاستمرار فيه وحدي. أحتاج ليد تشد على يدي لعبور هذا البرزخ الشائك. أطلعت سامية وقررنا خوض غماره معاً.

بدأنا نقرأه وكان الأمر خطيراً.

الكتاب يتناول الجدلية المادية، والجدلية التاريخية. ينسف وعياً ويؤسس لآخر، والنتيجة؛ كأننا لم نكن نرى، وفجأة، أصبحنا نرى. كأننا نخلق من جديد! وفهمنا؛ أن الله خلق الناس أحراراً ومتساوين، (وهذا طبعاً كنا نعرفه)، وإذا بالملكية الخاصة تعتدي على هذه القوانين، وتخلق واقعاً جديداً قائماً على الظلم والسلب ومصادرة الحقوق، وتقلب الموازين، وتقسم الناس إلى أقوياء ومستضعفين، أسياد ومستعبدين، مُلاّك وأقنان، أغنياء وفقراء! وإذا بالواقع الجديد يحتاج إلى قوة لتثبيته، والقوة تحتاج إلى سلطة، وقوانين وأفكار ومفاهيم تثبت تلك السلطة وتبرّر لها إنشاء السجون والجيوش وخوض الحروب للحفاظ على امتيازات أهل السلطة والامتيازات. وهم يستخدمون أبناء الطبقات المستضعفة أدوات لحروبهم، وهذه بدورها تحتاج إلى إيجاد بنية فكرية تقدس تلك الحروب وتجعل أبناء الطبقات الفقيرة والمستضعفة تندفع إلى الحرب لتلبية الواجب المقدس (هذا الذي أصبح مقدساً هو ذاته الذي دمّر المقدّس الأساس من مساواة بني البشر وحريتهم)!

كنّا نمسك برؤوسنا كي لا تفرّ منا. كنّا كحال البشر يؤمنون بالشمس تدور حول الأرض، وإذا بالأرض تدور حول الشمس! أصبحنا نرى الأمور بعيون جديدة، وانتابني شعور عظيم بدأ يفعل فعله. لم يعد بالإمكان العودة لما كنت عليه قبل البدء في قراءة ذلك الكتاب. بدأت أفهم التاريخ لا كأحداث متفرّقة تغرقنا في تفاصيل من انتصر ومن انهزم، وبعظمة هذا ونذالة ذاك، بل كسيرورة تحرّكها القوانين الموضوعية التي تسير على عجلات تدعى صراع الطبقات. لم أعد أرى الأحداث الطافية على السطح فحسب، ولكن ما يحرّكها.

كأني خلقت من جديد!

رغبة في الاعتذار

من خلال الوعي الجديد، بتّ أفهم ما كان يستغلق عليّ فهمه. فهمت سرّ الصمود الذي اتصف به عدد من كوادر الحزب الشيوعي (مثل فائق وراد، سليمان النجاب) رغم تعرضهم لصنوف من التعذيب في السجون تشيب لها الولدان. قلت لسامية: أرغب في الاعتذار لفاطمة النجاب عما سببته أنا ورفيقاتي في حركة القوميين العرب من مشاكل لها. يبدو لي أننا كنا في غاية السخافة والجهالة.

كنا ست عشرة طالبة في التوجيهي. ثلاث عشرة طالبة في حركة القوميين العرب، أعضاء وأصدقاء، وثلاث طالبات في إطار الحزب الشيوعي. جاءتنا فاطمة النجاب (الشيوعية) لتدريس مادة الاجتماعيات. قمنا نحن القوميات، بتحريض دائم وسافر ضدّ الشيوعية والمعلّمة الشيوعية. كانت مادة دعايتنا ضدهم أنهم ملحدون ولا أخلاقيون، وليست لديهم محرمات حتى إن الرجل يمكن أن ينام مع أمه أو أخته! لم أكن أعرف شيئاً عن الشيوعية إلا هذه الترّهات. يا إلهي! كيف كنا عمياناً وبعيدين عن الحق؟ كيف لم نحاول ولو مرة واحدة، فهم شيء غير الإشاعات والدعايات المعادية؟!

فاطمة النجاب كانت معلمة متميزة، لكن العداء لها كان أعمى لا يقبل بحثاً أو تأملاً أو حواراً. كان العداء لخصومنا السياسيين يعمينا، ويجعلنا نشكّ في كل كلمة يقولونها. لم يكن الشكّ الذي يدفعنا للبحث عن المعرفة، لكنه الموقف المسبق الذي يحمل الاتهام الثابت ويغلق أبواب البحث، فإذا قالت النجاب إن الشمس تشرق من الشرق، قلنا لا، إنها تشرق من الغرب! وإذا طلبت منا بحثاً،

رفضناه لأنها من خلاله تستهدف أن تدخلنا إلى فكرة الشيوعية! كنا نُخضع كل شيء للشك والنقاش إلا من مواقفنا السياسية التي لم تخضع قط لأي شك أو رغبة في البحث والتحليل!

لم تستطع المعلمة أن تستمر أكثر من شهر. طلبت الانتقال لتعذر إمكانية إفادتنا. فاعتبرناه انتصاراً لنا! أي انتصار كان يا سامية؟ أية سخافة كنا نقوم بها؟ أي جهل كنا نرفل به؟ ألا يجدر بي أن أرسل رسالة اعتذار للمعلمة فاطمة النجاب بعد أن تبين لي جهل ما كنت أقوم به؟

قرأت الكتاب ذاته مرات عدة، فأصبح مرجعية لي، وتحولتُ إلى متحمسة ومنظرة للفكر الشيوعي داخل السجن. شكلت تلك الأفكار أجنحة تشعرنا بالانتصار على الأقفال والأسلاك الشائكة والعزل، وتزرع فينا الثقة بغدٍ رائع تنتفي فيه سيطرة شعب على شعب، كما ينتفي فيه استغلال إنسان لإنسان، وتمدنا بعزيمة، وبغذاء روحي يعزّز صمودنا.

منعنا رفع العلم الإسرائيليّ

مع اقتراب احتفالهم بعيد (استقلالهم) بدأوا يزيّنون السجن بالأعلام، أرادوا تزيين قسمنا. تساءلنا عن حاجتهم إلى رفع علمهم على القسم الخاص بنا، إن لم يكن ذلك استفزازاً لنا واستهتاراً بنكبتنا؟ قررنا ألا نسمح بذلك حتى لو سقطت منا شهيدات! بلّغنا المديرة الرسالة مع استعدادنا الكامل لوضع تهديدنا موضع التنفيذ. لبسنا ملابس وأحذية تساعدنا على التسلق، ووقفنا متحفزات. درست المديرة الوضع وتصرّفت بحكمة. أعطت أمرها بعدم رفع العلم على قسم (ب)، فأصبح ذلك تقليداً.

أحضروا طعام الغداء. كان استثنائياً لم يشهد السجن مثله من قبل، وزينوا طاولات الطعام بالفاكهة والحلويات والمشروبات وبكلّ ما لذّ وطاب. قلنا: بُعداً لهم، لن يدفعونا إلى مشاركتهم احتفالهم، فنحن ندفع أعمارنا في السجن بسبب تشريدهم لشعبنا وتفتيت وجودنا. جلسنا جانباً وتناولنا الخبز والماء فقط، وبعد ذلك أنشدنا أناشيدنا الوطنية. هاجت بناتهم، لكن الأبواب بيننا وبينهن موصدة. قالت المديرة إن سلوكنا كان قاسياً لأنّه شوش فرحتهم! قلنا: ما أقبحه من منطق، القسوة فينا لأننا شوشنا فرحتهم! أما تشريدهم شعبنا واستيلاؤهم على وطننا، فلا تراه قاسياً، بل تراه أمراً يستحق الاحتفال!

أصبح تناولنا الخبز والماء تقليداً لم نتخلّ عنه، ثم ثبتنا يوم ١٥ أيار يوم إضراب لنا عن الطعام.

العالم يأتي إلينا

شقراء من باريس

أعلنت إذاعة إسرائيل عن الإمساك بمجموعة (تخريبية) حسب قولها في مطار اللد: نلملم الأنباء من التسريبات ومما تذكره إذاعة إسرائيل، والمحصلة أن مجموعة من فرنسا، مكونة من خمسة أفراد؛ أربع نساء ورجل واحد جاءوا بهدف القيام بعمليات (تخريبية) لصالح المنظمات الفلسطينية!

أربع فتيات! وفرنسيات! يعني أن باريس تأتي إلينا. ونضالنا يتسع وتشارك فيه مناضلات ومناضلون من شعوب أخرى! إنها عدالة قضيتنا تحرّك ضمائر العالم.

أصبحنا على أحر من الجمر. نهيّئ أنفسنا لاستقبال المناضلات الآتيات من باريس. لم يطل الوقت قبل أن تصل القائدة الشقراء ومجموعتها إلى السجن، وإلى القسم (أ). لم نستطع الاتصال بهن رغم محاولات العاملات منا في المطبخ اقتناص الفرص،

لأن الرقابة عليهن كانت مشددة. سنعرف أن القائدة الشقراء فتاة مغاربية الأصل، تحمل جوازاً فرنسياً، واسمها نادية بريدلي، وعمرها خمسة وعشرون عاماً.

احلوّت: عربية تقود مجموعة فدائية. هذه ثورة حقيقية. المجموعة مكونة من نادية بريدلي، وإيفلين برغة الفرنسية ابنة العشرين عاماً، ومارلين بريدلي شقيقة نادية، وأوديت بوخهلتر في الستين من عمرها، أما الخامس فهو بيير زوج أوديت وكان في السبعين من عمره.

مع حضور المجموعة، يمكن القول إن فصلاً جديداً بدأ، يمكننا أن نطلق عليه عهد نادية بريدلي بامتياز. نادية خريجة جامعة السوربون من كلية الفلسفة، والدها مغربي وأمها إسبانية. تتمتع بشخصية ساحرة وكاريزما قيادية، رفيعة الثقافة، صدر في حقها حكم بالسجن الفعلي مدته ١٢ سنة. وإيفلين نائبة القائدة، ١٠ سنوات. ومارلين التي لم تكمل العشرين، ٨ سنوات. وأوديت ٤ سنوات، أمّا زوجها الموجود في سجن الرجال، فحكم سنتين رغم معاناته من ضعف النظر بسبب تأثره بمرض السكري.

وَضْعُ أوديت وزوجها كان الأصعب، فأي حكم لمن هو في الستين أو في السبعين يعني بالضرورة حكما مؤبداً، قد تنتهي حياة أي منهما أو كليهما في السجن ومنفصلان عن بعضهما.

أصبحت نادية في زمن قياسي، معبودة الجماهير. السجينات الإسرائيليّات (معظمهن مغاربيات) كانت الواحدة منهن تنتظر أن تطلب نادية منها أي عمل لتقوم به من أجل إرضائها. لم يقتصر سحر نادية على السجينات، بل شمل السجّانات، وحتى المديرة التي انسحرت بنادية قبل الجميع، وجعلت منها صديقة تناقش معها أية قضية تواجهها في السجن وتأخذ بآرائها، وأصبحت تمرّ على

غرفة نادية كل صباح لتطمئن عليها قبل دخولها إلى مكتبها! كانت نادية واسعة الثقافة متعددة المواهب وقد تعلمت العبرية بإتقان خلال عام. صوتها ساحر، تكتب الأغاني وتلحنها، وسرعان ما حصلت على غيتار، فأصبح صوتها والغيتار يعمّران أجواء السجن.

بتأثير من نادية، فتحت ساحات السجن جميعها على بعضها. أجمل الساعات كانت تلك التي تجلس فيها نادية فوق الحشائش الخضراء وهي تحتضن غيتارها وتغني بصوتها الساحر. من أجل ناديا، زار السجن، صديقها المغني الفرنسي اليساري الشهير "جورج مستاكي" وغنى لها داخل السجن. وهي كاتبة وممثلة مسرحية. كتبت مسرحيات بالعبرية، فحضر مخرج مسرحي من جامعة تل أبيب، وأخرج مسرحيتها. أقاموا لها مسرحاً في ساحة قسم السجينات الإسرائيليّات. سمعنا التصفيق لها ونحن معتكفات في القسم (ب). سحرت نادية الضيوف (من خارج السجن) ومنهم صحافية معروفة (عدنة)، فأصبحت من زوارها شبه اليوميين. والمخرج أصبح من مريديها وقد قلبت وعيه، ولم يكن سمع من قبل شيئا عن وجود فلسطينيين!

شكلت نادية لغزاً.

هل لنا أن نطلب منها ومجموعتها أن يأتين إلى القسم (ب) ويلتزمن بما نلتزم به؟ أو أن نقول لها: لا يجدر بك أن تكتبي المسرحيات باللغة العبرية وتعرضيها لهم؟! هل مثل هذا الطلب ممن تركن باريس وحياتها والتزمن بقضيتنا، وحملن أرواحهن على أكفهن، سيكون طلباً منطقياً وأخلاقياً؟

ناقشنا الأمر كثيراً بيننا، وكان في خلفيتنا أو على الأقل في خلفية تفكيري أنا، أن نستأثر بنادية وثقافتها الفلسفية واليسارية، إذ تشكل

مثل تلك الشخصية منجماً إنسانياً داخل السجن. لكن محصلة نقاشنا كان: لقد اخترن طريقهن بحرية، وليس من حقنا أن نطلب منهن غير ما يخترنه، وما تمليه قيمهن وضمائرهن. أما نحن، فلا نكون إلاّ ممتنات لهن، علماً بأننا لا نستطيع إيفاءهن حقهن، وعلينا تقديم ما نستطيعه لهن.

ذات يوم، كنت وأوديت نعمل معاً في المطبخ. تحدّثت أوديت معي بصراحةً، قالت إن ما يعذبها أكثر من قلقها وخوفها على زوجها هو التغيّر الذي طرأ على شخصية نادية، فهي لم تعد نادية التي تعرفها، لقد أصبحت عصبية وغامضة وتتجنب النظر في عينيها مباشرة! وقالت إنّ نادية لم تعد ترجع في قراراتها للمجموعة، وإنها رفضت دون تبرير أو شرح الأسباب، حين طلبن منها الانتقال إلى القسم (ب) أكثر من مرّة. سمعت الاحتجاج نفسه من إيفلين كذلك.

سألتُ نادية: ما الذي يجري يا ناديا، ولماذا؟

قالت: سأكلمك أنت وحدك فقط وبصراحة. لا تعتقدي أن الأمر سهل علي، فأنا لا أستطيع النظر في عيني أوديت فعلاً، هذه المرأة التي تعيش سنوات عمرها الأخيرة هي وزوجها الضرير، أنا المسؤولة عن الإتيان بهما ودخولهما السجن، وليس من السهل أن أرى أختي البريئة أو إيفلين يمضين زهرة شبابهما هنا. هذا أمر يثقل على ضميري، وأنا أعمل من أجلهن ومن أجلنا جميعاً. لا أنكر أنني أضعف أمام نظرات أوديت المتشككة، أضعف أحياناً وأرغب في طرح كل أوراقي أمامها. لكنني أعود وأتماسك، ففي النهاية، سيعرفن الحقيقة، وليس من المسموح لي كشفها الآن. لن أستسلم يا عائشة ولن أبقى مكتوفة اليدين إلى حين تنتهي سنوات حكمنا ونحن معزولات عن العالم والحياة. ذلك لن يفيد أحداً، ولن يفيد

قضيتنا في شيء. هامش حركتي أوسع من هامش حركتك أنت ورفيقاتك. لا يجوز لي التنازل عن هذا الهامش، عليّ الاستفادة منه. لكن يجب أن تكوني واثقة تماماً ودون أدنى شك، أنني مخلصة لقضيتنا. أرجو أن لا تسأليني عن مزيد من التفاصيل، فهذه سأحتفظ بها لنفسي، ليس لأني لا أثق بك، لكن أوصيك ألاّ تغرّك المظاهر، وثقي بي. هم يعتقدون أنهم كسبوني، هذا ما أريدهم أن يكونوا واثقين منه، وفي الحقيقة، فإني أنا التي تتلاعب بهم. أنا أذكى منهم بكثير.

صدّقتها، ولم أشك قط في جوهر موقفها.

كانت ناديا تعرف مفاتيح النفس البشرية، تصل إلى ما تريد وإلى القلوب آمرة ناهية كأميرة. هي اليسارية المؤمنة بالاشتراكية، أصبحت قطباً ونظمت عديداً من الإسرائيليّات، من سجينات وسجّانات، وجعلت المديرة رهن بنانها، بل جعلت كل من عرفها منهم رهن تلك البنان التي كانت مع الأسف مريضة. كانت أطراف أصابع نادية تزرقّ كثيراً خصوصاً في فصل الشتاء، وازداد وضعها مع الأيام سوءاً، فنقلت إلى المستشفي، هل من أحد يتوقع أن تعود نادية من المستشفى دون تقارير أطباء، يوصون فيها بضرورة إطلاق سراحها لأن مرضها خطير؟ من يعتقد ذلك فإنه لم يتعرّف على نادية بالتأكيد. عادت نادية من المستشفي تحمل التقرير التي تريد. وبناء على توصية الأطباء، أطلق سراحها بعد أن أمضت أكثر من ثلاث سنوات في السجن، فتركت خلفها فراغاً كبيراً. لقد غدا السجن كالبيت الذي هجره أطفاله.

تحررت نادية من السجن، ولم تتخلّ عن النضال لصالح فلسطين، فقد انضمت إلى صفوف الجبهة الديمقراطية في بيروت. لكنها

تحررت من السجن دون أن تتحرر من المرض. في العام ١٩٩٦ اتصلت بفاطمة برناوي في غزة. أبدت رغبة ملحة في رؤية أية واحدة منا قبل أن تموت بعد أن بتروا أصابع أطرافها العشرين. لكنها توفيت قبل أن تصلها أيٌّ منا. نادية كانت ظاهرة، تنغرس عميقاً في النفس، وتلوّن الأزمنة والأمكنة بألوانها وأنغامها.

هولندا بعد باريس

مع بداية العام ١٩٧٢ دخلت إلى السجن فتاتان هولنديتان بتهمة حمل رسائل لأحد فصائل منظمة التحرير! قلنا جميل. هولندا تأتي إلينا بعد باريس. الفتاتان هما: باولا، طالبة جامعية تدرس الفلسفة، وماركوت، تدرس علم الاجتماع.

في بلدهما هولندا، يتعاطف الناس ودولتهم مع إسرائيل تعاطفاً كلياً. لكن بحثاً حول قضية الشرق الأوسط قام به أحد فصول الجامعة، سيصبح عاملاً أساسياً في اختراق هذا التعاطف، وسيؤثر بالذات على حياة ضيفتينا، ذلك أن فريق البحث انقسم في محصلته إلى رؤيتين متناقضتين: فريق استمرّ في الإخلاص للرؤية السائدة والداعمة للدولة الإسرائيليّة، وفريق نسف تلك الرؤية لأنه اكتشف الحقيقة المرّة، فأعلن وقوفه إلى جانب الحق الفلسطيني، وساهم في إنشاء جمعية الصداقة الهولندية الفلسطينية، التي انضمت إليها ماركوت وباولا.

نشأت بيننا صداقة أغنت الطرفين. ما أن تفتح الأبواب بعد الغداء، حتى تسرعا إلى القسم عندنا، إلى أن تقفل الأبواب عند الساعة السادسة مساء، فتثقل حركتهما وتتباطأ.

قبل إطلاق سراحهما بيوم، قدمت لنا باولا دفتراً كتبت في كل يوم من أيام سجنها حباً وشعراً وحِكَماً وقصصاً ذات دلالات ومعان إنسانية وثورية. سمّت مذكراتها أو لنقل رسائلها لنا "ثورة" بالأحرف العربية. وللتمويه على المراقبة، حولت كلمة "ثورة" إلى شكل وردة تخبئ بين بتلاتها الأحرف العربية. لن أنسى أبداً ذلك الوداع المؤثر لحظة خروجهما من السجن:

لم يكن قد جهز الإفطار بعد، فما زال الطعام ينقل من القسم (أ) وإذا بباولا وماركوت قد غافلتا السجانة وطارتا إلينا والسجانات يجرين خلفهما، كان الباب الفاصل بين المطبخ وغرفة الطعام ما زال مقفلاً، أخذتا تهزانه بعنف، وباولا تكرر:

1 will not leave you to continue to be in the jail.

كانت السجانات يسحبنهما بالقوة. في تلك اللحظة الحرجة، جاءت رسمية كسهم طائر وأعطتهما قبعتين منسوجتين بالصوف وبألوان العلم الفلسطيني. كان الجو شتائياً وبارداً وبدت الهدية كأنها نزلت من السماء. سحبتهما السجانة وهما تلوحان بأيديهما بألوان العلم الفلسطيني.

ومن الجو كذلك

"الجميع إلى القسم، الجميع إلى القسم، بسرعة بسرعة". كانت السجانات يترجمن أوامرهن الاستثنائية بحركات أيديهن وتنقلهن السريع. جادلنا أنه ليس وقت الدخول إلى القسم، لكن الأوامر حازمة، ثم إلى الغرف التي أقفلوها خلفنا مباشرة.

لا يحتاج الأمر إلى كثير من الذكاء، حتى نستنتج أن عملية فدائية تدور في مكان ما وتطالب بالإفراج عنا. أضاء الأمل قلوبنا، وشعّ في ملامحنا، وتبادلنا الابتسامات ذات الدلالات. خَلَق الحَدَث حيوية كانت غافية. نبشنا عما لدينا من وسائل لمعرفة ما يجري في الخارج، لكن طوق حذرهم لفنا بإحكام. لم يخرجونا إلى العمل ولم يفتحوا لنا مذياعاً.

بعد عودة البنات اليهوديات من العمل، سمعنا منهن الكثير من الشتم والتهديد. لكن نادية بريدلي، استطاعت أن توصلنا الخبر: "الفدائيون هبطوا بطائرة في مطار اللد وهم يطالبون بالإفراج عنّا". حلّق السجن وتحول إلى طائرة تمخر عباب السماء. أصبحت لحظة الحرية في قبضة اليد. "كيف سمحتِ يا عائشة لليأس بأن يتسلل إلى نفسك!".

انتهت العملية. فتحوا الأبواب. انطلق صوت الراديو عالياً. أسرعوا إلى فتح التلفاز: صور الطائرة تربض على أرض المطار، اقتحامهم للطائرة وسيطرتهم عليها وإخلاء الركاب. عرضوا جثث الشهداء وفتاة جريحة مشاركة في اختطاف الطائرة رفضت التحدث إليهم بعنفوان أحاطها بهالة من الكبرياء، لها عيون سوداء مشعة بطاقة تحدٍّ تصيب العمق، خلدت اللحظة في وعيي كأيقونة. كان موقفها نقيضاً لانتصارهم!

في نشرة ثانية، عرضوا مقابلة مع فتاة ثانية مشاركة في العملية. تفاجأنا أن المقابلة جرت في قسم النظارة في السجن الذي نحن فيه! شكّلت المقابلة خيبة لنا. وبدلاً من إطلاق أصواتنا تنشد لإسماع القادمة الجديدة لشد أزرها ورفع معنوياتها، طأطأنا رؤوسنا وانسحبنا بصمت وتخلينا عن دعم إنسانة بائسة وضعيفة حدّ الرثاء! لم نسائل أنفسنا ما إذا كان واجبنا هو إسعافها في لحظة ضعفها بصوتنا وأناشيدنا! ولم نسائل بعد ذلك أنفسنا قط؛ لماذا كان

استسلامنا نحن للموقف دون أن نحاول التغيير في المعادلة النفسية لمناضلة كانت قبل ساعات تحمل روحها على كفها فداء لحريتنا؟ يا للجحود والقسوة! كان وعينا أضيق من إدراك ذلك، فساد غضبنا. طردنا الرحمة والتفهم والغفران. أقفلنا الكتاب ولم نفتح صفحة جديدة قد تنشل من لحظة ضعف. كنا شباباً وطاقة غضبنا كبيرة. أما الحكمة، فتليق بالشيوخ، والمشوار إلى ذلك كان ما زال بعيداً.

الجريحة، تريز هلسة

انتظرت الجريحة وعيونها المشعة ذات الموقف الذي انتصر رغم الدماء. قلت: ستضيء ظلام السجن. جاءت جسداً ضعيفاً من شدة النزف، لُفّت ذراعها بالكامل بلفافات بيضاء. وضعوها في القسم (أ) ومنعونا من الاقتراب. حين أتيحت لي فرصة رؤيتها بشكل خاطف، كان همي أن أبحث عن ذلك السحر وتلك القوة في نظرة العيون السود! لمحة سريعة لم تزد عن نصف دقيقة لم أرَ فيها الجريحة، بل إرادة شعب يأبى أن يموت. نصف دقيقة عادلت زمناً. طلبنا إحضارها إلى القسم عندنا، فهي جريحة وبحاجة إلى الرعاية، لكنهم رفضوا، فتريز هي ابنة عكا، وفي مثل هذه المواقف يتذكرون أنها مواطنة دولتهم، ويجب أن تبقى مع السجينات الإسرائيليّات! حكموها ٢٢٠ سنة وبقيت في القسم (أ) لمدة تقارب السنتين، وتعرّضت لاعتداءات من قبل السجينات الإسرائيليّات. رفعت قضية حتى سمح لها بالانتقال إلى القسم (ب).

تريز أردنية كما هي فلسطينية، والدها إسحق هلسة، ترك الكرك في شرقي النهر، العام ١٩٣٦، واتجه نحو فلسطين. عمل وتزوج من مدينة عكا واستقرّ هناك. حين تشرد أهل فلسطين، العام ١٩٤٨، بقي بالقرب من هدير البحر. وهناك، رأت الطفلة تريز نور الحياة، العام ١٩٥٥.

نشأت تريز في بيت عروبيّ ينتمي إلى قضايا أمته ويرى في جمال عبد الناصر أمل التخلص مما عانوه من قمع واضطهاد قوميّ. حين أصبحت في المرحلة الثانوية، تطوعت للعمل أثناء العطلة الصيفية في مستشفى الناصرة. خبرت مهنة التمريض فأحبتها. عرفت أن هذه المهنة ستكون خيارها، فقرّرت الاستمرار فيها.

في المستشفى، التقت مع الممرضة "هبات" وأصبحتا صديقتين، وتعرّفت من خلالها على العمل الفدائي، فوجدت ضالتها وقررت أن تصبح فدائية لتساهم في تحرير وطنها فلسطين. اتفقت الصديقتان على الوصول إلى قواعد الفدائيين في لبنان، يتدربن هناك ويعدن مقاتلات.

تضحك تريز حين تتذكر لهفتها واستعجالها الوصول إلى قواعد الفدائيين للتدرب والعودة سريعاً، خشية أن تتحرّر فلسطين دون مشاركتها هي!

سجينات اجتماعيات

- مجموعة من ثلاث نساء ترافقهن حنة شموئيلي التي قالت: "هذه وجبة من مومساتكم". صدمنا، إذ كنا نعتقد حتى حينه، أن هذه الظاهرة غير موجودة في مجتمعنا، واحترنا كيف علينا أن نتصرّف حيالهن. كانت المجموعة تتكون من: (ح)، امرأة ربما في الخمسين من عمرها، وهي المسؤولة أو المشغلة للفتاتين؛ (ن)، شابة صغيرة ربما لم تكمل الخامسة عشرة من عمرها؛ (ف)، شابة ربما تقترب من الخامسة والعشرين.

قالت (ح) وهي تحدثنا دون أن تنظر إلى وجوهنا: "أنا مستعدة أن أحضر السكين كي تذبحنني بها، لن أعترض على أي حكم ستصدرنه، فهذا من حقكن. لكن أرجوكن، لا تسألنني، فأنا أفضل الموت قبل أن أنطق بشيء". فأسقط في أيدينا.

(ف)، كان من الواضح أنها متمرّسة ولها باع طويل في العالم السفلي. وجدت زميلاتها في المهنة في القسم (أ)، حملت

صرّتها مباشرة وذهبت عندهن دون أن تلاقي أي اعتراض من قبل السجانات أو إدارة السجن. هناك، مارست قيادتها عليهن. لم تمكث شهراً وأطلق سراحها.

(ن) كانت فتاة بائسة ومزعجة في الوقت ذاته. لم تختلط بأحد. لم نرها تتحدث قط حتى ظنناها بكماء لولا الوتوتات مع (ح). ربما كانت ابنة أو قريبة لها! لكننا لم نحاول معرفة ذلك. (ن) لم تكن جميلة وتتعمد أن تمزق القميص أو الفستان لتظهر بعضاً من جسدها. حريصة أن تبقي منظرها مثيراً للتقزّز. لم نرَ وجهها يوماً نظيفاً، يلطخ "خناها" شفتها العليا فتلحسه أو تنظفه بأطراف أكمامها. تبصق على الأرض كيفما تحركت. تنظر بطرف عينها إلينا شزراً، تزعجنا بمشيتها وهي تشحط أقدامها على الأرض.

كانت عفيفة بنورة أكثرنا ضيقاً منها، وكثيراً ما صرخت عليها أن ترفع أقدامها وتتوقف عن البصق في كل مكان. لكن (ن) كانت ترشقها بنظرة ازدراء وتستمر في شحط أقدامها. تحدثنا مع (ح) حول (ن) كونها الوحيدة التي يمكن أن تؤثر عليها، وربما تعطينا مفاتيح تساعدنا على فهم هذه الشابة التعيسة ومساعدتها. بكت (ح) وقالت إنها تفضل أن يقصّ لسانها قبل أن تقول عنها كلمة واحدة!

استمر حجز (ح) و(ن) في القسم عندنا. لم تحاولا أبداً الاتصال أو التحدث مع السجينات اليهوديات في القسم (أ). أمضين ثلاثة أشهر ثم أفرج عنهن. بعد ثلاثة أشهر أخرى، عدن إلى السجن ثانية.

- (ز): امرأة يافعة يمكن وصفها بأنها ضخمة. دخلت القسم تحمل بكجتها باشة الوجه، كأنها عائدة إلى بيتها الحميم، أو كأنها تعرفنا تمام المعرفة. كانت في الخامسة والعشرين من

عمرها، محكومة لمدة عام لأسباب اجتماعية. الابتسامة لا تفارقها أبداً. مندفعة للحياة وسعيدة كأنّ العالم ملك يمينها! سردت (ز) قصتها: كنت في السادسة عشرة من عمري حين زوّجني أهلي من رجل عجوز وبخيل. خلال سبع سنوات، أصبحت أمّا لأربع بنات. في يوم ما، جاء شاب من النَوَر يصلّح بوابير الكاز. حملت بابور الكاز بهدف إصلاحه. وقعت عيناي على ساعده المبروم فسحرني. التقت عيوننا وحدثت الصاعقة، انبثق شيء في داخلي لا سيطرة لي عليه، تسمّرت في مكاني مسحورة وكذلك هو. تجمّد الزمن ربما لساعات وربما للحظات. نهض وغمزني فلحقت به دون إرادة مني. نسيت بناتي وبيتي حتى إني تركت الباب مشرعاً. هِمْتُ معه. كنت مشدودة بمغناطيس. عشنا معاً. ننام أينما يمسي علينا المساء؛ بين الكروم، في البساتين، في الجبال والمغر. نأكل ما يتيسر ونفرح به، لا همّ لنا، لا نريد شيئاً إلا أن نكون معاً في تلك الحياة البسيطة. كنا عصفورين وكان الجو صيفاً. عندما حل الشتاء، كان لا بد من استئجار غرفة. لم نكن نحتاج أكثر من ذلك، يخرج هو للعمل ليحضر لنا خبزنا وأجلس أنا أنتظره. لا نريد أكثر من ذلك؟ الناس لا يحتملون مثل هذه السعادة، فألقي القبض علينا وحكم على كل منا سنة. هو في سجن نابلس، وها أنا عندكن. أنا مع الفدائيات! هل أنتظر حظاً أجمل من هذا؟

كانت طلقة اللسان، سليمة الجملة والفكرة، رغم أنها لم تدخل مدرسة. تحدثت والسعادة تشعّ منها وكثيراً ما كررت: الحياة معه حلم وسعادة، ولقائي معكن كنز حياتي.

سألناها: وماذا عن بناتك؟

- سيعشن حياتهن!

فكرتْ قليلاً ثم استدركت: أنتن! تستطعن مساعدتهن عن طريق إدخالهن في مؤسسة داخلية لإنقاذهن من ذلك العجوز النتن.

- ألا تودين العودة إلى بيتك وبناتك؟
- لا، لن أعود. لقد عرفت معنى الحرية. سأعمل وأعيش، فأرض الله واسعة.
- ألا تخشين أن يتخلّى عنك حبيبك؟
- حتى لو تخلى عني، مع أني واثقة أنه لن يفعل ذلك أبداً، أستطيع أن أعمل وأعتمد على نفسي.
- لكنك لا تحملين شهادة أو مهنة.
- لدي إرادتي، وأستطيع أن أعمل في الأرض والمصانع إلى أن أتعلم. سأتعلم.
- ألا تخشين من ردّ فعل أهلك؟
- العالم واسع.
- لن تستطيعي الزواج منه ما دمت على ذمة رجل آخر!
- سنهرب من جديد.
- ألا تخافين الله؟
- لا شيء بيدي. إنها إرادة الله.

بدأنا نعلّمها القراءة والكتابة. وبسرعة مذهلة تعلمتها. كانت تلتهم المعرفة التهاماً. فربما لا تتاح لها فرصة مثل هذه، كما كانت تقول. ستكون فخورة دائماً أن الفدائيات علمنها، وكانت تعتبّر القراءة والكتابة حرية جديدة تكتسبها. كانت تسأل وتناقش وتبدي آراء وتعارض ما لا تقتنع به، تعرف ما تريد ولا تتردّد في السير نحوه مباشرة، عفيفة النفس لماّحة وسعيدة تعدي من حولها بسعادتها.

في السجن طفلة!

- (س): دخلت تحمل طفلة في حضنها بينما التعاسة تغمرها، ثم عرفنا أن عالمها انهار تماماً، وأنها لا تمتلك بصيصاً من الأمل أو من الطاقة لاستئناف الحياة. فتاة جميلة وحيية. اشتهرت قصة حبها في القرية. تقدم الحبيب لخطبتها فرفضه الأهل لأن عادات القرية تفرض رفض الطلب صوناً لسمعة ابنتهم. لم ييأس الحبيب، وبقي يتقدّم من جديد رغم الرفض المتكرر. قطع الأهل الطريق على الحبيب وزوّجوها من ابن عمها. أعلن الحبيب رد فعله على هذا الإجراء بأنه لن يتخلى عن حبيبته وسوف يصلها ولو كانت خلف سبعة أبواب.

نجح الحبيب في ترتيب لقاء مع الحبيبة في رام الله لتراهما العيون المبثوثة في كل مكان. جنّ الأهل، فهذا الوقح يتعدى على شرفهم، وهي تخون الأمانة. لكنها ترفض هذا الاتهام، فلم يحصل بينهما شيء.

- عليك إثبات صحة ذلك.
- أنا على استعداد.
- إنه يعتدي على حرمتنا، ويجبّ أن نعلمه درساً، وعليك مساعدتنا.

سقط قلبها:

- كيف؟
- تجرّينه إلى البيت، ونحن نتصرف.
- نسألها: لماذا قمت باستدراجه، كان بإمكانك الرفض.
- خشيت من استمرار اتّهامي، ولا شيء أصعب من الاتهام بالشرف.
- لكن ما حصل أصعب.

كانت أضعف من أن ترفض. وكان يوم الشؤم. قُتِل الحبيب وبدأت عداوات في القرية لا يعرف أحد كيف ستنتهي. ألقت الشرطة عليها وعلى الزوج والأب والإخوة والعمّ، وصدرت الأحكام المختلفة في حقهم. قتل الحبيب، وتخلى عنها الزوج وتدمرت سمعتها، ولم تعد مؤهلة لمواجهة أية حياة غير تلك التي دمرت.

(س) لم تكن تعرف القراءة والكتابة، فأصبحت من طالبات مدرسة الأمية، لكن الإنسانة المدمرة في داخلها، لم تكن تساعدها في شيء، بل تبقيها كئيبة رغم وجود الطفلة معها. لكن الطفلة أضحت مركز حبنا، وقد أضفت حياة جديدة على المكان.

- (ع): ترملت دون أن تنجب أطفالاً. في إحدى ليالي الشتاء الباردة، زارها أخو المرحوم ليطمئن على أرملة أخيه. كانت في حاجة لمن يؤانسها ويخفف من وحدتها. بكت فاحتضنها. سرى دفؤه في روحها وجسدها ووقع المحظور.

كانت ليلة يتيمة وثّقها القدر المحتوم طفلة ألقيت في بئر مهجور. انتقمت الموءودة حين نشرت رائحتها في الحي.

قبلت (ع) بفضيحتها، وتسترت على الفاعل، ورأت في السجن مخرجاً. (ع) لا تعرف القراءة والكتابة، وهي على أبواب الأربعين. خضعت مع الأخريات لبرنامج مكثف لتعلم القراءة والكتابة، إضافة إلى برنامج ثقافيّ تُقرأ فيه كتب، وتناقش مواضيع وقصص ذات مغزى. (ع) شخصية إشكالية، حياتها لا تستقيم دون أن تثير الفتن بين من يحيطها من الاجتماعيات، سعادتها تزهر من خلال ابتسامة خبيثة حين تنتج مشكلة ما، في البداية عملنا على إطفاء حرائقها للنعم بالهدوء! لكن ذلك كان يزيد من سعادتها، وكان لا بد من تحذيرها بأن الجميع سيتركها وحيدة إن لم ترتدع. فالتزمت على مضض.

- أم روحي: ربما في الخمسين من عمرها. اعتقلت على أثر اختفاء ابن زوجها الذي كان في السابعة عشرة من عمره لأكثر من أسبوع. ثمّ عثر عليه في بئر ميتاً. أوقفوها إلى أن تتضح الأمور. بكت كثيراً على أحكامنا العالية، وتعاملت معنا كما لو كنّا بنات لها.

أعمال وزوّار

في المطبخ

كانت عايدة سعد تقف إلى المجلى في المطبخ الرئيس في القسم (أ) تغسل صحون الإفطار. فجأة نزلت على رأسها ضربات سريعة كادت تسقطها أرضاً. حين أدارت رأسها رأت سجانة تفتح الباب لشوشانة (من سجيناتهم) وتقفله خلفها. جنّ جنون عائدة، وقد فهمت أن السجانة تقف خلف هذا الاعتداء. تركت العمل وعادت إلى القسم تغلي غضباً. وزعنا الخبر على الجميع، وطلبنا التوقف عن العمل في الحال، وأعلنّا الإضراب عن العمل، إلى أن تتم محاسبة السجانة.

كان الاعتداء على عائدة إثر عملية ميونخ، فالرغبة والاستعداد للاعتداء علينا تصل أقصى منسوب لها حين تجري عملية ما، لكن تنبهنا الدائم، وعدم السماح بتواجد واحدة منفردة بينهن، كان يحول دون تنفيذ الاعتداءات. في ذلك اليوم، لم يكن بمستطاع شوشانة أن تضرب عائدة دون مساعدة الشرطية. أقفلوا الغرف

علينا وقالوا: حسناً، إذا كنتن لا تعملن في المطبخ فلن تأكلن إلا ساندويشات. قلنا: لا بأس، نأكل الساندويشات، ولن نخرج إلى العمل قبل محاسبة السجانة قبل السجينة، وإذا لم تحاسبوها فسنحاسبها نحن. أبعدت السجانة عن جميع الأقسام ولم يعد يسمح لها بالاقتراب منا (خوفاً عليها). طلبوا عودتنا إلى العمل في المطبخ كشرط لتقديم وجبة عادية لنا. قلنا: نحن نحدد من تعمل منا في المطبخ الرئيس. قالوا: حسناً. أبلغناهم أن رسمية وعائشة هن اللواتي سيعملن في المطبخ. لم يكن هذا خياراً مقبولاً من قبل إدارة السجن. لكن أمام موقفنا الموحد، قبلوا الانحناء قليلاً.

العمل في المطبخ بالنسبة لي كان تحدياً حقيقياً. تهيبي من العمل في المطبخ تاريخي، إذ لم يسبق أن كانت لي أية علاقة به. أمي وأخواتي ومن ثم زوجة أخي رفضن أن أساهم في أي عمل من أعمال المطبخ، لدرجة أني كنت أمنّي النفس بأن أوظف في مدينة بعيدة كالكرك مثلاً أو معان، حتى أستطيع الاستقلال والاعتماد على نفسي في الطبخ وأعمال البيت، لكني للأسف، توظفت في بلدة عين يبرود التي لا تبعد عن قريتنا أكثر من ٥ كم.

تشجعت للعمل في المطبخ، باعتبار أنها الفرصة المشتهاة، لكن الطبخ لن يكون عملي. ذلك أن سجينة إسرائيليّة هي التي ستكون مسؤولة عن الطبخ. تلك السجينة كانت متهمة بالقتل وعُرفت بكُرهها لنا.

لكن وجود نظام لتقسيم العمل يريحنا من التعامل معها. اقتضى تقسيم العمل أن أعدّ الإفطار مع سجينات أخريات، وأن أساهم في الجلي وقت الغداء.

كنت أفطر يوماً وحدي، إذ كان عمل رسمية مساءً وأنا صباحاً. هجمت عليّ لتضربني. تفاجأت بأنها خسرت في ذلك الهجوم.

رفعتْ شكوى للإدارة بأني ضربتها وبأني آكل بيضتينَ كل صباح. جاء الأمر بأن يمنع على أية عاملة في المطبخ أن تأكل أكثر من بيضة في اليوم. هذا الأمر كان يعنينا دون بناتهم، إذ كانت الواحدة منهن تأكل أكثر من ٣ بيضات على وجبة الإفطار، فاعتبرتُ الأمر لا يعنيني كذلك، وأبقيت على نظامي في الأكل نفسه؛ أسخن بيضة (برشت) قبل البدء في العمل صباحاً كما عودتني أمي قبل خروجي إلى المدرسة، وبعد الانتهاء من تقديم وجبة الإفطار في القسمين وتنظيف المطبخ وأدواته، أعدّ إفطاري وقد أقلي بيضة ثانية.

سرقة بيضة!

حاولت السجانة الطباخة أن تتدخل في عملي كنوع من الاستفزاز، فأوقفتها عند حدها، فرفعت الشكوى من جديد. تم استدعائي لأمثل أمام المديرة بتهمة سرقة بيضة، لتقرر ضرورة إنهاء عملي في المطبخ. ما أذهلني ليس فقط الحجة السخيفة لنقلي من المطبخ، ولكن محاضرتها عن العيب الذي أرتكبتُه لأني أقوم بالسرقة! لم أستطع استيعاب المهزلة، فتحت عيني استغراباً وتساءلت: أنت تتحدثين عن السرقة؟ وماذا! عن بيضة آكلها قبل البدء في العمل؟ إذن عليك إعداد قائمة تُهَم بالسرقة التي تقوم بها دولتك، ستجدين أن القائمة تبدأ ولا تنتهيً، فدولتك سرقت وطننا الكامل بأرضة وشجره وبيوته ومدنه وقراه ومياهه وبحره! وهي لا تزال تسرق وتسرق وتسرق حتى أعمارنا ومستقبلنا!

احتدّت كعادتها، وأمرت بحبسي في الغرفة. كتبتُ رسالة احتجاج على ما سميته مهزلة تهمة سرقة بيضة. ولم أوفر تذكيرها بدولتها القائمة على سرقة وطننا بكل تفاصيله. سلمت الرسالة إلى حنا شموئيلي، وكانت المترجمة الرسمية في السجن، إضافة إلى عملها كسجانة، ولا بد أن الرسالة محفوظة في ملفي.

إلى المخيطة:

نقلت للعمل في المخيطة: نُعطى متراً مربعاً من القماش، مرسوماً عليه بالقطبة المصلبة، ونقوم نحن بتطريزها. كنا نتجمع في دائرة، وكثيراً ما نستذكر مفردات من اللغة الإنجليزية فنقوم باستخدامها في تركيب جمل تضحكنا كثيراً، لكن ضحكنا يزعجهم! مع ذلك سئمت ذلك العمل، وقررت التمرد على نظام السجن. رفضت النهوض في الصباح. فأقفلوا عليّ باب الغرفة ٢٤ ساعة متواصلة، وهو ما أردته فعلاً. كنت في حاجة لإجازة انفرد فيها بنفسي.

في حوالي الساعة العاشرة، فُتح باب الغرفة ودخلت المديرة ومعها ضيفة في الخمسين من عمرها تقريباً. عرّفتها المديرة بحكمي وتهَمي وباعتباري فلسطينية مثقفة. سألتني الضيفة: ألا تشعرين بالندم؟ قلت: أناضل من أجل حرية وطني وشعبي، ما يدعو للاعتزاز لا للندم.

غضبت. قالت وهي تنفض رأسها وتهز يديها بعصبية: ما الذي تريدونه؟ لقد تجوّلتُ في أسواق رام الله، فرأيتُ فيها كلّ شيء. فيها السكر والرز والخبز والخضرة والفواكه! فماذا تريدون أكثر؟

شعرتُ برغبة في ركل بطن المرأة التي تحصر حاجتنا في الحياة بتوفير بعض المواد الغذائية. سألتها: هل لي أن أعرف من أي بلد أنت؟ قالت: من بريطانيا، وهي (عائدة) جديدة إلى (إسرائيل)!!!

أي جنون وأية وقاحة؟!! سألتها كما لو أصفعها: ولماذا تتركين بريطانيا؟ ألا يتوفر هناك سكر وأرز وطحين وفواكه وخضار؟

استشاط غضبها وتوجهت إلى "المديرة" تحدثها بعصبية، معتبرة أن ذلك دليل على تقصيرها، فكيف لم تنجح بعد في تحويلي إلى صهيونية رغم وجودي عندها على مدى أكثر من سنتين؟

قرأت "المديرة" ما يدور في رأسي، غمزتني كما لو أننا نفهم بعضنا أكثر، وسحبت ضيفتها من تحت إبطها وخرجت بها وهي لا تزال تنظر خلفها خوفاً من انقضاضي على زائرتها.

من السماء

لم يكن مضى على انضمام ثلاثتنا (مريم ورسلمية وأنا) للعمل في المخيطة إلا بضعة أسابيع أو أقل حين استدعينا إلى الإدارة. في مكتب المديرة، جلست فتاة مبتسمة ومرحبة كما لو أنها تود احتضاننا. رجل عجوز يلبس نظارات سميكة كان قبالتها. أشارت المديرة لنا بيدها كي نجلس فجلسنا. بادرت المديرة: جاءكنّ حظ من السماء. كنت أفكر دائماً بعمل مناسب لكنّ، إذ لا تليق بكنّ الأعمال السخيفة التي تقوم بها بناتنا، وها أنا أجد ضالتي. ثمّ أشارت بيدها إلى الضيفة كي تشرح ما تتحدث عنه.

الفتاة التي ما انفكت تبتسم لنا عرّفت بنفسها: عفاف الترك، معلمة في مدرسة المكفوفين في الناصرة. يعاني الطلاب من قلة الكتب بلغة "برايل". زارنا د. بيرجمان -مشيرة بيدها إلى الرجل العجوز- وأبدى استعداداً للمساعدة وتوفير الكتب، ولأنه لا يوجد في البلاد من يطبع الكتب العربية بلغة برايل، فكرنا باللجوء إلى السجن. وها هي المديرة ترحب باقتراحنا، وأنا على استعداد لتدريبكنّ.

بدا الترحيب بالاقتراح واضحاً على وجوهنا، كأنه من السماء بالفعل، وخلال أيام، أحضروا الطابعات.

تدربنا وبدأنا طباعة كتاب قواعد اللغة العربية للصف السادس الابتدائي. أحببنا عفاف وأصبحنا ننتظر زيارتها الأسبوعية كحدث

يضيء عالمنا، ولم نتنبه أن العمل الجديد يبقينا في القسم وحدنا، ما يعني عزلنا عن باقي البنات تحت مسمى فرصة من السماء!

لورد بريطاني

كان الجو بارداً وماطراً. كنت ورسمية ومريم في عمل (برايل) معاً. دخل مدير السجون "نير" يرافقه شخص تبدو عليه الأهمية. تم التعريف على ثلاثتنا بالتهم والأحكام، وعرّف باللورد البريطاني الذي لم أحفظ اسمه. خاطبنا اللورد: أرى أن إسرائيل رحيمة بكم، إذ لا تحكم على الذين يقومون بعمليات (تخريبية) ضد جيشها ومواطنيها بالإعدام! (الله يجيبك يا طولة الروح، هذا الاستعماري يلاحقنا ويستكثر علينا حتى الحياة في السجون. يريدنا أن نكون خارج الحياة بالمطلق!) قلنا: شكراً لك. ولا بد من توجيه الشكر لدولتكم العظمى التي تبرّعت بوطننا، وكانت وراء تشريد شعبنا وإقامة دولة إسرائيل الرحيمة! ولولا ذلك لما اكتشفنا هذه الرحمة أبداً! ألا ترى أن ثأرنا يجب أن يكون منكم أولاً؟

- لو كنتم عندي لعرفت كيف أتصرّف معكم مثلما أعرف كيف أتصرف مع أعضاء الجيش الجمهوري الأيرلندي.
- لا غرابة أن يتحدث بهذا المنطق رجل من أكبر دولة استعمارية.

أدرك "نير" الورطة التي دخل فيها ضيفه. قال، ربما للتخفيف من حدة الموقف: إنهن ذكيات ويعرفن كيف يجادلن. وأسرع في الخروج بعد أن تأبط ذراع ضيفه كما لو كان يسحبه.

بعد فترة، استدعتنا المديرة. كانت هناك عفاف و د. بيرجمان الذي قال إنه جاء ليشكرنا على ما أنجزناه، وقبل أن نخرج، عرض خدماته كمحام لتبني أية قضية لأية واحدة منا. كنت علمت من أهلي أنهم أرادوا إعادة بناء جزء من البيت، فحضر الجيش ومنعهم. طرحت عليه القضية. أبدى سروراً واستعداداً لمتابعتها، وحين سألته عن أتعابه، أوضح أنه متقاعد ولا يجوز له أن يتقاضى أتعاباً. لكنه سيكون مسروراً لو استطاع أن يساعد أيّاً منا.

كان ذلك في خريف العام ١٩٧٢.

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

أخطر ما واجهنا

غيروا تعاملهم

عانت لطفية من أوجاع في عمودها الفقريّ، وكانت تمتد إلى ساقها وأثرت على قدرتها على الحركة. كانوا يزودونها بالحبوب المخدّرة، وكلما ازدادت الأوجاع، يزيدون كمية الحبوب. طفح الكيل معها، فأعلنت الإضراب عن الطعام. ها هي التجربة تتكرر معنا. نوضع أمام الأمر الواقع دون التشاور معنا كمجموعة. هل نتركها تخوض إضرابها وحدها، أم علينا الانضمام؟

بعد النقاش، نجح الخيار الثاني، على أن نبدأه في اليوم التالي، حيث ستكون زيارة لبعضنا من بنات القدس، ولا بد من إعلام الخارج ليقوموا بمساندتنا. أعلنا إضرابنا وانضمت السجينات الاجتماعيات للإضراب دون أن نسألهن. أعلنوا حالة الطوارئ ونقلونا إلى الزنازين من غير لطفية والبنات الاجتماعيات. وضعوا كل اثنتين في زنزانة واحدة وأهملونا، حتى التفقد الروتيني الذي تقوم به السجّانات المناوبات عادة، لم يقوموا به!

مرّ اليوم الأول فالثاني فالثالث. تكرّر الاستماع إلى القصص التي دارت جميعها عن الأكل! كل واحدة تذكّرت أطعمة أمها: ورق الدوالي، المحاشي، الصواني، المسخن، المفتول، وطبعاً الكرشات والفوارغ والملوخية بالدجاج وبالأرانب والطاجن بالطابون. لا شيء افترش سطح أدمغتنا غير الطعام، لدرجة أننا خجلنا من أنفسنا، فقررنا الكفّ عن حديث الطعام بل الكفّ عن الحديث كليا. لم يصمد القرار. ذكريات الأكل لها الصدر دون العالمين، حتى الخبز البارد الجاف جداً كنّا نتغزل به. صرخت واحدة منا: "شو الدعوة يا بنات؟ منشان الله ريّحن روسنا من هالحكي، لا عن أكل ولا عن غيره). صمتنا قليلاً، وإذا برايقة تقول: حدا بده فصم بطيخ؟ يا سلام عل البطيخة اللي قدامي مفلّقة وحمرا مثل الدم، بشرط تاكلوها مثل ما باكلها أنا، بخشمها ملات ثمي وبتقطر من لحيتي ومن أكواعي!

صرخت عفيفة: إذا مش قادرات تسكتن، خلينا من قصيرها نقول بنستكفي بالأيام اللي أضربناها. صمت الجميع. لم تحاول أيّ منا التعليق، ولو أردنا أن نبلغهم شيئاً، فإننا لا نرى أحداً منهم!

هل تعبنا فعلاً وبدأنا إعادة الحسابات والبحث عن مخارج؟ هل بدأنا نضعف أمام الجوع؟ لماذا صمت الجميع؟ ما الخطأ في أن نبحث عن مخارج؟ وكيف؟ هل يجوز التراجع قبل تحقيق الهدف؟ أي خزي وأي عار سيلحق بنا إن انهار إضرابنا في منتصف الطريق بلا معنى وبلا تحقيق هدف؟ لكنهم لا يأتون كي نطرح أسئلتنا عليهم، أو نستفسر عما حصل مع لطفية، وها هو يومنا الرابع في الإضراب. لم تعد لدينا طاقة للحديث. ساد الصمت في كل الزنازين. ماذا لو حدث لأيٍّ منا مكروه؟ لن نستطيع قرع أبواب من قضبان، وحتى لم نعد نملك طاقة للحديث فما بالنا بالصراخ!

هل يتخلّون عن مسؤولياتهم تجاهنا؟ أي عقول جهنمية يحملونها في رؤوسهم! في الإضراب الأول كانوا سيقتلوننا بإطعامنا بالقوة، أما اليوم، فيريدون قتلنا عن طريق إهمالنا؟

جاءت الضابطة مريم (الصفراء). سألنا عمّا حصل مع لطفية. أجابت: لا شأن لكن بلطفية. ماذا نستطيع أن نفعل احتجاجاً على هذا الإهمال واللامبالاة حتى وإن أردنا فعل ذلك، فهل نملك طاقة؟

في اليوم الخامس أعادونا إلى القسم. كانت لطفية قد عادت من المستشفى بعد أن عملوا لها الفحوصات والصور اللازمة وشخصوا وجود انزلاق في عمودها الفقري. وانتهى الإضراب، لكنهم واصلوا إقفال الأبواب علينا طوال اليوم، إلا من فورة مقدارها نصف ساعة.

دلال لمن تقع عينيه عليها تبدو له فتاة قوية وعنيفة، فهي سمراء البشرة ممتلئة الجسم، وكنا نعلّق أيضا بأنها مفتولة الساعد! عيناها سوداوان واسعتان، تثيران الرعب حين تغضب، وتشعان طفولة حين تبتسم. ضحكتها تنفجر كالرعد فتزلزل المكان. السجّانات والسجينات الإسرائيليّات يخفنها، ويكفي أن تجحظ عينيها حتى يتطاير منهما ما ينذر بالخطر. وصفتها الإدارة ذات مرة بأنها "القوة الرادعة". لكن دلال في الحقيقة طفلة تحتاج إلى حضن يمدّها بالأمان في مواجهة قلق غامض، وكنا لها ذلك الحضن. كانت تبتدع أشكالاً من لفت الانتباه؛ فجأة تبدأ عويلاً يقطع نياط القلب، فنسرع إليها فتشتكي من وجع في رأسها. تزعق كامرأة سمعت للتو خبر ترمّلها. نهرع إليها فتعلمنا أنها أفاقت من كابوس مرعب. وهكذا دواليك.

أخذت دلال تضحك منا حين نهرع إليها فتقول إنها تتعمد ذلك لنأتي لعندها. حرنا في أمرها، وسبّبَ زعيقها وعويلها لنا توتراً غير مسبوق. قررنا أن لا نستجيب، على أمل أن تيأس وتغير عاداتها المزعجة.

أخطر ما واجهناه

أثناء فورة نصف الساعة، ناحت دلال وزعقت، فتجاهلنا أمرها. عادت وصرخت، لكن واحدة منا لم تتحرك. صباح اليوم التالي وقبل خروجنا للفورة، صرخت على السجانة وطلبت مقابلة المديرة سريعاً. بعد عودتها بدقائق، تفاجأنا باستدعاء مريم التي فاجأتنا عند عودتها بأنها قدمت لمحكمة بحجة أنها هدّدت دلال بالقتل! ثم جاء الجنود وأخذوا مريم إلى الزنزانة!

عصف الجنون

أي جنون أن تبدأ واحدة منا بخلق الأكاذيب واللجوء إلى الإدارة لتتدخل بيننا! إنه جرثومة قاتلة، وخطر مدمّر يصيبنا في الصميم، عاصفة هوجاء تقتلعنا من الجذور، تهديد لأمننا الوجودي. أحاول التعبير عن وقع الخبر عليّ شخصياً، فلا أوفق. كيف لواحدة منا أن تبيعنا لأعدائنا وبالأكاذيب؟ أن نصبح مختَرَقين؟!

أثناء خروجنا للفورة، مرت كل واحدة منّا أمام غرفة دلال، وأسمعتها تهديداً ووعيداً. لم يخرجوها للفورة معنا. سيطر علينا الحدث المزلزل، وإذا السجانة تفتح لدلال البوابة في طريقها إلى الإدارة.

في لحظة واحدة، وبشكل غريزي اندفعنا جميعاً، وبيننا بعض السجينات الاجتماعيات (أم روحي مثلاً)، وقبل أن تخطو خارج

البوابة كنا ننهشها كفريسة، وتركناها تنزف جراحاً. نظرت إليها عن بعد، فهالني ما رأيت. كيف كانت بالأمس واحدة منا، وهي اليوم مرض يصيبنا؟ كانت مثل لبؤة جريحة. امتلأت نظراتها بالغضب والحقد والألم والذهول ولا أعلم أية مشاعر أخرى. ذهلتُ مما جرى. أبهذه السرعة ينهار المشترك بين البشر فيتحولون إلى أعداء؟ ما الذي جعلها تنقلب فجأة على نفسها وعلينا؟ وكيف اندفع الجميع في لحظة واحدة كما يندفع الهواء إلى منطقة فراغ؟ كان سلوكنا بدائياً وبهيمياً، خرج من منطقة قصية في النفس كأنها الأدغال. ألهذه الدرجة يتلاشى الوعي في لحظة، وتنكشف هشاشة الثقافة؟ هل بهيميتنا أعمق وأكثر جوهرية من إنسانيتنا، أم أنها آليات الدفاع عن الوجود حين يحيق به الخطر؟ تجمدتُ في مكاني خائفة مما ستأتي بِه الأيام في ظلّ هذا الانهيار لأمننا! نُقلت دلال إلى العيادة، وأخذنا الجنود إلى الزنازين. بعد يومين، خرج الجميع من الزنازين، إلا أنا.

إقصاء

صبيحة اليوم الثالث، حضرت الضابطة المسؤولة يرافقها جنديان. انفتح باب الزنزانة وتوجهوا بي نحو البوابة الخارجية للسجن. عصبوا عينيّ وقيدوا يديّ. أدركت أني أقع في مصيدة، فإلى أين سيأخذونني ويرمون بي وحدي؟ ما العمل؟ يجب أن أتصرّف بسرعة! افتعلت مشكلة، فهي الوسيلة الوحيدة المتاحة لإعلام من في السجن بالأمر. قلت بأعلى صوتي: إلى أين تأخذونني؟ لم أسمع منهم جواباً، ولم أكن أتوقع ذلك. صار صوتي صراخاً: "أريد الصليب الأحمر الآن، أريد المحامي الآن. يجب أن أعرف إلى أين تأخذونني؟ لن أتزحزح من هنا قبل حضور أحدهما".

أعرف أنهم لن يلبوا طلبي. لكني أناور. "سيسحبونني سحباً، وسأصرخ وسيصل صراخي إلى سجينة ما، يهودية أو عربية، تعمل

قريباً من المكان، وسينقل الخبر، وستأخذ رفيقاتي إجراءات تحول دون تركي وحدي لمصير مجهول". هذا ما حصل؛ إحدى السجينات اليهوديات انتبهت، فقلت في نفسي: "سينقل الخبر الآن لرفيقاتي". حين أصبحتُ في السيارة "الزنزانة"، وجدت رسمية ومريم هناك. تنفستُ الصعداء وهدأتْ هواجسي: لا بأس ما دمنا ثلاثاً.

حبّ المغامرة والرغبة في خوض المجهول، يطل برأسه من أعماق قصية في روحي ويفرح حتى في أقسى الظروف! "تحديات جديدة! تجارب جديدة! أهلاً بها"، لكن ما الذي سيحصل في السجن بعد أن ضربنا فيروس الخيانة!".

كان السادس من شهر كانون الأول للعام ١٩٧٢، وكان الجو شديد البرودة. تحرّكت الزنزانة، وساد صمت ثقيل. انسحبتُ إلى داخل نفسي. أعاني من إحساس بالذنب تجاه أهلي. لقد سببت لهم عذابات كثيرة وما زلت! فهل سيقربني هذا النقل منهم؟ تمنيت لو يأخذوننا إلى سجن رام الله أو على الأقل إلى سجن نابلس! سيخفف ذلك عنهم معاناة السفر. ثم نكون أقرب إلى أنفاس ناسنا وشعبنا. رحت أمنّي النفس بما ترغب: "ربما تتوفر في الظرف الجديد فرصة للهرب!". شعرت بأن الطريق طالت كثيراً وبدأ القلق يسكنني. خرجت التنهّدات، ثم انطلقت حناجرنا تنشد "موطني". لم يحاول أحد من المرافقين إسكاتنا. صوتنا ينبع من مكان قصيّ في النفس يتحدى القهر، والنشيد في تلك اللحظات، ماء للعطشى وطعام للجوعى.

توقفت القافلة وأنزلونا وفكّوا عن عيوننا، كنّا في سجن نابلس (حسناً، سنكون قريبات من أهلنا). أدخلونا زنزانة واسعة شبيهة بكهف، تقع يمين المدخل الرئيس، تبدو ممراً إجبارياً، ازدحمت جدرانها بأسماء كتبت بدماء أو بأقلام أو بأعقاب سجائر، إضافة إلى عبارات الصمود والأشواق والأشعار.

بالقرب من أنفاس شعبنا

قسم مهجور

لم يطل انتظارنا في تلك الزنزانة الشبيهة بالكهف. حضر عدد من الجنود تتقدمهم فتاة بلباس مدني، قصيرة وبدينة ذات تعابير حادة لكنها ممتلئة بالنشاط. قادتنا إلى الجانب الشرقي الشمالي من بناء السجن الكبير وسار جنود خلفنا. تقدمت الفتاة وفتحت بابا أفضى إلى ممر (طولياً) فعبرناه، ثم فتحت باباً من القضبان أفضى إلى ممر ضيق (عرضياً) فلفحتنا رائحة برودة مجبولة بالعتمة والهجر. فتحت باباً ثالثاً أقفلته خلفنا حال دخولنا ثم غابت والجنود عن المكان: غرفة واسعة في بناء قديم، ربما من زمن الانتداب البريطاني أو الحكم العثماني. السقف عالٍ جداً. في الجهة الشمالية طاقة مغطاة بشبك كثيف وقضبان حديدية، تمر من خلالها حزمة ضوء ضعيف، تجد طريقاً إلى مساحة مجاورة في السقف. تحت الطاقة مباشرة خزانة خشبية لها دفتان، ستساعدنا لاحقاً في الوصول إلى الطاقة التي سنسميها العلية. على أرض الغرفة ثلاث فرشات من القش، وفوقها ثلاث صُرَر في كل منها بطانيتان وبنطالان من صوف

خشن، وقميصان وبلوزة صوفية ذات ألوان كحلية غامقة. ضوء الغرفة شاحب وبعيد، يعطي إحساساً كما لو كنّا "في قعر الجب". لا دورة مياه! ماذا نفعل لقضاء الحاجة؟ نادينا على السجانة، فلم نسمع غير رجع صدى أصواتنا. لماذا الحياة بخيلة معنا؟ نفرح بقربنا من أنفاس شعبنا فنكافأ بكآبة المكان؟

صدح صوت مريم بأغنية فيروز. "وطني، يا جبل الغيم الأزرق، وطني يا زهر الندى والزنبق". هربت الكآبة وانطلقت حناجرنا تغني بأصوات عالية تريد زلزلة المكان وملأه. حمدنا الله على نعمة الصوت والغناء، لكن البرد قارس. تعاركنا حتى تصبب العرق من أجسادنا، فهاجمنا الجوع.

عادت الفتاة التي استقبلتنا وهي تقول بصوت عال: أكل، أكل، فهتفنا: مرحاً بالأكل. كان جندي يحمل سطلاً كبيراً، وضعه خلف باب القضبان. أُعْطِيت كل واحدة منا صحناً بلاستيكياً عميقاً وكأساً بلاستيكية. حملنا الصحون كأننا باب (إتقية). غَرَف الجندي من السطل وملأ الصحون بشوربة لم نميّز هويتها، إضافة إلى قطع خبز جافة. مددنا الكاسات البلاستيكية، فامتلأت بشاي بدا أسود. كنا جائعات، فالتهمنا الطعام كله، دون التدقيق في نوعيته.

لم تمض ربع ساعة من الزمن حتى فتحت الفتاة باب الغرفة، وأعلنتَ عن ربع ساعة فقط لاستخدام الحمامات وغسل الصحون، مؤكدة أن الباب لن يفتح مرة أخري إلا في السابعة من صباح الغد. مضت ربع الساعة وأقفل الباب علينا. سألنا: وإذا احتاجت إحدانا الذهاب إلى الحمام خلال الليل؟ قالت إنه ليس من شأنها! فسألناها؛ من شأن مَنْ حتى نسأل؟ تركتنا ثم عادت بعد ربع ساعة تحمل كيساً بلاستيكياً وقالت: يمكن استخدام هذا عند الضرورة!

ثم مضت. علّقت رسمية: تعلمنا الصوم عن الطعام من الفجر حتى المساء، ذلك حكم الله. أما حكم البشر فيتطلب الامتناع عن قضاء الحاجة! فماذا لو لم نفلح؟

بسيطة، نصرّها في كيس البلاستيك ونلقيها خارج الغرفة تستقبلهم في الصباح.

ضحكنا على الفكرة، وفتحت لخيالنا إنتاج أحداث هزلية: تخرج السجانة من غرفتها فتجد جسما غريباً، تصرخ وتعود مسرعة لطلب النجدة. تأتي قوات من الجيش وخبراء متفجرات، ويعلنون عن إحباطهم عملية تخريبية، يصل الخبر إلى الخارج، تتداول وكالات الأنباء خبر وجود قنبلة داخل سجن نابلس المركزي، قسم النساء. تسارع تنظيمات بإصدار بياناتها عن قواتها المقاتلة السرية التي زرعت قنبلة للجنود الصهاينة في سجن نابلس المركزي! وعلى أثر ذلك يستدعينا مدير السجن ويحكم بإبعادنا إلى سجن رام الله، أو سجن جنين. يجب أن يهاجم الفدائيون الدورية ويحررونا! جميل. وماذا بعد؟ نخشى أن نقتل! ليكن! أليس هذا أفضل مما نحن فيه؟ لا لا، خسارة، ما زلنا في عزّ شبابنا. نريد أن نخرج إلى الحياة ونعيشها.

كيف نتحايل على الواقع؟ بالخيال، باللعب، بالمصارعة، بالرياضة، بالغناء وبالجنون! نعم بالجنون. حسناً! سنحوّل المكان إلى معهد للغناء! جميل، جميل. مريم صاحبة المعهد وأستاذة الغناء، ورسمية وأنا الطالبات المتفردات المتميزات، لكن المشاغبات كذلك! رسمية تريد أن تحوّل المكان إلى معهد لتدريب الكاراتيه! مهلاً مهلاً أيتها الرفيقات، أنا وزيرة التربية والتعليم، وعلى كل واحدة أن تقدّم أوراقها لترخيص معهدها!

صباح اليوم التالي. حضر الأكل ونحن ما زلنا نياماً. نهضنا، فتح باب الغرفة لمدة نصف ساعة كي ننجز كل شيء بما في ذلك تنظيف الغرف. طلبنا كتباً. قالوا: ممنوع. جريدة؟ ممنوع. دفاتر وأقلاماً؟ ممنوع. شطرنج؟ ممنوع! نستمع لنشرة أخبار؟ ممنوع! ساعة فورة نرى الشمس فيها؟ ممنوع، فأنتن هنا في قصاص.

- إلى متى يستمر القصاص؟
- لمدة شهر، لكن المدير قد ينظر في هذه الفترة ويخفضها إن تصرّفتن بشكل جيد.

عُدْنا إلى أسطوانتهم المشروخة حول السلوك الجيد!

لا بد أن نتدبر

رفعنا مريم فوق الخزانة لتصل إلى (العلية)، كانت فَرِحة كالأطفال وبثّت لنا تفاصيل مشاهداتها: الرياح شديدة تكاد تقتَلع الأشجار، الشوارع خالية تماماً، لا، هذه سيارة تسير الهوينا. المطر (كبّ من الرب). سكتت قليلاً ثم قالت: هل تعرفن! تتراقص قطرات المطر على الشوارع كأنها مخلوقات صغيرة تعارك خيوطاً نازلة من السماء. صرخنا وصفقنا وكبّرنا وهللنا لهذا الوصف الجميل. لكنها صمتت ودخلت في دهليز من الكآبة، فالناس يهربون من البرد إلى بيوتهم حيث الدفء وكانون النار والشاي الساخن والكاكاو والقطّين والكستناء. فأين نارنا؟

"لماذا الكآبة يا مريم؟ نارنا نحن في أعماقنا". يجب أن تنزلي عن عرشك الآن، الآن الآن وليس غداً، ولا بعد دقيقة. نريد أن نصعد نحن. تداولتُ ورسمية المكان، فاشتققنا مزيداً من لحظات الجنون التي طاردت البرد والكآبة وتحدّت غياهب الجُب.

كانت أيامنا الأولى باردة جداً، ولأننا طالبتان مشاغبتان، أردنا كراسيٍ وأدوات موسيقى وجوقة. أعلنت مريم أننا لا نستحق أكثر من "الكُتّاب"، وعلينا الجلوس أرضاً والتصرّف بأدب.

"فكرة"! صرخت رسمية. "سنفتتح محطة تلفزيون، ونبدأ بالبث التجريبي منذ اليوم!" لافتة انتباهنا إلى الخزانة الصغيرة في الحائط، التي يمكن استخدامها في حالة الطوارئ ليلاً لاستخدام الكيس البلاستيكي. القسم العلوي من بابها من البلاستيك الشفاف، يمكننا استخدامه شاشة للتلفاز، وعلى كل واحدة أن تقدم برنامجاً تلفزيونياً. هجنا للفكرة وصفقنا ورقصنا. كنا نبالغ كثيراً في ردود أفعالنا، ألسنا في غياهب الجب؟

ماذا نسميه؟ تلفزيون فلسطين؟ تلفزيون الثورة؟ تلفزيون الصمود؟ تلفزيون نابلس؟ اتفقنا أن تبث كل واحدة منا من محطتها الخاصة باسمها الخاص، لتكون لنا ثلاث محطات تلفزيونية. (تلفزيون فلسطين)، (تلفزيون الثورة)، (تلفزيون الصمود). وها نحن قد سبقنا جميع الدول العربية في عدد المحطات التلفزيونية!

والبرامج؟ غناء وشعر وأدب وسياسة ومواهب ونكت وألعاب. في برامج المواهب الغنائية، فشلنا رسمية وأنا فشلا ذريعا. أجمل البرامج كان برنامج: (قولي الصدق فقط). تطرح المذيعة أسئلة محرجة على (المشاهدتين) ولا يجوز التهرب من الإجابة الصادقة والصريحة. هذا البرنامج كان مثيراً للضحك، وكثيراً ما كان يفضي إلى الغضب والحرد بسبب الأسئلة الحرجة، فنعتذر من المشاهدين عن توقف البث، إلى أن يتم إصلاح الخلل الفني.

صممنا ألعاباً. الأولى كانت لعبة الضحك؛ تبدأ واحدة بـ"ها.. ها.. هاآآآآ" وتكمل الثانية "هو.. هو.. هوووو"، وتتابع الثالثة

"هيهيهيييي". وتنفرط المسبحة وندخل في نغمة "هيهيهيييي" حتى نتشقلب من الضحك على ظهورنا. الغناء والشعر والضحك والعراك والجنون، أفضل عوامل التحدي للحصار والبرد. وخلال الأسبوع الأول، غطى الثلج جبال نابلس، واستطعنا مراقبته من علِّيتنا. وبعد أسبوعين، تركوا باب الغرفة مفتوحاً خلال النهار، ثم أحضروا لنا جريدة.

جريدة فلسطينية!

جريدة "الفجر" وربما "الشعب"، طرنا فرحاً ورقصنا لها قبل البدء بقراءتها. لم نترك حرفاً واحداً دون قراءة. قرأنا خبراً يقول: المحامي د. بيرجمان حصل على استصدار قرار من الوزير موشي ديان، بالسماح بإعادة بناء بيت الأسيرة عائشة عودة في دير جرير، الذي كان قد هدمه الجيش على أثر اعتقالها. وقد قدم الدكتور بيرجمان مساعدة للأسرة للمساهمة في إعادة بناء البيت.

قلت: إذن هذا هو السر وراء إحضار الجريدة. (لم يحضروها بعد ذلك لمدة أسبوعين آخرين). أزّمني الخبر الذي كان من المفترض أن يفرحني، ذلك أنه خبر ملغوم وقلت: هذا طُعُم. كيف يسمح لنفسه أن يقدم مساعدة لأهلي دون استشارتي؟ وكيف لأمي أن تقبل هذه المساعدة؟ طلبت حضور المحامي، وعلى الأرجح أنهم لم يبلغوه.

زيارات

في يوم جمعة، صحونا على جلبة آتية من الخارج. طرت إلى العِلية. جماهير كثيرة أمام السجن. كان يوم زيارة والجوّ مشمساً. لدهشتي رأيت ابنة عمي آمنة. ناديتها فاقتربت وتحدثنا. أراها

ولا تراني. قالت إنهم أبلغوهم أن زيارتنا ممنوعة، لكن أختي لا تيأس، فهي تعتصم أمام المدخل. تجمّع الأهل تحت النافذة. تبادلنا الجلوس في العلّية. تنبه الجندي في نقطة المراقبة، فمنع الأهل من الاقتراب مهدداً باستخدام السلاح. عاد الأهل دون زيارة.

بعد أسبوعين، حصلنا على أولى الزيارات. جلستُ إلى جانب أمي فاستنشقت أنفاسها وسألتها: كيف تأخذين مساعدة من الإسرائيليّ؟

انتفضت كما لو لسعتها حية وقالت: أنا أمك وبمدّ إيدي تآخذ فلوس من إسرائيليّ؟!

- ولكنك أخذت مساعدة من المحامي وها هو يكتب في الجريدة أنه قدم لكم مساعدة!
- آآآه! إجا هو والست عفاف، ست بترشح عسل. جابوا معهم سيارة حديد للبناء وقالوا إنك إنت دفعت ثمنها.
- من أين لي أن أدفع ثمن الحديد؟
- والله يا بنتي سألناهم هذا السؤال، بس كالوا إنك بتعملي بطباعة الكتب وهظول من أجرتك. وإنت كِلتي إلنا إنك بتشتغلي في طباعة كتب للعميان.
- صحيح أنا اشتغلت في طباعة الكتب للعميان، بس ما كِلت إنهم بيدفعوا إلي أجر. عمرك إسمعتي إنهم بيعطوا أجرة للّي بيعمل في السجن؟ طيب ليش ما يعطوا رسمية ومريم اللي بيشتغلوا معي في الطباعة للعميان؟ في حدا بيحصل ع فلوس في السجن إلا إذا كان عميل؟
- يقطع إلسانك! والله لو ما استعملنا الحديدات لرجعتهن.
- طيب بدي إديري بالك وما تآخذي إشي من حدا قبل ما تسأليني.
- لا يمه، لا بسألك ولا بتسأليني، كل إشي واظح.

زيارتنا في سجن نابلس لها طعم آخر. تم التعامل معنا على غير ما يتم مع الشباب، كانت زيارتنا فردية وتجلس الواحدة منا مع أهلها في غرفة واحدة دون حواجز.

فدوى طوقان

الجريدة الفلسطينية تحمل لنا أنفاس شعبنا. نتابع من على صفحاتها ما يدور في مجتمعنا، فلان تخرّج من الجامعة، فلان تزوج، أنجب ذكراً، أنجب أنثى، أقيم معرض فن، صدر ديوان شعر، مقالات أدبية وأخرى سياسية . . . الخ. قرأت عن تخرج شباب من قريتنا دير جرير، وأرسلت بطاقة تهنئة لهم عن طريق المربي الفاضل مصطفى عبد الحميد. ومن على الصفحات الأدبية في الجريدة، قرأت قصيدة للشاعرة فدوى طوقان. لمست في القصيدة نَفَسا يائسا. رفضتُ وفكرت؛ نحن نرفض اليأس رغم وجودنا في السجن، ونواجه أحكاماً مؤبدة، فكيف للشاعرة فدوى طوقان أن توحي باليأس؟ قررت الكتابة إليها. ليس مهماً أني لا أعرف عنوانها، فمثلها لا يحتاج إلى عنوان. وكانت المفاجأة حين جاء الردّ سريعاً على شكل القصيدة التالية:

أغنية صغيرة لليأس

(مهداة إلى (السجينة) عائشة عودة)

مبارك اليأس

حين يمدّ، يشدّ، يطحن،

ينفضني

ويزرع النخل فيّ،

ويحرث بستان روحي،

يسوق إليها الغمام

فيهطل فيها المطر

ويورق فيها الشجر

وأعلم أن الحياة تظلّ صديقة

وأن القمر

وإن ضلّ عني، سيعرف نحوي طريقه.

فرحنا بالرد، لكن الإهداء: إلى (السجينة)، وخزني. ألسنا مناضلات وأسيرات يا شاعرتنا؟ هل فاتك الفرق؟

ثمن باهظ

بعد شهر، حصلنا على فورة لمدة ربع ساعة عصرا. الساحة واسعة، تحيط بها أبنية السجن وأقسامه المختلفة من ثلاث جهات، مقسومة

بشِباك وأسلاك شائكة تمتد من شمالها إلى جنوبها. قسمها الغربي تحيط به غرف وزنازين الشباب وملحقاته وتشكل ساحة تابعة لذلك القسم، أما القسم الشرقي، فهو المتاح لنا التجوّل فيه، وأمام ناظرنا سفح جبل "عيبال" شديد الانحدار تغطيه أشجار الصنوبر، تتسلقه عيوننا وتغتسل بخضرته المغسولة بماء السماء، لكن عيوننا سرعان ما تنشدّ نحو قسم الشباب، ورغم أن أبواب الزنازين بعيدة عنا، لكننا رأينا بعضهم خلف الأبواب وقد لوّح أحدهم بيده في اليوم الأول دون أن نستجيب لتلك اليد بتلويحة مقابلة، رغم ما أثارته فينا من أشواق ورغبة في معرفة صاحبها، وتهامسنا إن كان صاحب التلويحة أحد رفاقنا من الذين نعرفهم. لكن التلويحة لم تكن إلا لسجين اجتماعي، فحذّره الرفاق، وبقيت تلويحة يتيمة.

على الرغم من أهمية وجود الشباب في المكان، وما يخلقه من حيوية تحفّز الخيال والمشاعر، فإنه تحوّل إلى قيد على حركتنا. كنا نشعر أننا مقيدات بنظرات الشباب التي ترمقنا من بعيد، إضافة إلى جنود وقفوا لحراستنا. تقيدت حركتنا وأخذت طابع الاتزان. فلا جري ولا لعب رغم المساحة الواسعة التي تغري بذلك. إنه ثمن باهظ ندفعه مجاناً. فلو كان بمقدورنا رؤية الشباب كما يروننا، لهان الأمر، فذلك يزودنا بمشاعر التعادل. أما أن نكون تحت عدسة المجهر، (أو هكذا كان إحساسنا) فهو أمر محبط. حين مدّدوا "الفورة" إلى ساعة لم نحتمل ذلك، وطلبنا العودة إلى القسم قبل انتهائها!

الكتب

منذ اليوم الأول لوصولنا إلى سجن نابلس بدأنا نطالب بكتب للمطالعة، ولم يسمح لنا قبل شهر القصاص. أحضروا لنا قائمة

بأسماء كتب المكتبة. وجدنا أسماء كتب لم نكن نحلم بالحصول عليها. إنها مكتبة غنية ومتنوعة مقارنة بما كان لدينا في سجن الرملة. سجلنا قائمة كتب، فجاء الردّ بأنها بين أيدي الشباب. سجلنا قائمة جديدة، وكان الجواب كالأول، وأحضروا بعض الكتب بناء على اقتراحات من الشباب فأعدناها لأنها كانت مقروءة من قبلنا. اقترحوا أن نضع إشارة على الكتب التي لا نريدها ليرسلوا ما تيسر من الكتب التي نريد.

انتفاضة

بعد أكثر من شهرين من وجودنا في سجن نابلس، أحضروا جميع السجينات الاجتماعيات من سجن الرملة؛ أم روحي، (ز)، (س) وطفلتها، و(ع)، و(ح)، و(ن). قسم النساء في سجن نابلس يحوي غرفتين فقط، وضعوا جميع الاجتماعيات في الغرفة ماعدا أم روحي التي كانت من نصيبنا، فدللتنا كبنات لها واستخدمت خبرتها في إعداد سلطات شهية مما كان يتوفر لنا من بصل وفجل وبندورة. لم تمكث إلا بضعة أيام، وخرجت من المحكمة إلى بيتها.

عليّ وعلى أعدائي

عند حوالي الثامنة مساء، علا الصراخ في الغرفة المجاورة. (ن) رفضت الذهاب إلى دورة المياه حين كان متاحاً. فضلت أن تعملها بعد إقفال الغرفة في التنكة الصغيرة، وعلى الأخريات أن يتحملن الروائح التي لا تطاق. هذا السلوك إن تحملته (ح) أو (ع) أو (س)، فلا يمكن لـ (ز) أن تتحمله، أو أن تسكت عليه. قامت بضرب (ن)

أولاً ثم استدعت السجانة، وطلبت فتح الباب للتخلص مما فعلته (ن). رفضت السجانة بحجة أن لا مجال لفتح الباب بعد إقفاله الساعة السادسة، ثم أدارت ظهرها وذهبت. لحظات وكانت (ز) تعلن: علي وعلى أعدائي. أمسكت بالتنكة الصغيرة بعد إضافة الماء إليها وسكبتها خارج الغرفة لتجري خلف خطوات السجانة وتنحدر نحو غرفتها. صرخت السجانة من الرائحة، فطلبت النجدة لفتح الأبواب وتنظيف الممر والمنطقة. لم تكتف(ز) بما فعلته، لكنها عادت وضربت (ن) مهددة بأنها ستخنقها إن فعلتها مرة أخرى.

إنزال الأعلام

أعلام إسرائيليّة ملأت الممر الداخلي الكائن أمام غرفنا وكذلك الحيطان، تحضيراً للاحتفال بعيد (استقلالهم). كان ذلك استفزازاً لنا، فما هدف الأعلام في ممرّ معتم داخل سجن ليس فيه إلا نحن إن لم يكن نكاية بنا واحتقاراً لمشاعرنا؟ وما حاجتهم لمثل هذا الإجراء وهم المنتصرون والسجانون ومالكو الطعام والهواء والدواء وكلّ شيء؟ قلنا: لن نقبل الاستهانة بنا وبنكبتنا. لا بد من التصرّف. تناقشنا وقرّرنا: سنمزّقها حال فتح الباب حين الخروج إلى الفورة. لكن المفاجأة جاءتنا من غرفة السجينات الاجتماعيات. من خلف قضبان باب غرفتهن وقفت (ز) وأعلنت لنا باسمهن جميعا: نحن مقهورات. جميعناً دون استثناء. إنهم يتعمدون إهانتنا واستفزازنا.

أكدت (ز) قولها أكثر من مرة ثم أعلنت: سنمزّق هذه الأعلام بمجرد فتح باب الغرفة. يجب أن يعرفوا أننا لن نقبل بهذا الاستفزاز. وقررنا أن نقوم بالعمل وحدنا وأن لا تشتركن خوفاً من انتقامهم. فقط نريد موافقتكن على ذلك".

كانت المفاجأة فوق تصورنا وقلنا: هذه انتفاضة حقيقية، حتى (ن) التي تصوّرنا أن لا انتماء لديها، تشعر بالإهانة من رفع العلم الإسرائيليّ، وتريد المشاركة في تمزيقه!

فتحت السجانة أبواب الغرف، وسبقتنا لفتح البوابة الخارجية. حين عادت، كانت كل الأعلام قد رميت أرضاً. لم تقل شيئاً، وأعادتنا إلى الغرف وأقفلتها خلفنا.

قبل عودتنا إلى الغرف تبادلنا النظرات كشكل من التحية على إنجاز خطوتنا الاحتجاجية. ما الذي رأيته؟ (ن) تنظر إلينا مباشرة وتشعّ من وجهها ابتسامة كانت غائبة من حياتها. كأن (ن) قد عادت إليها الروح. وما زالت تلك الابتسامة مستقرّة في أعماق روحي تروي قصة كرامة إنسانية تأبى أن تنهزم كليّاً، وتبقى تبحث عن لحظة تنبثق فيها من جديد.

هل كانت (ن) طوال الوقت تسحبنا كي نضربها لتطهّر روحها المهانة؟ أية جريمة أو أية جرائم ارتبكت في حقها! هل الاحتلال كان وراء ما آلت إليه (ن) أم ماذا؟

صباح اليوم التالي، استدعى المدير مريم الشخشير وأنا مستثنياً رسمية! تكلم بجبروت وباختصار: فضّلتُ أن أتكلم معكما، فأنا أعرف أنكما تلحّنان، والباقي يغني خلفكما، إذا أردتما محاربتي، تخسران كلياً. وبصفتي عسكرياً أقول: الذي يريد أن يشنَّ حرباً، يجب أن يكون لديه تقدير بنسبة ما، لكسب الحرب حتى لو وصلت ١٪ فقط، أما إن كانت نسبة خسارته ١٠٠٪، فان شنه للحرب يكون انتحاراً. الحرب معي خسارة ١٠٠٪، ولا تعرفن وخامة نتائجها، فأنا لست "ريا"، ولو كان الشباب هم الذين فعلوا ما حدث، لكان لي معهم عمل آخر لن يعرف الرحمة. ثمّ طلب إعادتنا إلى القسم مباشرة، دون أن يفسح لنا قول حرف واحد.

سيطر علينا غضب عارم: هل يرى في نفسه إلهاً؟! الإله لا يكون سخيفاً إلى درجة أن يرفع أعلاماً في ممرّ ضيق داخل سجن ليغطي إدراكه بعدم عدالة هذا الاحتفال! كان عليه أن يسمع ردّنا عليه الذي يقول؛ أن لا شيء أغبى من صراع يريد فيه طرف أن تكون سيطرته مطلقة على الطرف الآخر، ولا شيء أدعى منه لتوليد القهر والغضب بلا حدود، وهو غضب يصنع الطوفان. وقلنا: كم هي مقيتة عنجهيّته، والغريب أننا وجدنا أنفسنا نتعاطف مع "ريا" التي سخّفها لكونها امرأة، كما عمل على تسخيفنا بعدم عمل إجراء بحقنا مدعياً الحكمة والمروءة، وهو منهما براء! لو كان يمتلك شيئاً من تلك الحكمة والمروءة المُدّعاة، لرفض القيام باستفزاز حقير، بتعليق أعلامه في ممر ضيق ومعتم. إنه فقط يزيد العتمة في أعماقه.

رحنا نقارنه مع "ريا" مديرة سجن الرملة للنساء، فلو كان ما قمنا به من تمزيق أعلام في الرملة، لادخلتنا الزنازين، وقطعت عنا الزيارات لفترات معينة، وربما اتخذت إجراءات أكثر من ذلك. وهذا أكثر حكمة من تلبّس ثوب الحكمة والتعالي في الوقت الذي ينزّ دناءة في رغبته سحق الآخر.

خلال أيام، تم الإفراج عن كل الأسيرات الاجتماعيات، أو ربما تم نقلهن إلى سجن آخر.

وللعمال نصيب

مضى الشتاء وجاء الصيف، وبقيت (العلية) نافذتنا للإطلال على العالم الخارجي. جاء دوري للجلوس في العلية. عمّال يدقون

الحجارة في ظل الشجر كثيف الظلّ القائم على رصيف الشارع المقابل للسجن. كان المنظر مؤثراً، فلا أجمل من الجلوس في ظلّ شجرة في مثل ذلك الجو الصيفي، ومثله العمل في دقّ الحجارة الذي لا أعرف سر تعظيمي له. فجأة، انطلقت مني أغنية جديدة بكلماتها ونغمها الذي انبثق للتو:

إحنا العماال، إحنا العمال

إحنا الصناااع، إحنا الصناع

إحنا اللي نصنع، نصنع ثورات

إحنا الصناااع، إحنا الزُّرااع

إحنا اللي نزرع خيرات

توقف العمال عن العمل، وأخذوا يستمعون إلى أنشودتي وهم يبتسمون، وينظرون باتجاه الصوت، فعظمت سعادتي التي لا يمكن وصفها. تحوّلت الأنشودة إلى لازمة نغنيها باستمرار مثلما كانت قد تحوّلت أنشودة الفتاة الفلسطينية إلى نشيد لنا:

الفتاة الفلسطينية جالها (أي جاء لها) مجال جبّار

لا استعمار ولا صهيونية إهمّه (أي يهمها) بهدم الدار

حملت مدفع، وبندوقية،

وتْحررت م الأوكاااار

جالو (اي جاء له) جيلنا مجال وثاااار

ثانوية عامة

سألونا: من تريد تقديم امتحان التوجيهي؟ مريم هي الوحيدة التي تحتاج لتقديم الامتحان، إذ كانت طالبة توجيهي حين اعتقلت. وقد منعت من تقديمه حتى حينه. فكرنا، رسمية وأنا: لماذا لا نتقدم لامتحان التوجيهي! سألوا: أليست رسمية طالبة جامعية، وعائشة معلمة، فما حاجتهن للتوجيهي؟ قلنا: نرغب في تحصيل علامات أفضل. أحضروا الكتب وبدأنا الدراسة. كان أمراً غبياً ومملاً أن ندرس مواد درسناها وتجاوزناها! لكننا نبحث عن فكّ العزلة وتوسيع دائرتنا الإنسانية ولو لأيام. إنه هدف يستحقّ المحاولة.

قبل بدء الامتحانات بيومين، حضرت رفيقتنا روضة التميمي من سجن الرملة لتقديم امتحان التوجيهي. أروع ما حملته لنا روضة، كان اعتذاراً من دلال لما سببته لنا من مشاكل، كما وضعتنا في صورة التطورات التي حصلت بعد غيابنا: دلال، حين ضربناها كانت تريد الذهاب لتسحب دعوتها ضد مريم وتعلن أنها كذبت عليها، تريد أن تكون في الزنزانة بدلاً من مريم (التي تحبها كثيراً) لكن حصل ما حصل. تعرّضت دلال إلى ضغوط هائلة لترفع قضية ضدنا بتهمة الشروع في قتلها، لكنها قاومت ورفضت رفضاً قاطعاً، وطالبت بعودتنا إلى سجن الرملة. كما طالبت بالكتابة لنا للاعتذار، لكنهم لم يسمحوا لها. وقد حملت روضة بالغ أسفها لنا.

دخلنا قاعة الامتحان، وكانت محتشدة بالشباب. شخصت العيون إلينا، وافترشت الابتسامات المحيية كل الوجوه. كنّا أميرات تلك اللحظة، كان عدد من المراقبين في القاعة من رفاقنا (أحمد الجمل، وساجي سلامة، وآخرون). كانت لحظات مفعمة بالامتلاء: ها نحن ورفاقنا معاً في ساحات النضال في الأسر والسجون كما كنا في ساحاته خارجها. وها هي مشاعر الاحترام تفيض، فتجعل

من السجن بوتقة الانصهار لنصنع شمسنا وحريتنا بأيدينا وإرادتنا، لنضيء بها مستقبل شعبنا.

جلسنا في الصف الأخير من القاعة، وكان أساتذة من التربية والتعليم من خارج السجن، جلس أحدهم إلى جانبنا واستطعنا تبادل الأحاديث معه، فكانت لحظة مفعمة بمشاعر القرب من أنفاس شعبنا ومتخطية أحكام السجن وقوانينه. تحدثنا مع الرفاق أحمد وساجي في شؤون السياسة، وعدونا بكتابة رسالة سياسية مطولة، وقد تم تسريب تلك الرسالة إلينا في اليوم الأخير من أيام الامتحان.

كمين

في آخر يوم من أيام الامتحان، عدنا من قاعة الامتحان منشرحات بما حملنا من رسالة ومن كتب ومن انتعاش روحي. حال دخولنا الباب المؤدي إلى القسم، واجهنا أبواباً مقفلة، وعدداً من السجانات، وحوصرنا بهدف مصادرة جميع الكتب وإجراء تفتيش دقيق. كنت أحمل الرسالة وكانت كبيرة من عدة صفحات، لا يمكن بلعها أو التخلص منها. اتجهت عيون الرفيقات نحوي. هل أصبح الإمساك بالرسالة قدراً؟

كان التفتيش دقيقاً. لكنهم لم يمسكوا شيئاً. عدنا إلى الغرف. لم تصدق عيون الرفيقات حين أظهرتُ الرسالة. كيف تم ذلك؟ كان من المستحيل إخفاء قصاصة، فكيف بهذه الرسالة؟ بعد أن شرحت لهن الأمر. جلسنا نقرؤها ونناقشها بإحساس المنتصر.

بعد نتائج التوجيهي، أعادونا إلى سجن الرملة، وحملنا معنا عدداً من الكتب غير المتوفرة هناك، بحجة أنها كتب دراسية.

عودة إلى الرملة

سنغادر نابلس، وسنفتقد حميمية القرب من أنفاس شعبنا واحتضان الأهل أثناء الزيارة ورؤية دائرة أوسع من الأقارب والأصدقاء. سنفتقد (عليتنا)، نافذتنا لرؤية نابلس وناسها وشوارعها وتجمّعات الأهالي أيام الزيارات وإيصال صوتنا لهم. صحيح أننا بشوق كبير للرفيقات، وأن سجن الرملة فيه ظروف حياة أفضل؛ نستطيع عمل الكثير من الأنشطة والبرامج، والصراع مع العدو هناك مباشر ويحفز الوعي والطاقات، لكنه صحيح أيضاً أن الخسارة التي ندفعها مقابل ذلك كبيرة.

لماذا لا أتذكر شيئاً من تفاصيل العودة إلى الرملة، بينما أتذكر تفاصيل التحرّك نحو المجهول؟ ألأن السفر إلى المعلوم يفتح القلب ويريح الذهن، بينما السفر إلى المجهول يحفّز العقل ويغيّب القلب؟ أهنا تكمن قيمة المغامرات في تطور وعي الإنسان عند تحركه باتجاه المجهول، فيكون في كامل استعداده لالتقاط التفاصيل والإشارات لتحليلها واستنتاج ما قد يضيء له رحلته؟

لا أتذكر شيئاً من رحلة العودة إلا ذلك الشوق إلى الرفيقات، وذلك الحلم الخرافيّ الجميل بأننا نؤسس لـ "دولة فلسطين" في الرملة، في قلب فلسطين!

في صيف العام ١٩٧١، زارنا السيد عبد الجواد صالح، رئيس بلدية البيرة آنذاك. أحضرته المديرة إلى مكان عملنا في الأرض. امتشقنا قاماتنا وأجبنا عن سؤاله عن أحوالنا: كما ترانا، نفلح أرضنا ونؤسس لدولتنا هنا في الرملة، في قلب فلسطين. وما زلت أذكر تعليق رسمية أمامه: حرموني من أرضي في لفتا، فجئت إلى أرض الرملة!

هل كان ما نفكر به جنوناً؟ أم كنا نجترح المعجزات لتغيير واقع الهزيمة؟ ألم نمسك بزماننا بكل إرادتنا، فأسسنا بيننا لعلاقات كانت رائعة لم تكن لتجود بها تلك الأزمنة؟ كل واحدة منّا تشارك بكل إرادتها فتشعر بقيمتها ودورها وتتفاعل معه. الكلّ يشارك في القرار ويعرف دوره في تجسيده والدفاع عنه. كنّا ندّاً لعدوّنا وأحياناً نتفوّق عليه، نسجل النقاط تلو النقاط، ونعرّيه من ألبسة انتصاره! ألم نكن نحن الاتجاه المعاكس للهزيمة والهروب؟

وكان اللقاء: قامت الأفراح والليالي الملاح. هل كنّا محبوبات من رفيقاتنا إلى تلك الدرجة؟ وهل هناك ما هو أجمل من الرفقة والمحبة!

جاءت دلال وسلّمت معتذرة فاعتذرنا لها كذلك، إنه انتصار النفس على ذاتها. استمعنا إلى كل واحدة عما جرى معها في فترة غيابنا، وعن أشواقها وقراءاتها وزياراتها. وفي غيابنا، تضاعف العدد تقريباً. مجموعة جديدة من المناضلات من قطاع غزة انضمت إلى سجن الرملة بعد أن أغلقوا قسم النساء هناك.

- **نعمة الحلو** كانت أول من لفت انتباهنا. سلمت علينا وعرفتنا بنفسها. شعّتْ من وجهها ابتسامة مضيئة ومرحبة وهي تمازحنا، كما لو أنها عاشت معنا وتعرفنا حق المعرفة. ما الذي حدث مع هذه الشابة؟ ما الذي أفقدها ساعدها اليمنى وعينها الشمال وطارت نصف أسنانها ووجهها أنزرع شظايا سوداء؟ كيف لها رغم ذلك حمل روح مرحة وابتسامة مضيئة؟ هل تودّ أن تخفف من صدمتنا؟ أم أنها تتسامى عما حصل معها، أم تحذرنا من اللحظة الأولى من النظر إليها نظرة إشفاق؟ أية عظمة تختزنها في روحها؟ نعمة الحلو ألقت قنبلة على دورية عسكرية، فارتدت القنبلة عليها وانفجرت أمامها وأصابتها إصابة مباشرة.

- **فاطمة الحلبي** تقدمت بمشية عسكرية تليق بقائد جيش، وسلمت علينا بالطابع ذاته: لها قامة ممشوقة وفارهة تليق بقائد جيش. فاطمة شديدة الاعتداد والثقة بنفسها، ورغم أنها تجهل القراءة والكتابة، إلا أنها وصلت إلى موقع الساعد الأيمن للقائد زياد الحسيني من قوات جيش التحرير. السجن بالنسبة لها استراحة محارب، كما عبرت بكلماتها. ستتعلم ما كان ينقصها. عملت ليل نهار وبإرادة لا توازى، وبمثابرة تثير الإعجاب، حتى تجاوزت أميّتها، فأصبحت تحمل كتابها تحت إبطها، لتنزوي في مكان وتطالع فيه وتتصارع معه. فاطمة رفضت التدرّج في قراءة الكتب من البسيط إلى الصعب. كانت عيناها على الكتب الفلسفية الصعبة.

- **غالية سلامة** شخصية حيية وغير استعراضية. تحمل بكالوريوس لغة عربية. وثقت بقدرات فاطمة الحلبي القيادية، فكرست طاقتها لتعليمها القراءة والكتابة، إضافة إلى قراءتها الكتب الثقافية معها.

- **أم محمد أبو كرش (عزيزة)**، جلست على كرسي بجلال الأم، سلمنا عليها واحتضناها كما نحتضن أمهاتنا. تكرّست في السجن كأمّ لنا جميعا. كانت في بدايات الخمسين من عمرها ومرجعية لمن معها.

- **نورة أبو كرش**؛ زوجة ابن عزيزة (أم محمد)، والعلاقة بينهما علاقة البنت مع أمها.

- **كاملة العمصي** من مجموعة أم محمد ونورة. تميزت كاملة في ذاكرتي كابنة مدينة بخلاف باقي بنات غزة اللواتي كن من المخيمات. شكّلت كاملة مع عزيزة ونورة مجموعة العمل اللوجستي لمجموعة جيفارا غزة، تمحور عملهن في تأمين الأكل والأسلحة والرسائل.

- أميرة حالة تحتاج إلى تعامل خاص، إذ كانت تعاني من تشوّش في وعيها نشأ بسبب التحقيق، وتم التأكيد أنها كانت فتاة عادية قبل اعتقالها.

في سجن الرملة، وجدنا الأجواء تغيّرت، ونادية بريدلي ملأت فراغ غيابنا، فأصبحت مايسترو تلك المرحلة، وعملت على خلق أجواء من الانفتاح الذي كان محصلته انفتاح كل الأقسام والساحات على بعضها بعضا.

مع د. بيرجمان

جاء لزيارتي. بعد شكره على إنجازه في رفع حظر بناء بيتنا، راجعته عما كتبه في الجريدة، وسألته كيف يقدم مساعدة لأسرتي دون أن يسألني؟ ارتبك وراح يتأسف بشدة ويبرّر قصده بأنه يرغب في

المساعدة كثيراً، وأن ذلك دين عليه وردّ جميل لأصدقاء لا يعرفهم ولا يعرفونه، لكنهم ساعدوه في الهرب مِّن السجون النازية، ولولا تلك المساعدة، لما كان اليوم في الحياة. وأضاف في معرض تبريره، أنه يؤمن أن لي الحقّ في أن أتلقى أجراً مقابل العمل الذي أعمله في طباعة برايل. قلت له: لكنك كتبت في الجريدة أنه تبرع منك، أي أنها ليست أموالاً اكتسبتها من عرق جبيني! ابتسم وقال: ها أنت تتفوقين على محاميك. أرى أن دراسة القانون تليق بك.

قلت له: سيبقى المبلغ الذي دفعته ديناً عليّ، وسأتكفل بإعادته. خفض رأسه وراح ينظر إلى الأرض متأملاً. انتظرت أن يقول شيئاً، لكنه استمر في تأمله. ثم رفع رأسه وقال: اعتبري أنك أعدته لي وتستطيعين التبرع به لمن تجدينه محتاجاً له.

بحثت عن صيغة مناسبة لأقول له: انتهى توكيلي له كمحام. وحين قلتها، كان رد فعله مفاجئاً. قال برجاء شديد، بينّما لحيته ترتجف: أرجوك يا آنسة عائشة ألا تتخلي عني. فأنا أريد مساعدتكن جميعاً، ولن أستطيع ذلك إلا كمحام موكّل. أريد معرفة احتياجاتكن وتعامل السجانات معكن لأستطِّيع التدخل في الوقت المناسب.

شعرت في صوته رنة صدق، وأحسست أني أسيء لمن قدّم مساعدته لنا! لكن صورة أبي النمر في التحقيق ظهرت أمامي! وتساءلت في نفسي: ما الذي يمنعه من تمثيل دور فاعل الخير بينما ينسق مع إدارة السجن والمخابرات للإيقاع بي؟ وأجبت نفسي: إنه كذلك. لكن، هل تخشين على نفسك من مخططاتهم؟ وأين ثقتك بنفسك؟ أليست فرصة لك لتكتشفي طرقهم وأساليب عملهم، كما أنها فرصة لتجعليهم يحصدون الفشل تلو الآخر! فكرت بطريقة

انتهازية: خذي حذرك يا عائشة، وربما تستفيدين منه بطريقة ما في عملية هرب مثلاً! قررت مناقشة الأمر مع الرفيقات، وكان موقفهن يتطابق مع موقفي. بين فترة وأخرى كان يأتي، نجلس في الساحة فوق الحشيش الأخضر أمام مكاتب الإدارة. كان بخيلاً في الكلام، وكنت أنا أشدّ بخلاً. لم يتحدث معي باللغة العبرية مطلقاً، وكان يكرر دائما جملة "keep up" "What can I help?" . ولم أكن لأطلب منه شيئاً.

في إحدى الزيارات، أحضر معه لوحاً من الشوكلاتة الفاخرة، تعففت عن تذوّقها بحجة أنني لا أحبّ الشوكلاتة، وبهدف قطع الطريق على إحضار أي شيء آخر. طلب مني أخذه معي من أجل صديقاتي، فتحججت بأنني لا أريد مصادرته مني أثناء التفتيش. سألني: ما الذي تحبينه حتى أحضره في المرة القادمة؟ لسعني السؤال واعتبرته مخابراتياً. قلت: لا يوجد ما أحبه كثيراً.

ثابر د. بيرجمان بجَلَد يثير الإعجاب لكسب ثقتي. لكن الشك كان سيد الموقف، وبقيت دائمة التنبه لكل كلمة وكل نأمة تصدر عنه. في إحدى زياراته، ربما أواخر العام ١٩٧٧، أخبرني أنه سيسافر بعد أسبوع إلى بريطانيا، وأنه على استعداد لحمل رسائل مني لأي شخص أريده في الخارج، حتى لو كان لنايف حواتمة أو لجورج حبش! قلت في نفسي: يريدون الوصول إلى القيادة عن طريقي بادعاء المساعدة! قلت: لا أعرف أحداً في الخارج. نظرت إلى وجهه لأقرأ تعابيره بعد أن طاش سهمه، كان يصرّ عيونه ويرنو إلى البعيد. صمتَ طويلاً وكذلك أنا حتى أصبح الصمت ثقيلاً. قطع الصمت، حين سألني ماذا أريد أن يحضر لي من الخارج؟ لم أشأ أن أصدمه مرة أخرى، فطلبت مجلة "الحرية". بعد غياب دام أكثر من شهر، جاء حاملاً معه خمسة أعداد

مختلفة من مجلة الحرية. صادرتها السجانة إلى حين مراقبتها، فهرّبتها لنا سجينة اجتماعية تشتغل في تنظيف المكاتب، فأنشدنا (للحرية) التي وصلت السجن. أحضر مجموعة أسطوانات موسيقى كلاسيكية؛ لبتهوفن وموزارت وباخ، صرنا نستمع إليها في ساعات محددة أيام الجمع. طلبت منه لاحقاً مجلات وإصدارات فلسطينية، فأحضر مجلات **الجديد** و**الكاتب** أكثر من مرة، وأحضر لنا قواميس وموسوعة طبية من ثمانية أجزاء. وصار يزودنا بمجلة *New Out Look*. د. بيرجمان ساهم حقاً في تحسين ظروفنا في السجن.

أراد كتابة وصية لي

غاب د. بيرجمان فترة طويلة، وعرفنا بمرضه مرضاً خبيثاً. رسمنا بطاقة وتمنينا له الشفاء العاجل، وأرسلناها مع المديرة. بعد خروجه من المستشفى، زارنا وكان شاحباً وضعيفاً. تأكدت أن الزمن خلق عندي عواطف رقيقة تجاه هذا الجدّ العجوز. تمنيت لو لم يوجد هذا العداء القاسي والتناحري، لاعتنيت به كجد تليق به كل العناية من حفيدته. قال بصوت ضعيف: قد لا تعرفين أنه ليس لي ابن أو بنت، وأن زوجتي توفيت منذ خمسة عشر عاماً، وأنا مريض الآن، وحياتي لن تكون طويلة، وقد شعرت دائماً أنك ابنة لي، ولا أخفي عليك أنني أفكر في مستقبلك كثيراً، أريدك أن تكوني حرة وبصحة جيدة وغنية.

زادت رقة عواطفي تجاهه. هل كان اهتمامه ينبع من عاطفة نبيلة وبعيداً عن دور التآمر؟ تذكرت رجاءه المشوب بنوع من التذلل أن أسمح له بالاستمرار في توكيلي له كمحام! لم أستطع تفسيره في حينه، وأبقيته في خانة الاحتمالات. هل أمسكت الآن بمفتاح

التفسير، أن التذلل في مثل تلك الحالة لا يكون إلا مرافقاً لعواطف نبيلة كالأمومة والأبوة؟

سكتَ بعد تصريحه. كان يرنو إلى البعيد. كنت في غاية التأثر، ولم أعرف ما يمكن قوله. عاد من تأمله وأكمل: أنا أملك الكثير من المال، أرغب في التوصية لك بجزء بسيط من ثروتي، قبل أن أموت.

انتفضت كما لو حية لسعتني، انتصب الحذر مارداً أمامي، قلت في نفسي: هذا العجوز لا ييأس! ألا يقدّر أن هذا يسيء إليّ إن كان يحرص عليّ كابنة؟ لماذا يفسد اللحظة الإنسانية الجميلة بالمال؟ لماذا يؤجّج شكوكي وحذري لحظة كدت أنساها؟ أهي آخر سهم في جعبته؟ أم نسي ما ينتصب من شكوك وعداء بين شعبينا وأن العلاقة بيننا لا يمكنها تجاوز شرط ولادتها؟ قلت بحزم، كأني لست التي كانت تتأمل متأثرة بخيط محبة شفيف بزغ لتوه كما يبزغ خيط الغسق: شكراً على مشاعرك النبيلة، لكن إياك أن تتحدث بهذا الأمر مرة أخرى.

قال بشيء من الرجاء: أريد أن أطمئن عليك.

- كن مطمئناً، أنا لست بحاجة إلى المال، وسأكون بخير دائماً.
- أنت مخطئة، المال مهمّ في الحياة، وستكونين دائماً في حاجة إليه. إن مرضت لا سمح الله، فأنت في حاجة إلى المال، وإن أردت العلم، وإن أردت السفر، وإن أردت مساعدة أحد.
- شكراً لك مرة أخرى. ولكني سأعرف كيف أتدبر. لن يتخلى شعبي عني.

راح يفكر وينظر إلى البعيد من خلف نظارته السميكة. وحين عاد من تأمله قال: لم أرَ فتاة عنيدة مثلك. ولكني لا أريد أن أسمع جوابَك الآن. فكري في الأمر. سأعود لأسمع جوابك بعد أسبوع.

– لا ، لست في حاجة للانتظار ، جوابي واضح منذ اللحظة .

علت وجهه تعابير من الأسى . قدرت أن أجوبتي كانت جافة ولا تليق بالموقف ، قررت تلطيفها فقلت : أقدر كثيراً مشاعرك النبيلة نحوي ، وحرصك عليّ . لكني أود أن تفهمني : إن قبولي أي مال سيُساء فهمه ويعرضني لمشاكل كثيرة لن ترضاها لي . سيستغلها الإسرائيليّون ضدي لتشويه سمعتي ، وسيفهمها شعبي ثمناً لعمالة ، وستشوه المشاعر الإنسانية وتنتج عكسها في خضم هذا الصراع الذي لا يرحم .

خفض رأسه وأخذ يهزّه دون توقف ، ثم رفعه وقال : أنا حقاً لن أخشى عليك ، فرغم صغر سنك ، أنت أكثر حكمة من الكبار . أنا مطمئن أنك ستجدين دائماً من سيقف إلى جانبك ، لأنك تستحقين ذلك . لكني أريدك أن تعرفي أنني أردت أن أطمئن على مستقبلك ، لتكوني سعيدة ، والمال مهمّ للسعادة ، وأنا أملك الكثير منه .

لاحظت ارتجافاً خفيفاً في يديه وفي فكّه السفلي ، فأثار عندي تأثراً مربكاً ومحيراً . كان كلامه ممزوجاً بالعاطفة حتى خلت أنه سيبكي . فاض تأثري بدمعة اغرورقت بها عيناي واحتجزتها جفوني . وددت لو كان الوضع غير الذي نحن فيه ، لأخذت رأسه إلى صدري وربتّ عليه حتى يسلم الروح مطمئناً . كانت تلك اللحظة خارج السجن وخارج الصراع وخارج الزمن .

بعد فترة من الزمن تأمل كل منا خلالها نفسه قال : كان سيسعدني كثيراً لو قبلت هديتي البسيطة .

وبعد برهة من التأمل أكمل : عليك أن تعلمي أنك في حال خروجك من السجن ، إذا احتجت إلى مال أو أية مساعدة مهما كانت ، فإن

عليك التوجه إلى عائلة بيرجمان في ألمانيا، والتعريف على نفسك فقط، وسوف تجدين كل مساعدة منهم أيّاً كانت المساعدة. إنهم يعرفونك حق المعرفة. لقد حدثتهم عنك كثيراً.

حبس تعليقه لحظات إنسانية كانت جاهزة للانبثاق. فكرت؛ ألا ييأس هذا العجوز، فيصرّ على ربطي بهم حتى بعد مماته؟

قلت: أريدك أن تكون مطمئناً. شعبي لن يتركني في حاجة إلى المال.

تلك الزيارة كانت آخر عهدي به.

إنها الحرب

السادس من تشرين الأول للعام ١٩٧٣: كان رمضان وكان يوم الغفران، والكل في السجن صيام، من مسلمات ويهوديات. ويوم الغفران عند اليهودي له قدسيته الخاصة، هو يوم صيام كامل من حيث الامتناع عن الطعام والعمل وحتى عن الكلام. في الأعياد والعطل، تُفتح أبواب الغرف الساعة الثامنة صباحاً بدلاً من السادسة والنصف. لا يُطلب منا النهوض في ساعة محددة. ينتهز الجميع الفرصة للنوم لساعات طويلة. شخصياً كنت أنهض مبكراً في شوق لفتح الأبواب والخروج إلى الساحات خارج الأقسام للإنفراد مع نفسي.

ما أن فُتحتْ الأبواب حتى تسرّبت بهدوء مع كتابي إلى الخارج. كانت أبواب الأقسام جميعها مفتوحة وكنت وحدي. مشيت إلى آخر نقطة أستطيع الوصول إليها. هناك في الساحة الممتدة أمام مكاتب الإدارة شجرة صنوبر (كريش) صغيرة وخفيفة الظل، قريبة من السور الذي يفصل السجن عن الشارع. السماء صافية والشمس خريفية دافئة ورقيقة، تنشر رقتها على زرقة السماء

والأشجار والخضرة. نسيم رقيق يعزف على أوراق الشجر. عصفور الفسفس كان يقفز ويزقزق، رحت أراقبه. ظلال الشجرة تتراقص مع بقع الضوء على العشب بموسيقى مرئية. وضعت كتابي فوق صدري لأتأمل الطبيعة ببهائها. أصبحت كائناً سماوياً يسبح في زرقة السماء ومع الشعاع. الهدوء عميق كأن الكرة الأرضية عادت بكراً، أتنفسه فأمتلئ بالكون. الشمس تسير الهوينا باتجاه كبد السماء وحرارتها تتغلغل في خلايا جسدي وتخرج منه عرقاً يرطب جلدي بتيار كهربائي ناعم جلل كياني. تحوّلت الطبيعة بكل ما فيها إلى أثير وأنا جزء منه. ذبت مع الشعاع ومع النسيم ومع الخضرة ومع الكون كله، وانبثقت نشوة كلية وملء الكون.

بدأت بعض الرفيقات ينتشرن في المساحة المتاحة وقد انفردت كل واحدة بعيداً عن الأخرى، ولا أحد من القسم (أ)، "ليلي" وحدها جاءت بعد ساعات تحمل كتابها وتمددت إلى جانبي.

"ليلي" واكتشاف الحقائق

"ليلي" فتاة يهودية غير متدينة وطالبة جامعية. تقول عن نفسها إنها لم تهتم بالسياسة في يوم من الأيام، ولم تشغلها أية قضية غير الحصول على النقود للاستمتاع مع الأصدقاء، ما دفعها إلى إعطاء شيكات دون رصيد أوصلتها إلى السجن. أصبح دخولها السجن الحدث الأهم في حياتها. صدمتها الحقائق التي لم يكن الوصول إليها ممكناً دون هذه التجربة وتعلّق: أكان عليّ الدخول إلى السجن حتى أعرف الحقائق التي تهمّ وجودي؟

في البداية، صُدمتْ ليلي بوجود فتيات مثل ناديا بريدلي وإيفلين ومارلين، وتساءلت: ما الذي يجعل فتاة مثل نادية؛ خريجة

السوربون، مثقفة وذات شخصية آسرة، جميلة وغنية، تستطيع الحصول على كل ما تتمناه، أن تختار خياراً يدخلها السجن، وفي قضية ليست قضيتها؟ وصُدمتْ كذلك بوجود قسم كامل من السجن فيه فلسطينيات! ماذا؟! فلسطينيات؟ من أين جاءت هؤلاء الفلسطينيات؟ ولماذا هن في السجن؟ لم تسمع قط عن شعب اسمه شعب فلسطين. ببساطة، لم يكن موجوداً في وعيها! انعزلت ثم خرجت من عزلتها وطلبت من "ناديا" أن تأخذ بيدها وتنير لها الدرب، تريد أن تقف على أرض صلبة بعيداً عن الكذب والتزوير، فمن غير المعقول إنكار وجود شعب كامل كما قالت، في الوقت الذي نعيش فيه على أرض هذا الشعب!

مع "ليلي" خضت شخصياً نقاشات عديدة. أحياناً، كنا نحلّق في عوالم نصنعها بأحلامنا، نوحّد قوى الخير في العالم، نزيل الظلم والاستعمار من كل أرض، نقضي على الجوع والمرض، وعلى الجهل، ونعمم العلم والفن والأدب والخيرات، ونزرع المحبة في كل مكان.

في هذا اليوم، لم أكن أريد الدخول في أي نقاش. أعطيت ظهري للشمس وبدأت أقرأ في كتابي حتى نعست، وقبل أن أتدحرج نحو غفوة لذيذة، التفت نحوي ليلي وقالت: ما أروع هذا الهدوء، ماذا لو اتفق العالم أجمع، أن يتوقف عن الحركة يوماً محدداً كلّ عام ليحصل على هدوء بكر؟ ربما سيغير هذا حياة البشر!

إنها فكرة عظيمة، تأملتها، رأيت الأفكار العظيمة ينزع البشر جوهرها ويحولوها إلى مجرد طقوس.

عند الواحدة تقريباً، سمعنا صوت آليات ثقيلة تمرّ من الشارع القريب. أزعج الأمر "ليلي" وأبدت استغرابها وقالت: هذا ممنوع

أن يحدث في يوم الغفران! هل تحوّلت الدولة إلى دولة غير دينية بين ليلة وضحاها؟

بعد قليل، ظهرت السجانة وطلبت من الجميع العودة إلى الغرف (كانوا يقفلون الأبواب من الساعة الثانية إلى الرابعة بعد الظهر، كاستراحة أيام السبوت والعطل). سألت "ليلي" السجانة عن سرّ الحركة في الخارج، فرفعت أكتافها وقلبت شفاهها. بعد ساعة تقريباً، وعلى غير العادة، أعيد فتح الأبواب. عجباً! ماذا يجري؟ همست لمريم الشخشير: كان في الخارج حركة آليات ثقيلة، هل تعتقدين أن حرباً نشبت؟ أجابت مريم بتساؤل آخر: إذا كانوا يقفلون علينا الأبواب لمجرد عملية، فهل يفتحونها حين تكون حرباً؟ سكتُّ، ففي قولها منطق. فما الذي يحدث؟

إنها الحرب

عند وصولها باب غرفتنا، فاض الكيل مع السجّانة من الأسئلة التي سمعتها من كل غرفة. قالت بعصبية وهي تسحب باب غرفتنا: في حرب عشان عايشة تفرح!

أمن الممكن؟ حرب ونحن داخل السجن؟ ما الذي يحصل في هذه الحرب؟ وعلى أيّ الجبهات؟ ومن البادئ؟ وما النتائج؟

صرنا نتحرّق لمعرفة ما يجري. كان لدينا مذياع صغير، نجحت نادية بريدلي في تهريبه إلى السجن بواسطة إحدى السجانات. كان كنزاً ثميناً، نحرص على إخفائه. كان إخفاؤه مهمة "فاطمة برناوي"، فعملها في مطبخ الشرطيات يسهّل التقاط مواعيد التفتيش، ويوفر لها فرصة تخبئته في غرفة الشرطيات أنفسهن. كان التفتيش قد

حصل قبل يومين، والمذياع لا يزال مخبأ هناك. كيف السبيل إلى إحضاره الآن؟

بذلت فاطمة جهودها رغم عدم وجود سبب كاف يسمح لها بالوصول إلى هناك. فاجأتنا المديرة بمجيئها! حدثٌ لم يحصل من قبل أن تقطع إجازتها وتأتي إلى السجن. حضرت مباشرة إلى قسمنا، وقد بدا عليها تغيير جليّ! كانت مكسورة النظرات، محدودبة الظهر، كأنها كبرت عشرات السنين. أي حدث جلل؟ أمن الممكن أن العرب شنوا حرباً واستردوا كرامتهم؟

حين تبدّلت السجانة، نجحت إحدى حيل فاطمة، فاصطحبتها السجانة إلى مطبخ الشرطيات، دون أن تتركها لحظة واحدة، وهي تراقب كل حركة من حركاتها. لاحظت فاطمة أن السجانات توقفن عن أحاديثهن حين أحسسن بوجودها، ومع ذلك، التقطت جملة واحدة: "هذه المرة، طلع العرب جدعان".

عادت تحمل لنا الجُمْلَة دون المذياع، وكانت كافية للإضاءة وتلوين أمانينا بألوان زاهية ولامعة، وأنعشت الروح فينا.

بعد العشاء (إفطار رمضان وإفطار يوم الغفران) وصلنا المذياع. شكّلنا فرق عمل وحالة طوارئ: رايقة وحرية يشاغلن السجانات، دلال تقف قرب مدخل الممرّ المؤدي إلى الغرف، تفتعل مشكلة إذا اقتربت السجانة. أخريات يتمشين في الممر، بالقرب من باب الغرفة بهدف التحذير لمن تستمع إلى نشرة الأخبار في الحمّام.

تم اجتياز "خط بارليف" من على قناة السويس ورفع العلم المصري عليها، وتم دخول هضبة الجولان من جهة سوريا ورفع العلم السوري في القنيطرة. لقد نجح العرب في مفاجأة إسرائيل، وتهاوت التحصينات التي ظنوا أنها عصية ومنيعة.

كالبرق توزّع الخبر، مع ضرورة الاحتفاظ بسلوكنا وحديثنا على اعتبار أننا لا نعلم شيئاً. أطلت الفرحة من عيوننا. فجأة أصبحت قاماتنا مشدودة وخطونا صار خفيفاً! كانت الهزيمة أغلالاً تشدنا إلى الأرض، وأثقالاً نحملها على أكتافنا، وصخرة تثقل على صدورنا! وها نحن بلمحة عين، نتحرّر منها ونخف كالفراش! رايقة غير قادرة على ضبط نفسها، تقول: "بدني بهْرُشني، يمكن تطلع علي شرية إنْ ما حطيت على عين راحيل".

ترد عليها روضة التميمي بحزم: عايزات نشوف الشرية طالعة على بدنك.

ورغم ذلك وجدت رايقة طريقتها الخاصة في مماحكة راحيل: قولي يا راحيل شو صار؟

لكن راحيل تلتزم الصمت. فتكمل رايقة: إذا ما قلتِ يا راحيل وكان العرب هم المنتصرين، راح أنتقم منك، أحسن إلك تكوني كويسة معي وتقولي شو الأخبار.

تفرقع "دلال" ضحكتها المدوية. تستمر "رايقة" في مناكفة السجانة، وتستمرّ دلال في ضحكها. احتارت السجانات في التبدل الذي طرأ علينا خصوصاً وأن الأوامر صارمة! قامت السجّانات بجولات مستمرّة تفقدن فيها داخل الغرف والحمامات. وفي تلك الليلة، لم تُشْعل الأنوار، فخيّم ظلام خارجي، بينما انبثقت إضاءة في الأعماق. بقينا في حالة ترقب وشوق، لقلب صفحة من تاريخ الهزائم الأسود.

اعتراف مثير

في تلك الليلة، وعلى غير عادة، ساد قسم السجينات الإسرائيليّات صمت كصمت القبور. وفي تلك الليلة، حيث الصمت خارجيّ والاضطرام في الأعماق، جفا الجفن أخاه وانسحب النوم من السجن ذاهباً إلى جبهات القتال. وقف بعضنا خلف الأبواب، أو جلس بالقرب من النافذة. الكل يستشرف المستقبل. أحياناً كانت تخرج همسات ما بين الغرف المتقابلة. لم تعترض السجانة كعادتها في الأيام السابقة. مرّ أكثر من ساعة دون أن تأتي السجانة في جولة تفقدية. علت همساتنا علّ السجانة تأتي، لرغبة منا في سحب الحديث منها، لكنّها لم تتحرك! مرّت ساعة أخرى وما زالت السجانة قابعة دون حراك. صار كلامنا بصوت عال تتخلله النكات والقهقهات. أخيراً، جاءت تجرّ أقدامها. كانت "جينا"؛ وهي مصرية الأصل والمولد والنشأة. لغتها الأم هي العربية، أما العبرية فتتكلمها باللهجة المصرية، وها هي تجدنا سهارى خلف الأبواب.

توقفت وتحدثت فترات مختلفة مع كل غرفة من الغرف. كنت ومريم الشخشير وعايدة سعد في الغرفة ٤٥، كنا نقف خلف بابها. وقفت جينا قبالتنا وأخذت تتلاطف بالكلام. كانت حاجتها إلى الكلام واضحة. بدأت تسحب شريط ذكرياتها في الإسكندرية، كأنها طازجة، كأنها لم تعرف السعادة إلا هناك! ولاحظنا مبالغتها في تأكيد حبها لمصر، وبأن مصر وطنها الذي لا تنساه! كنا نستمع إليها دون تعليق، وكنت أردد في نفسي "سبحان الله، كيف تنقلب الأحوال". قالت: "مصر أمّ الدنيا" وهزّت برأسها، فأضافت تلك الحركة نوعاً من الصدق في مشاعرها أو هكذا بدا لنا ما أثار تعاطفاً تجاهها. كدت أقول: ها هي الفرصة قد جاءت لتعودي إلى وطنك الذي تحبينه! لكني آثرت السكوت والاستماع. أكملتْ جينا: "ربما

سيصل الجنود العرب إلى السجن الليلة أو غداً ويفتحون الأبواب ويخرجونكن من السجن، وربما يضعوننا نحن مكانكن، وتحملن المفاتيح بدلاً منا. لي طلب واحد منكن: أن تعاملننا مثل معاملتنا لكُنّ. أنا لا أذكر أني أسأت لأيٍّ منكن".

ماذا نسمع! إنه فوق تصوّرنا وأسرع من توقعنا. ها هي الأوراق قُلِبت جميعها! الأبواب قد تفتح الليلة! والسجّانة تطلب الرحمة وهي لا تزال تحمل المفاتيح! في لحظات يصبح المنتصر الواثق بقوته مهزوماً! عدل السماء أن لا يبقي المهزوم مهزوماً، ولا المنتصر منتصراً.

صمتت قليلاً ثم أردفت كأنما تحدث نفسها: "كنت دائماً أحسب حساب مثل هذا اليوم". قالت كلمتها هذه ومضت تجر أقدامها.

كمطر هطل على أرض شققها الجفاف كان قولها على سمعنا. هل ولّى ليل الهزائم؟ وأمتنا العربية قد نفضته عنها؟ حضنّا بعضنا (مريم وعائدة وأنا) ورحنا ندور في وسط الغرفة نود الطيران. توقفنا نأخذ نفساً، وكنا نكرر ما سمعناه. ثم قفزت صور وجوه المحققين جميعهم: ماركس وأبو هاني وعزرا ويافا. رغبت في رؤية وجوههم تعلوها قتامة الانكسار. هؤلاء هم الذين أرغب في إقفال الأبواب عليهم لا "جينا". هل سيشفي ذلك الغليل؟ لا. لا بد من إيرادهم نبع الذل الذي أوردونا إياه. استبدت بي رغبة الانتقام منهم، فهل نمنا تلك الليلة أم بقينا ننتظر اللحظة التي يأتي فيها العرب منتصرين ليفتحوا الأبواب؟

جديد الحرب

أجواء الحرب

في الصباح الأول من صباحات حرب تشرين، أخرجوا من يعملن في المطبخ فقط، وأبقونا في القسم والغرف مفتوحة لنا، وبدأوا تجهيز المكان لحالة الحرب. طليت الشبابيك باللون الأزرق الغامق. جهّزت المطافئ. عقدوا الاجتماعات مع بناتهم وأعطوهن توجيهات في كيفية التصرف. أحضروا لهن صوفاً لينسجن الطواقي والملابس للجنود في جبهات القتال. ساد الصمت، السجينات الإسرائيليّات اللواتي لا يهدأن في العادة، تحلّقن حول بعضهن ينسجن بصمت وهدوء. ينقلن لعائدة التي كانت تعمل في المطبخ، ما يدور بينهن من أحاديث. نقلت عن السجينة (راحيل)، وكان معروفاً عنها كراهيتها وعداوتها الشديدة لنا، أنها تفكر في الرحيل عن هذه البلاد، وتطرح على عايدة الخيارات التي أمامها: أن تعود وعائلتها إلى البلاد التي أتت منها (المغرب)، أو تسافر إلى أستراليا!

نشأت أفضل الظروف لنا. أصبحت كلّ السجّانات والسجينات الإسرائيليّات بدون استثناء، يخطبن ودّنا كما لو كنا نحن من يتحكم في مصيرهن. خلعن عنهن العنجهية وعادت لهن إنسانيتهن. أصبحن ودودات فوق العادة معنا!

كان إشعال الإضاءة في الليل محظوراً، فقاموا بعرض فيلم سينمائي كل ليلة في القسم (أ)، وأخذوا من ترغب منا حضور الفيلم إلى هناك، رغم أن ذلك كان في السابق من المستحيلات. دارت الأفلام في البداية حول اليهود والهولوكوست. عرضوا فيلماً يصوّر ما تعرّض له اليهود في ألمانيا النازية من صنوف العذاب، فيه يهودي عُذّب بصورة شبيهة لما تعرضت له شخصيا من تعذيب وما نتعرّض له نحن الفلسطينيين على أيدي محققيهم. انفجرت بكاء كما تنفجر قنبلة. التفت الجميع نحوي، فصرخت: لكنّ هذا ما تفعلونه أنتم معنا! سكت الجميع ولم تنبس واحدة ببنت شفة وأعدن وجوههن إلى الشاشة. ماذا لو صرختُ تلك الصرخة في وقت سابق؟ هل كنت سأنجو من التمزيق؟ لكننا كنا في ذلك الوقت، الأميرات اللواتي يُخطبُ ودّهن. استنكفنا عن حضور الأفلام وفضّلنا البقاء في القسم رغم العتمة. ناديا بريدلي وجدت الحل، وسوف تقترح على المديرة قائمة من أفضل الأفلام العالمية: زوربا، لمن تقرع الأجراس، د. زيفاجوا، تشي جيفارا، أحدب نوتردام، وأفلام عالمية أخرى أتذكر قصصها ولا أتذكر أسماءها.

ترفض الهزيمة!

على مرأى منا، تحلقت مجموعة من السجينات الإسرائيليّات ينسجن الطواقي خارج ساعات العمل. كانت العين لا تخطئ حالة الانكسار المخيّمة عليهن. فاجأتنا عايدة سعد بقولها: قلن ما تشأن

عني، لكني أشفق على هؤلاء الفتيات! وأقول أكثر من ذلك؛ إني لا أرغب أن ينهزم أو يذلّ إنسان على هذه الكرة الأرضية. لماذا على الناس أن يعيشوا إما منتصرين وإما مهزومين؟ أنا لا أحب أن أرى أحداً مهزوماً وذليلاً، حتى لو كان عدوّي! الذل لا يليق بالبشر.

كان قولها شبيها بإلقاء قنبلة. صرختْ كلّ من رايقة ودلال وأخريات: طبعا يا ست عايدة إنت ما اتشردتيش ولا عشت في المخيمات، ما ذقتيش الذل إللي إحنا ذقناه. ما نمتيش تحت السماء والطارق وإنت بتصرخي من الجوع والعطش والبرد، حتى شربة مَيّ ما كنت تحصلي عليها. وإلا هذا مش ذل؟! والا الذل بليق فينا احنا يا احنينة؟

فتحت عائدة على نفسها مَدبرة كما يُقال. الكل تذكّر ما تعرض له من ذل على أيديهم. راحت عائدة تستنجد بنظراتها المستعطفة لوقف الهجوم.

كانت عائدة على حق في جانب مما قالته. من منا ترغب في إذلال هؤلاء المسكينات؟ أو من منا ترغب في إذلال إنسان ما على وجه الكرة الأرضية؟ ألا ندفع من أعمارنا دفاعاً عن هذه الكرامة؟ لكن هزيمة الظالم والمعتدي حقّ لوقف عدوانه ومحو آثار ذلك العدوان. لقد شردونا في العام ١٩٤٨ ولحقوا بنا في العام ١٩٦٧، وما زالوا مستمرين في عدوانهم وسيستمرون ما لم يهزموا، فهل هذا مقبول لديك يا عائدة؟ ألم تلاحظي كيف انقلبت مواقفهم؟ فجأة، أصبح الجميع يتحدث معنا بتواضع! أصبحوا بشراً لا آلهة متجبرين! إن هزيمتهم حقّ أعاد لهم إنسانيتهم قبل أن يعيد لنا إنسانيتنا، ألا تلمسين ذلك؟

أم محمد أبو كرش، كانت تستمع دون تعليق. أخيراً قالت كما لو أرادت حسم النقاش: يا بنياتي، إرجّعوني ع بيت جرجيا ومستعدة أعزمهم وأذبحلهم خروف!

عائدة تشفق عليهم! وأم محمد تتسامى على شقائها، ولا تريد إلاّ العودة إلى بيتها ومستعدة حتى لتكريمهم! شخصياً أغاظني هذا الكرم، فأنا حقاً كنت أرغب بشدة في أن ينهزموا، وأن أرى المحققين الذين عذبوني والجيش الذي نسف بيتي مذلولين ومنكسرين وخلف القضبان. إن ذلك عدل. ولكن، من يضمن لي أن العرب لن يقولوا عفا الله عما سلف؟ بل ربما يكرمونهم كما تريد أم محمد أن تذبح لهم خروفاً؟ ألم يفعلها عرب من قبل؟

معادلة جديدة

بعد عشرة أيام أو أكثر، بدأ ميزان الحرب يتغير، وبدأ التلفزيون الإسرائيليّ يعرض تهديدات جنرالاتهم واستعراض قوتهم. بدأت أجواء اللطف معنا تتراجع، وبعد فتحة الدفرسوار وحصار الجيش المصري الثالث، تغيرت الأجواء والسلوكيات، فعادوا وأخرجونا إلى العمل.

انتهت الحرب دون أن تنفتح أبواب السجون علينا، لكنها جاءت بجديدها الذي شطب معادلة حرب الـ ٦٧ (مهزومون ومنتصرون)؛ جاءت بمعادلة: (لم نعد المهزومين وإن لم نصبح المنتصرين. ولم يعودوا المنتصرين وإن لم يصبحوا المهزومين). أول من أقر بهذه المعادلة كانت المديرة التي بدأت تعبّر عن أحلامها السياسية: إن ما حققه العرب في هذه الحرب، يؤهلهم للدخول في اتفاقيات سلام معنا!

انتهت الحرب على الجبهات وبدأت التحركات السياسية، من خطاب ياسر عرفات في الأمم المتحدة وما أضافه من نمو في تبلور هويتنا ونموها، إلى مؤتمر جنيف والتغيرات التي رافقته من طروحات

سياسية تتمثل في النقاط العشر والبرنامج المرحلي الذي على قاعدته قررت الانتماء إلى الجبهة الديمقراطية على قاعدة أننا قادرون على إنجاز برنامج سياسي كهذا في المدى المنظور، وقد دخل على أثره أعداد متزايدة من بنات الجبهة الديمقراطية إلى السجن.

نهوض وطنيّ

مع المعادلة السياسية الجديدة، شهد النضال الفلسطيني في الداخل وفي الخارج نهوضاً، فدخلت المعتقل أعداد متلاحقة من المناضلات، فرادى وجماعات من مختلف الأعمار ومن مختلف المناطق، واكتظ المكان وتحوّل إلى ما يشبه معسكر تدريب يستقبل أفواجاً ويخرّج أخرى. ما لفت الانتباه، هو الطابع العام للنضال الذي تمثل بأنشطة عامة من مظاهرات وانتماءات للمنظمات السياسية، فانعكس ذلك على الأحكام، فإذا استثنينا "زكية شموط" من مناطق الـ ٤٨ والمحكُومة عدداً من المؤبدات، فإن جميع الأحكام تراوحت بين الأشهر وعدد قليل من السنوات، فمن مدينة **القدس** لم تتجاوز أحكام كل من مجموعتي الطالبات (مجموعة **سمر قطينة** من ٣ طالبات) ومجموعة (**فاتن بركات** من ٥ طالبات) السنة، إضافة إلى أخريات من الموظفات مثل **هالة العلمي** (موظفة)، و**رحاب العيساوي** (موظّفة) و**فريال الدجاني** و**نهى خوري** و**نادرة** (معلمات) التي لم تتجاوز أحكامهن أكثر من سنة ونصف السنة. أما **سعاد أبو ميالة** (معلمة) و**سامية مصطفى** (ممرّضة) فكانت أحكامهن عدداً من السنوات، ولا أنسى **ماجدة السلايمة** التي كانت حاملاً وأنجبت في السجن طفلاً أضاء أيامنا وسمته "فلسطين".

من (جنين) كانت **سائدة الجزرة** (معلمة ومحكومة إدارياً) ومجموعة من الطالبات (**نادية أبو الهيجا**، **هيفاء موسى**، **حليمة**

موسى، **يسرى فريحات**)، وهيام **حمدان** من عرّابة، و**آمال حسين** من مخيم جنين. كان أعلى حكم هو سنة ونصف السنة من نصيب نادية أبو الهيجاء. أما **سونيا النمر** فطالبة في كلية بيرزيت، و**نهلة عبوشي** و**واجدة عياش** في الجامعة الأردنية، وكذلك **سعاد الحافي**، أما أختها **عزيزة** فكانت طالبة توجيهي إضافة إلى **سهام جرادات**، فتراوحت أحكامهن بين سنة وثلاث سنوات.

من **نابلس**، كانت **هالة الطاهر** (٥ سنوات)، و**إيمان الصمادي** (سنتان ونصف). **آمال الجوهري**، و**أمل عنبوسي**، وزهى **فريتخ**، و**وجدان الصراوي**، و**فريال خليفة** و**كريمان الرطروط** (طالبات بمراحل مختلفة) و**ريما كيلاني** (طالبة جامعية) و**سناء المصري**، و**عرفان الشرشير** و**ناريمان**، طالبات في الجامعة الأردنية؛ و**سميرة سلامة** طالبة ثانوية، كانت أحكامهن تتراوح بين الأشهر والسنتين. إضافة إلى عدد آخر من الفتيات ذوات الأحكام الخفيفة جداً.

الثنائي **إلهام أبو غزالة** (نابلس) و**فاطمة حمد** (كفر نعمة) المعلمتان في مدرسة جمال عبد الناصر في نابلس، وخريجتا القاهرة ودمشق كان لوجودهما (القصير) طعم آخر، إذ شكل لنا متنفساً إنسانياً نأخذ منه بعضاً من الطاقة التي نحتاجها في معزل السجن، فتجولنا معهما في حواري كل من القاهرة ودمشق وعواصم أخرى من العالم مع هيام، وسمعنا من فاطمة أجمل الأشعار وأعظمها للمتنبي وأبو العلاء المعري وإيليا أبو ماضي وإبراهيم طوقان وحافظ إبراهيم وغيرهم من كبار الشعراء العرب من مختلف العصور، وتجلّت أنانيتنا حين تمنينا لهما فترة أطول من السجن!

كان **للخليل وبيت لحم** وضواحيهما حصة؛ كانت **خديجة أبو عرقوب** وقد اعتقلتْ مرات عدة، ومجموعة **لواحظ الجعبري**

والفاطمتان (أبو شرخ، وشتات)، ومن مخيمات بيت لحم كانت **عائشة عطا** ومريم وخديجة **أبو رمّان**، إضافة إلى طالبات من جامعة بيت لحم كانت أحكامهن خفيفة.

من رام الله ومنطقتها، كانت **ربيحة ذياب** (دورا القرع) **خولة عودة** (ديرجرير)، **ونهى عبد الله** (بيرزيت) **وفريال المزين** (البيرة) إضافة إلى مجموعات من طالبات بيرزيت لم يبقين في السجن إلا قليلاً.

من الداخل، كانت **زكية شموط**، التي وضعت ابنتها (**نادية**) داخل السجن لتصبح بهجتنا ومحط عواطف أمومتنا رهن التوقيف بعد أن غادرنا الطفل (فلسطين).

على الرغم من أني نسيت اسم السيدة الجليلية بثيابها التقليدية، فإني لن أنسى صورتها وهي تحدثنا بلغة الأم وعواطفها. اعتقلت هذه الأم الكبيرة في السن، لأنها استقبلت ابنها الذي كان غائباً عنها منذ النكبة وتسلل عبر الحدود الشمالية، وجاء لزيارتها ونام في حضنها ليلة كاملة. كانت تضم يديها إلى صدرها كما لو أنها تضمه، تغمض عينيها وتسكت، ثم تفتحهما وتقول: "بتصدقن يا ابنياتي، إنهم قالولي إني خاينة عشان ما وشيت بابني إللي ما شفته من ثلاثين سِنِة، وبدهن إيّاني أكون سلمته إلهن! كيف يا ابنياتي بيطلبوا من إم تسلّم إبنها! بشريعة مين بصير هذا يا ابنياتي؟!" ثم تسكت وتغلق عينيها وهي تهزّ برأسها وتضم يديها إلى صدرها.

شهداء غزة

وحدها غزة لم ترفدنا بمزيد من المناضلات بعد حرب تشرين، لكنها رفدتنا بأسطورة الشهداء التي تحمل القناديل وتجوب

الشوارع والحارات ليلاً! كل واحدة من بنات غزة تعود من زيارتها تحمل القصة ذاتها: "ما أن يحل الظلام، حتى يخرج الشهداء من قبورهم، يحملون القناديل ويجوبون الشوارع والحواري"، والأهل يحلفون الإيمان تلو الإيمان أنهم رأوهم بأم أعينهم! نظرنا إلى القصة على أنها أوهام، ولم نستطع أن نرى في حينها، رمزيتها العالية التي يحتلها الشهيد في ضمير شعبه. لم ندرك أن الشعوب الحية والمقاومة تنتج أساطيرها الخاصة لتمثل روحها التي تتحدى الظلم والظلام، فيمتشقون مشاعلهم من أعماق روحهم، ومن أجدر من الشهداء يضيئون تلك الأعماق؟

أهل غزة كانوا غارقين في ثياب الحداد على أثر القمع الدموي الذي أغرقهم فيه شارون، لم يحتملوا السكون، فجاشت أعماقهم تستنهض الشهيد فيهم لقدرته على التحدي والانتصار.

مسرحية ومفاجأة

قررت سونيا النمر أن تُخرج لنا مسرحية، والنص؟ سنتفق على تحويل رواية نجيب محفوظ "حكاية بلا بداية ولا نهاية" إلى نصّ مسرحي وسأشاركها في كتابة الإعداد. ستقوم هي بإخراجه وتشاركها رسمية وتريز وأخريات في التمثيل والإخراج والملابس والديكور، وستفاجئنا تريز هلسة بمفاجأة تدهشنا وتهز الإدارة.

كنا نجلس في غرفة الطعام استعداداً لمشاهدة العرض المسرحي. لم نكن ننتظر بالطبع ظهور ممثلات بغير ملابس السجن. فجأة، رأينا شيخا بلحية بيضاء طويلة، وبعمامة وملابس بيضاء يجوب الممر. ثم ظهر شاب ببدلة وربطة عنق، وسيدة تلبس ثياباً ملونة وأنيقة! ولوهلة، أحسسنا أن بشراً من خارج المكان هبطوا علينا!

أذهلتنا المفاجأة، وصدمت السجانات، وسندفع ثمنها غالياً، حيث صودرت الكتب والأشغال اليدوية لأكثر من شهر. لكن كيف فعلت هذا يا تريز؟

دأبت تريز على التقاط قصّاصات الأقمشة من المخيطة دون أن تجعل السجانة تلحظها. بهدوء (وبالتنسيق مع المخرجة والممثلات) ظلّت تنكبّ في الليل على إعادة توليف تلك القصّاصات، ولم توفر الشراشف لإنجاز تلك المفاجأة المبهرة. ثم كانت لنا مفاجأة ثانية.

منذ قررنا الاحتفال بعيد ميلاد نادية الصغيرة التي ستبلغ السنتين، بدأنا التدرّب على دبكات وفقرات أخرى، وتجهيز الهدايا. سونيا وعفيفة -العاملتان في مطبخ القسم "ب"- عملتا بالسر على تجميع حصصهما من البيض والسكر والزبدة ليفاجئننا بصينية كبيرة من كريم كراميل تنبهر بها عيوننا ويسيل لها لعابنا، ولم أذق حتى الآن ألذ من ذلك الكريم!

بنات كهانا

دخلت السجن شابتان أشكنازيتان بتهمة إحراق مكتبة لإحدى كنائس القدس وبحكم مدته ستة أشهر. احتفلوا بهما أيما احتفال. افتخرت سجيناتهم أمامنا بأنه أصبح عندهن سجينات سياسيات مثلنا! جندن أنفسهن لخدمتهن. الإدارة والسجّانات والقوانين، تجندت كلها لتحويل فتاتي كهانا إلى أميرات. خُصصت لهن غرفة كبيرة بعد أن أخرجت منها الأسرّة ذات الطابقين، ووضع بدلاً منها سريران مفردان وطاولة وكراسي وثلاجة صغيرة، وسمح لهن بإدخال الأطعمة التي يشأن، وأدخلن أدوات موسيقية وألوان وأدوات رسم وألعاب مختلفة. حظين بزيارات مفتوحة لمن يشاء

ومتى يشاء والوقت الذي يشاء. كانت زياراتهن تتمّ في غير غرف الزيارات ودون حواجز، ولم يطلب منهن العمل، ومع ذلك، أبقوا الأبواب مفتوحة طوال اليوم يتحركن كما يشأن. ومن الشهر الأول سمح لهن بإجازة خارج السجن لمدة يومين!

السجينات الإسرائيليّات شاهدن أميرتيهما تلعبان الشطرنج. قلن لهما، نريدكن أن تغلبن الفلسطينيات، هل تستطعن ذلك؟ طبعاً، قالت بنات كهانا. هددتهما السجينة "فيكي" التي كانت تغار من امتيازاتهن: إذا لم تغلبن الفلسطينيات، فستعرفن ما سيحل بكن.

في أحد الأيام، كنت ومريم نلعب الشطرنج في الساحة ما بين القسمين. جاء عدد من السجينات يطلبن برجاء أن نتبارى مع بنات كهانا في الشطرنج. بعد تفكير وافقتُ. جاءت إحداهن وجلست أمامي دون أن نتحدث معاً. بدأت اللعبة. في الخطوة الرابعة، كش ملك. انسحبن مطأطئات الرؤوس. أطلقت "فيكي" المسبات الصعبة على بنات كهانا الأشكنازيات! وأفرج عنهما قبل أقل من نصف فترة حكمهن!

والخارج أيضاً

عملية معلوت

صحيح أننا نريد وضعاً حَيَويًا داخل السجن يساهم فيه تدفق المناضلات إليه، لكنه صحيحَ أيضاً أننا نحلم باللحظة التي نتحرّر فيها. وصحيح كذلك أن عمليات مهمة جرت من أجل إطلاق سراحنا مثل عملية سابينا وعملية ميونخ، إلا أننا ننتظر عملية تتكلل بالنجاح تجعلنا نرفّ خارج الأسر والسجون. جاءت عملية معلوت في ظل النهوض الوطني ما بعد حرب تشرين، حيث انطلقت عناصر من الجبهة الديمقراطية من الجنوب اللبناني، واحتجزت ٣٥ شاباً وشابة كرهائن في مدرسة في مستوطنة معلوت بهدف إطلاق سراح الأسرى، وكان التحرر من السجن قاب قوسين أو أكثر، خصوصاً حين أخذوا فاطمة البرناوي، مشيعين أنه سيطلق سراحها في عملية التبادل وربما سراح أخريات!

عشنا دقائق وساعات من الانتظار القلق لكنه جميل، على أمل أنهم سيأخذون غيرها، إلا أنهم مع ساعات المساء المتأخرة عادوا بفاطمة

وأقفلوا عليها بعد أن صادروا معظم محتويات الغرفة. كانوا غاضبين لأنها سلكت كوطنية متعصبة كما قالوا! في اليوم التالي، تألمنا على ما جرى وأدركنا تماماً أنهم يفضلون قتل أبنائهم على أن يخرجونا من السجن!

خُلقتْ من جديد

روت فاطمة لنا القصة: حملوني بطائرة هيلوكبتر إلى شمال فلسطين، وكان فيها أسير آخر هو عمر القاسم. قالوا إنهم سيطلقون سراحنا في اللحظة التي يطلق فيها المحتجِزون سراح الرهائن، وهذا يتطلب أن أتحدث مع الخاطفين لإقناعهم بإطلاق سراح الرهائن! تنبهت إلى أنهم يستغفلونني ويعملون مني كميناً وطُعماً للمقاتلين الذين يحملون أرواحهم من أجل إطلاق سراحي. كيف سأقول إنهم أطلقوا سراحي وأنا ما زلت بين أيديهم؟

أعطوني مكبراً للصوت. كانت المدرسة أمامي، تمنيت لو أصبح إلى جانب الفدائيين، نظرت حولي، فرأيت جنوداً يقتسمون الساندويش فيما بينهم، انتفضت من الأعماق، وفكرت: يقتسمون الساندويشة فيما بينهم ويطلبون مني أن أخدع إخوتي ورفاقي؟ "الموت أهون من ذلك". أحسست بأن قامتي انتصبت كما لم يحصل من قبل، تناولت السماعة ورفعت رأسي. كانت الفرحة تعلو وجوه الذين حولي.

"هذه فاطمة برناوي، تحييكم، يريدونني أن أقول إنهم أطلقوا سراحي ولكني ما زلت بين أيديهم". خطفوا السماعة من يدي وقد جن جنونهم، واقتادوني بعنف إلى طائرة الهيلوكبتر وهم يسمعونني أقذع الكلام. ورغم الخوف، لم أعش لحظة اعتزاز بالذات كالتي كانت بعد حديثي في السماعة. أحسست بأني خلقت من جديد.

تردد اسمي في هذه العملية، فأحسست بديْن ثقيل تجاه الرفاق الذين استشهدوا. خلق ذلك عندي حالة من التأمل، وقد يكون تفلسفاً فيما يخلقه النضال فينا من روابط جديدة ومن قيم تسمو على غيرها، إذ كيف لهؤلاء الرفاق، وهم ليسوا إخوتي ولا من أقربائي ولا أحد منهم يعرفني، أن يقدموا أرواحهم من أجلنا؟ كم من الناس تدرك عظمة هذا الفداء؟ وكيف لهذا الفعل أن يتغلغل عميقاً في وعي كل الناس؟ وهكذا، أصبحت نماذج الاستشهاد والتضحيات، أهم أدواتنا في الشحن وبناء الوعي، فقررنا أن تكون العمليات الفدائية بأبعادها الإنسانية، مادة في مناهجنا التعليمية والتثقيفية داخل السجن.

توالت العمليات التي استهدفت إطلاق سراحنا، وكانت أبرزها **عملية عنتيبة** ومن ثم **عملية دلال المغربي**.

- **عملية عنتيبة**: عمقت هذه العملية الإحساس عندنا بأن عدالة قضيتنا تمتد على مساحة الكرة الأرضية، وأن لا غرابة في أن يطال فعلنا مختلف القارات. قلنا إن عنتيبة بعيدة عن الفعل الإسرائيليّ، ولهذا ستنجح، وبدا إطلاق سراحنا قاب قوسين أو أدنى. عشنا لحظات كان الزغب خلالها ينمو على أجنحتنا. جمعنا أوراقنا ووضعنا ملابسنا تحت الفرشات لتبدو مكوية، ولم ننم كي لا يأتي فعل تحررنا ونحن نيام، بل جلسنا ننتظر، لكن البساط سحب من تحتنا، وتدفّق إعلامهم ليحوّلهم من جديد، فوق القدرة البشرية. شعرت أني تسممت بذلك الإعلام، فأصبحت الحياة ثقيلة، وترافق ذلك مع إهانات ومماحكات من قبل بناتهم اللواتي لا نستطيع أن نضع أنفسنا في موازاتهن، فترك فشل العملية إحباطاً سيكلفنا جهوداً للتغلّب عليه.

- **مشاعل دلال المغربي**: إنزالٌ بقوارب مطاطية بالقرب من شواطئ تل أبيب، ومجموعة فدائية تجوب الشوارع، واستيلاء على حافلات، وقائدة العملية فتاة وتعلن إقامة دولة فلسطين من على حافلة تجوب شوارع فلسطين! يا لعظمة الجنون وروعته! أي شهاب يعبر سماءنا ويقذف بنا إلى مدارات بعيدة فنحتاج إلى فترة طويلة ليستقر السير عليها؟ وأي أبواب تشرعها الثورة الفلسطينية حين تقرّ بأهلية فتاة لقيادة عملية كهذه؟ لم نلتفت لإمكانية تحررنا، فهذا تحدٍ لن تقبل به إسرائيل أبداً، لكنه حدث سيضيء مشاعل تبدد ليل الهزائم. هزنا الحدث من الأعماق، وإعلان القائدة عن دولة فاق كثيراً جنون فكرتنا في إقامة دولتنا فوق بقعة أرض في سجن الرملة. هي تعلنها للعالم وتدافع عنها بسلاحها لساعة من الزمن وتستشهد دونها، ونحن نعلنها لأنفسنا ونسوّرها بقلوبنا. حين أعلن التلفزيون بعنجهية مبالغ بها عن انتصاره على دلال ومجموعتها، لم نرَ فيها شهيدة فحسب، وإنما مارداً يفتح بوابة هائلة تعبر منها كتائب وجيوش وجموع لاجئين تزغرد عائدة إلى أرض وطنها.

جبهة رفض

تشكلت جبهة الرفض على أثر النقاط العشر والبرنامج المرحلي الذي تبنته منظمة التحرير الفلسطينية. أما نحن فلم نسمح للخلافات والصراعات السياسية في الخارج بأن تنسحب علينا، إلى أن دخلت إلى السجن مجموعة من جبهة الرفض، الجبهة الشعبية العام ٧٥. كانت المجموعة تتكوّن من؛ **فايزة الوشاحي**، والأختين **سعاد وعزيزة الحافي**، إضافة إلى **سهام جرادات**، و**نهي الطاهر**.

فايزة كانت قائدة المجموعة، طالبة في سنتها الرابعة في الجامعة الأردنية. ذات كاريزما رغم صغر حجمها ووجهها الطفوليّ، إضافة إلى كونها صاحبة نكتة؛ **سعاد الحافي** طالبة في الجامعة الأردنية كذلك، والدها توفيق الحافي من قياديي حركة القوميين العرب في منطقة جنين. تميل إلى الانزواء؛ أختها **عزيزة** أنهت التوجيهي وتنتظر دخول الجامعة؛ **سهام** طالبة توجيهي، تبدو فتاة سعيدة بشكل دائم؛ أما **نهى الطاهر**، فهي طالبة توجيهي كذلك، لكنها توحي بأنها تحمل أعباء فلسطين على كاهلها!

فايزة تختلف عن باقي مجموعتها كونها ابنة مخيم، عانت وتعاني أكثر من غيرها؛ وترى أنها ابنة القضية أكثر من غيرها. منذ يومها الأول، بدأت الهجوم وأطلقت الأوصاف على قوى سياسية معينة واصفة إياها بسلسلة من الصفات، تبدأ بالمستسلمة والمنبطحة إلى أن تصل إلى الخيانة. حرّكت الأجواء الراكدة وبدأت نقاشات سياسية حامية الوطيس كادت تقود إلى انقسامات من السهل أن تبدأ ومن الصعب أن تنتهي. دلال أبو قمر (ابنة المخيم) كانت الأكثر حماساً لطروحات جبهة الرفض. أثارتها طروحات فايزة أيما إثارة. أبدت تحفزاً واستعداداً حتى لضرب من لا يستجيب لتلك الطروحات. هذه الطروحات جذبت عدداً آخر مثل تريز هلسة (فتح) وصاحبة كاريزما، وواجدة عيّاش (جبهة ديمقراطية) وغيرهن. أصبح لدينا تكتل واضح اختلطت فيه القضايا السياسية بالقضايا الشخصية. خفنا من أن تجد الإدارة فيها فرصة تحلم بها.

كان لا بد من التحرك السريع لامتصاص هذه الموجة من التوتر. تطلب ذلك جهوداً لم تكن سهلة، أخذت منا ساعات طوالاً وأياماً. قسمنا المهمات: مريم الشخشير تحاور سهام ونهى اللتين كانتا متأثرتين بدرجة كبيرة بها، رسمية تحاور تريز التي شكلت

قطباً رئيسياً للجذب في هذه المجموعة. عائدة سعد تحاور واجدة وفاطمة أبو شرخ ولواحظ الجعبري التي حاولت أن تقف وسطاً بين الطرفين. وأما أنا فعلي محاورة فايزة التي اعتقدت أن محاورتها ستكون صعبة:

- يا فايزة؛ هل تضعف أفكارك إذا تم طرحها بمنطق دون إطلاق الاتهامات والتخوين؟ لماذا تحتاج الفكرة الصائبة إلى المسبات والاتهامات؟ يا فايزة؛ نحن هنا نقرع جدران الخزان، ندافع عن قضيتنا ونؤكد وجودنا، وهذا يتطلّب بقاءنا متماسكات وعلاقاتنا مع بعضنا مريحة، فهل هذا هدف مبالغ فيه ويضرّ بقضيتنا؟ وهل ضميرك يرتاح وتخدمين قضيتك بشكل أفضل عندما تدخل دلال على حلقة نقاش وهي تهدّد وربما تضرب وتُضرب؟ ثم أنك ستغادرين السجن سريعاً بينما تخلفينَ لنا (نحن المحكومات مؤبدات) المشكلات والصراعات التي لن تؤثر إلاّ في تحويل السجن إلى جحيم. هل تعتقدين أننا طليقات كما في الخارج، حيث يقتتل الناس، ثم يذهب كل في طريقه، وربما يتدخل أهل الخير لحل ما ينشأ من إشكالات؟ أمّا هنا، فالعدو هو الذي يتدخل! فهل تفكرين بنتائج اتهاماتك ولغتك النارية والتحريضية؟

أطرقت فايزة برأسها، ثم أجهشت في بكاء مرير وارتفعت شهقات زفيرها. احترتُ. ما الذي أبكاها؟ هل أسأت لها؟ لكنّها لاذت بالصمت. نظرت إلي مرّة فزاد بكاؤها ثم انسحبت وانزوت في قرنة ولم تسمح لأحد بالاقتراب منها. بعد ساعات، جاءت وبدأت تقبلني وتقبل مريم ورسمية وعفيفة وعائدة وتريز وعادت إلى البكاء والنشيج الذي لم نعرف كيف نساعد على إنهائه.

فايزة بكت أحكامنا المؤبدة!

على الرغم من سعادتي للتحوّل الذي طرأ على أسلوب نقاش فايزة من الأسلوب الناري الزاخر بالاتهامات، إلى أسلوب يليق بالحكماء وبطالبة جامعية ستتخرج بعد أشهر، إلا أنني امتعضت من فكرة البكاء على المؤبدات، إذ يضعني ذلك في دائرة الشفقة التي تؤذيني وأرفضها.

لودوين الهولندية

دخلت السجن تحمل حكماً بأربع سنوات. هي طالبة جامعية في بداية العشرينات من عمرها، تؤمن بعدالة القضية الفلسطينية، وترى النضال من أجلها أولى أولويات النضال العالمي. إنها لودوين التي أحببناها وأصبحت واحدة منا كما لو أنها نشأت وترعرعت معنا. كانت فتاة محبة وحنوناً، التزمتْ معنا بكل شيء. أرادت دراسة اللغة العربية، فخصصنا لها دروسا يومية، حتى أصبحت تحمل كتب غسان كنفاني تحت إبطها لتجلس بالقرب من واحدة منا تسأل عما أغلق عليها فهمه، ثم صارت تقرأ قصصاً للنساء الأميات. وقد تعاملت معها السجّانات والإدارة كفلسطينية لا كأجنبية.

كان والداها يحضران لزيارتها بين فترة وأخرى، فتقوم بتوزيع كل ما تحصل عليه، ولا تأخذ منه إلا مثل أية واحدة منّا. أذكر اللعبة الذهنية التي أحضرها لها والداها. سبعة أشكال هندسية من مثلثات ومعين ومربعات، ومعها ورقة رُسِم عليها أكثر من ألفين من الأشكال، يمكن تشكيلها بواسطة القطع السَبع، فاستهلكت منا طاقة ووقتا في التحليل، ومن ثم إعادة البناء. لم يفرج عن لودوين في عملية التبادل التي تحرّرنا من خلالها، ولم يفرج عنها إلا بعد انتهاء سنوات حكمها كاملة.

ومن أميركا

لاحظنا حركة غير طبيعية في قسم الزنازين، وأن السجانات يأخذن طعاماً إلى هناك. أدركنا أنها الفتاة الأمريكية التي أعلن عن إلقاء القبض عليها في مطار اللد. تجمعنا وغنّينا: (we shall overcome) وأنشدنا موطني وبلادي. لعبنا وضحكنا بأصوات عالية لنبلغها رسالة بأنها ليست وحدها. كانت بالفعل هي الفتاة الأمريكية **تري جانسون**. حدثتنا عن تأثّرها الشديد بسماعها موسيقى "موطني" كما لو نزلت عليها من السماء فأنقذتها من وهدة اليأس، لإدراكها أنها رسالة لها من قبل فدائيات موجودات بالقرب منها، فمنعها من انهيار كان وشيكاً.

"تري جانسون" كانت في أواسط العشرينات من عمرها. تعرّفت على القضية الفلسطينية من خلال أصدقائها الفلسطينيين. نمط شخصيتها مختلف عمّا عرفناه. هي شديدة التنظيم في كل أمورها. أحاطت نفسها بمسافة تبعدها عمّن حولها. ما لفت انتباهي هو اعتمادها على العقل بشكل كامل، أما العواطف فلا تحسب لها حساباً. هي مقتنعة بعدالة قضيتنا وبعدوانية إسرائيل تجاهنا، لكن منطلقها لا ينبع من موقف أيديولوجي كما هو الأمر مع رفيقاتنا الهولنديات والفرنسيات وناديا بريدلي. كان منطلق تري يختلف، فهي تؤمن بالنظام الأميركي الديمقراطي، وتعادي النظم الشيوعية الشمولية التي تتمثل بنظام الاتحاد السوفييتي، وتعادي كل النظم التي تعتمد نظام الحزب الواحد. أما نحن، فلم تشغلنا الديمقراطية في ذلك الحين. وكنا ندافع عن الاتحاد السوفييتي وننحاز إليه في مواجهة أميركا. ما زلت أذكر مناقشاتي مع تري ودفاعي عن الأنظمة الشمولية ونظام الحزب الواحد، لكني لا أنسى أنها رمت بذرتين في تفكيري لم يَنْبُتا في ذلك الحين،

ولكنهما كَمُنَتا بين تلافيف دماغي، الأولى؛ "عدم صلاحية نظام الحزب الواحد وتعارضه مع حقوق الإنسان وكرامته وحريته. الثانية؛ المقاومة الأعظم هي المقاومة السلبية المطلقة". وحين لم أفهم قصدها، أوردت لي أمثلة من مثل: يمكن للفرد أن يتصرّف في التحقيق بسلبية مطلقة، فلا يتكلم حتى اسمه لا يذكره، لا يأكل، وعليهم هم أن يفتحوا فمه ويضعوا فيه الأكل، لا يذهب للحمام ويمكن أن يفعلها في ملابسه ليضطروا هم إلى حمله وأخذه إلى الحمام. لا ينتقل من مكان إلى آخر، وإذا أرادوا نقله، فعليهم هم أن يحملوه وينقلوه. هكذا يحوّل نفسه إلى ورطة وعبء كبيرين على كاهلهم، لن يكونوا قادرين على حمل تبعاته.

تذكرت تري ونظريتها حول المقاومة السلبية المطلقة، حين شاهدت فيلماً عرضته القناة الإسرائيليّة الثانية ليلة اتفاق أوسلو. دار الفيلم حول ملاحقة جنديين ياباني وأميركي لبعضهما على جزيرة نائية في أعقاب الحرب العالمية الثانية. بين كرّ وفر في مطاردة بعضهما، أمسك الياباني بالأمريكي ثم تخلص الأمريكي من أسر الياباني، وأخيراً أمسك الأميركي بالياباني. فلجأ الياباني إلى المقاومة السلبية المطلقة ليتحوّل إلى عبء غير محتمل على كاهل الجندي الأميركي. ولما كان الأميركي لا يريد قتله، كي لا يبقى وحيداً على الجزيرة، اضطر أن يبرم اتفاقاً مع الياباني، أن يصنعا قارباً لينجوا بنفسيهما من البقاء منقطعين على جزيرة نائية. (في نهاية الفيلم ينفجران معاً على جزيرة أخرى).

محاولة هرب

قبضنا على الفرصة

في صيف ١٩٧٦، هجروا مكان الإدارة القديم بعد أن أقاموا بناء جديداً قريباً من المدخل الرئيس للسجن، وأبقوا العيادة وبعض المكاتب في القسم القديم. كنا (رسمية ومريم وفاطمة برناوي وأنا) عصر أحد الأيام نتمشى أمام الإدارة المهجورة. فجأة، وقعت عيوننا على أمر مذهل: باب إحدى الغرف المهجورة مفتوح، ونافذتها الخلفية دون حماية! نظرنا إلى بعضنا. لقد قبضنا على الفرصة الغالية. أسرعت واحدة منا وأغلقت باب الغرفة المفتوح حفاظاً على الفرصة، وانزوينا نتهامس ونخطط. قالت فاطمة: لوني يفضحني، وقد أتسبب في اكتشافكن سريعاً، لذلك سأخرج من المعادلة.

فرصة الهرب مكتملة تقريباً: نقفز من الشباك الذي لا يرتفع عن الأرض أكثر من متر، فنصبح في الساحة الخلفية البعيدة عن أعين المراقبة. نقوم في حفر الأرض من تحت السور وصولاً إلى

الشارع العام الذي يربط مدينة اللد بالرملة. حددنا منطقة الحفر الأكثر مناسبة. هذه المنطقة عرفناها وشخّصْنا نقاط ضعفها أثناء عملنا في الحقل، إذ اكتشفنا أن السور في إحدى مناطقه مبنيّ فوق الأرض بلا أساسات تقريباً، إذ استطعنا رؤية بعض أجزاء من الشارع من تحت السور من خلال حفرة صغيرة وجدناها بحجم العين. يومها، موّهنا الحفرة الصغيرة، وها هي الفرصة تأتي.

الزنازين القديمة التي تحوّلت إلى مخزن للأدوات الزراعية، تشكل ساتراً للمنطقة المناسبة للحفر. سنطلب من رفيقتنا نهى التي تعمل في الحقل، ترك فأس وطورية خارج المخزن كما لو أنها نسيتها، دون أن نعلمها شيئاً. الملابس المدنية نسرقها من مخزن الملابس بواسطة رفيقتنا العاملة هناك. والفلوس كنت قد وفّرتها منذ فترة، احتياطاً لفرصة كهذه.

بشأن التوقيت؛ علينا إنجاز كل شيء حتى مساء الجمعة. ويمكننا الهرب حين تكون المراقبة قليلة، ويكون الجميع منشغلاً بمشاهدة الفيلم العربيّ الذي يعرض عادة عصر الجمعة على شاشة التلفزيون الإسرائيليّ، أو صباح السبت بعد أن تفتح الأبواب الساعة الثامنة. في هذه الحالة، سيتوفر لدينا الوقت الذي يساعدنا على الخروج من المنطقة قبل اكتشاف غيابنا والبدء في البحث عنا.

تزامن غريب

في اليوم التالي، حضر د. بيرجمان. جلسنا في الساحة أمام البناء المهجور، حيث كنت ورفيقاتي نتمشى. سألني فجأة: ألا تفكرين في الهرب؟

صعقني السؤال. كيف يحصل هذا؟ بالأمس نكتشف الفرصة ونخطط للهرب، واليوم، ولأول مرّة يطرح عليّ مثل هذا السؤال! هل هي مجرّد صدفة أم أن الإدارة عرفت تخطيطنا؟ وكيف حصل ذلك؟ هل يضعون أجهزة تنصت في غرفنا؟

لا بد أنه لاحظ اندهاشي رغم النفي، فقال: فتاة مثلك يجب ألا تبقى في السجن. عليك التفكير في الهرب إذا لاحت لك فرصة. أريدك حرة تتمتعين بحياتك، وأنا على استعداد لمساعدتك.

واحترت! هل هو صادق أم يقوم بدور؟ حتى لو كان صادقاً (قلت في نفسي) عليك بالحذر، الحذر وحده لا يوصل إلى الندم. أضاف كما لو كان متأكدا:

- هذا هو عنوان بيتي: تل أبيب، شارع سوتين، نمرة ٤٠. إذا وصلت البيت، سأعمل على تهريبك في سفينة خارج البلاد. وسأرسل مفتاح البيت ومبلغاً من المال غداً مع عفاف. قد تحتاجينها ذات لحظة مناسبة!

ما أصعب الشك لحظة يكون المرء أشدّ ما يحتاج إلى اليقين.

في اليوم التالي، حضرت عفاف كعادتها في متابعة إنجازاتنا في الطباعة. طبعت بلغة (برايل) بأنها ستدخل الحمام وستضع شيئاً هناك. وعند دخولي بعدها، وجدت في سلة المهملات مفتاحا ومبلغ "٢٠" شيقلاً (كانت تعادل ما يقارب ٢٠ ديناراً أردنيا). شكّت السجانة فتفقدت الحمام، وبعد ذهاب عفاف، صادرت أوراق برايل المكتوبة.

أصبحنا في حالة طوارئ. أكثر ما همنا هو عدم توريط عفاف التي تغامر من أجلنا!

- وما يدرينا أنه ليس دوراً مرسوماً؟
- نحن نتصرّف على أساس أنه دور حقيقي.

استنهضنا خيالنا وتفكيرنا لإخراج عفاف من الورطة. وضعنا خططاً لكلّ الاحتمالات، في مقدمتها استعادة الأوراق قبل إرسالها إلى المخابرات. نشطت عناصرنا في جمع المعلومات وحدّد مكان الأوراق على مكتب (لويزا)، والمكاتب مفتوحة للتنظيف بعد مغادرة الموظفات. والسجانة المشرفة على التنظيف كانت "يودت" وهي أقل السجانات تنبهاً.

تميزت رسمية في المجموعة بجرأتها وإقدامها. طلبت الذهاب إلى العيادة. شغلت فاطمة برناوي الممرضة، بينما دخلت رسمية مكتب (لويزا) بخفة. كانت الأوراق على سطح المكتب. سحبتها وخبأتها تحت ملابسها، وعادت يعلو وجهها البشر. عملنا حفلة، دبكنا وغنينا، وصوت ضحكات رسمية الرنان عمّر القسم.

كل شيء كان على ما يرام. بقيت النافذة مفتوحة. توفّرت الفأس والطورية خارج المخزن. حصلنا على ملابس خاصة. الجمعة وبعد الغداء، تسللنا؛ رسمية وأنا إلى الهدف، وعلى مريم مغافلة السجانات. كل الظروف كانت في خدمتنا. جنديّ الحراسة يقف في الجهة الأخرى غير المطلة على المكان، مستريحاً في الظل. خلف مخزن الأدوات الزراعية تنتظرنا الفأس والطورية. من الصدف المساعدة أننا وجدنا لوحاً خشبياً هناك، فاستخدمناه كستار يصد العيون المستطلعة.

بدأنا العمل بروح مشحونة بالتحدي وتسابق الزمن. كان على واحدة منا استطلاع الظروف وإعطاء إشارة العمل أو التوقف.

كنا نتبادل الأدوار. العمل في البداية كان سهلاً، فاتسعت الحفرة بسرعة. شاهدنا الشارع. فانشحنت طاقة التحدي وأخذ الأمل يتفتح. لكن التربة أصبحت أكثر تماسكاً كما لو أنها تحوّلت إلى صخر. أدواتنا لم تعد مناسبة خاصة للحفر تحت السور مباشرة. أصبحنا في حاجة إلى أداة حفر صغيرة لا مفر. ما هي هذه الأداة وكيف سنوفرها؟ حسنا، ربما ليس أمامنا سوى الحصول على ملاعق وشوك ومغارف من المطبخ.

بسرعة تسللت إلى القسم. كان الجميع يتابع الفيلم فلم ينتبه لي أحد. أخذت من المطبخ ما أحتاج، أخفيتها تحت ملابسي وعدت إلى رسمية التي استمرت في الحفر بواسطة أصابعها. كنا نسابق الزمن، لكن وقت العد وإقفال الأبواب الخارجية عند الساعة السادسة قد حان، ولا بد من العودة كي لا يفتقدونا. كان قد بقي لنا عمل قليل حتى ننجز الحفرة التي تسمح لأجسامنا بالمرور. غداً صباحا نكمل المهمة. وغداً سيكون لنا موعد مع الحرية. عدنا إلى القسم كأن شيئاً لم يحدث، لكن مريم نبهتنا إلى ضرورة الذهاب إلى الحمام سريعاً، لأن الأتربة عالقة بثيابنا.

تزرع ملوخية!

رتبنا أمورنا ليبدو كلّ شيء طبيعيا وفي حاله المعتاد. بعد الإفطار، تتسلل رسمية لإكمال العمل إلى حين اللحاق بها. أقوم أنا بإعطاء حصة رياضيات قصيرة لبعض الطالبات، وأتعمد أن تراني السجانة، وتقوم مريم بتنظيف الممر كالمعتاد، ثم نسرع بالالتحاق برسمية.

في المساء وأثناء الليل، كنا نراقب سلوك السجانات والأجواء، فلم نلاحظ شيئاً.

هل نمنا تلك الليلة ونحن نترقب مجيء الغد واحتمالاته المتعددة؟

في الصباح ومع الدقائق الأولى من درس الرياضيات، دوت صفارة الإنذار.

ما إن نزلت رسمية داخل الحفرة حتى تم تطويقها وطلب منها رفع يديها. سألها أحدهم: ماذا تفعلين هنا؟ أجابتهم ساخرة: أزرع ملوخية.

وجرى التحقيق معها:

- من كان يشاركك الخطة؟
- لا أحد.
- هل يعقل أن مريم وعائشة ليستا مشاركتين؟
- أبداً، أنا لم أرغب في مشاركة أحد.
- أليس من العيب أن تخوني الأمانة!
- عن أية أمانة تتحدث؟ لست غبية لتقول لي هذا الكلام، إن العيب ألا أحاول الهرب.

ومن التحقيق إلى سجن غزة لمدة ثلاثة أشهر.

على أثر هذه العملية، هوجم السجن من وحدات جيش، وأجري تفتيش دقيق، وصودرت كل قطعة ملابس غير مطبوعة بطابع السجن، وابتدأت ورشة عمل لرفع أسوار السجن وتكثيف أسلاكه الشائكة فوق الأقسام وحولها، وخصوصاً قسمنا. أقفلتْ كل الساحات في وجهنا وخضعنا لإجراءات مشددة، ولم يعد بإمكاننا التجول إلا في ساحة القسم (ب)، كما ضاعفوا عدد السجانات في القسم.

انقلاب سياسي

على أثر الانقلاب السياسي الذي حصل في الكيان الإسرائيليّ نتيجة انتخابات العام ١٩٧٧ ، حصل انقلاب مماثل داخل السجن تمثّل في تعيين "حياة شوهم" من حزب الليكود نائبة للمديرة. النائبة الجديدة متشددة وصقرية، حاصرت المديرة وصادرت صلاحياتها منذ البداية، وشكلت حلفاً مع المتشددات من أمثال يعل وراحيل وتسيونة وأخريات، وفرضت سياسة الليكود علينا. كشّرت عن أنيابها وبدأت الهجوم منذ البداية.

أحضرت أقمشة جيشية لخياطتها وفرضت على من يعملن في المخيطة خياطة ملابس الجيش، فرفضن. اعتبرت الرفض تمرّداً خطيراً كونه نابعاً من موقف وطني وقالوا: يجب أن تعملن ما نطلبه منكن، وإلا سنقفل الأبواب. رفيقاتنا لم يناقشن، بل وقفن للعودة إلى الغرف. إنه تحدٍّ جديد! ذهبوا إلى رفيقاتنا اللواتي يعملن في الحقل وأحضروهن إلى المخيطة للعمل في خياطة ملابس الجيش، فرفضن. أعدْن إلى الغرف وأقفلت الأبواب خلفهن. ذهبوا إلى من يعملن في المَطبخ، فقلن: لا تتعبوا أنفسكم، نحن ذاهبات إلى الغرف.

هي معركة إذن.

في الصباح التالي، وأثناء جولة فتح الأبواب، كانت الضابطة تسأل: هل تردن الخروج إلى العمل؟

- أي عمل؟
- في المخيطة.
- وأي عمل في المخيطة؟
- العمل الذي طلب منكن في الأمس.
- لا.

أقفلت الأبواب ولم تخرج أية واحدة منا إلى العمل.

أثناء فورة نصف الساعة، تداولنا الآراء حول الموقف وكان هناك وجهتا نظر: الأولى تقول، إذا طُلب ممن يعملن في الحقل وفي المطبخ العودة إلى عملهن، يخرجن، وتبقى اللواتي يعملن في المخيطة. وجهة النظر الثانية تقول إنه لا يجوز إلقاء العبء على بعضنا دون الآخر، وعلينا مواجهة الموقف جماعة. انتصر هذا الموقف.

صعدّت الإدارة من موقفها، فقاموا بتقليص مدة الفورة إلى ربع ساعة، ثم أخرجوا كل غرفتين وحدهما. بعد ذلك أخرجوا كل غرفة وحدها. قلنا: لينشغلوا بنا طوال اليوم، يفتحون غرفة ويقفلون أخرى، وقمنا بوضع برنامج لنا في مواجهة برنامجهم: الفترة الصباحية للمطالعة والأشغال اليدوية. بعد ذلك، نعمل برامج مشتركة. فترة الرياضة وفترة الأغاني والأناشيد، فترة الضحك والفرفشة. قرعة واحدة على الأبواب تعني البدء في النشيد، حتى يمتلئ السجن بصوت أناشيدنا. قرعتان تعنيان البدء

بتمارين الرياضة، كل في غرفتها. التمرين الأول ١، ٢، ٣، ٤، التمرين الثاني، فالثالث فالرابع. ثلاث قرعات تعني بدء برنامج الضحك والفرفشة.

أقفلوا طاقات الأبواب. أحضروا الأكل ساندويشات. وفي يوم تالٍ اقتحموا الغرف وصادروا جميع الكتب والدفاتر والأقلام والأشغال اليدوية. كان ردنا بالطرق على الأبواب حتى تحول السجن كله إلى ضجيج لا بد أنه وصل إلى سجن الشباب. ثمّ صعّدوا من إجراءاتهم، ولم يخرجونا ربع ساعة الفورة.

ومع التحديات، يتحول لون الحياة الكالح وإيقاعها الساكن إلى حيوية وتفجر، و"يا أهلاً بالمعارك، ويا بختِ مين يشارك"، وفي المواجهات، تتجدد حيويتنا وتتوحد إرادتنا وتخلق تحديات لعقولنا. نكسر روتين السجن الممل!

غازٌ داخل الغرف!

كنت ورسمية نسكن معاً في غرفة صغيرة. فجأة، سمعنا صراخاً. اقتربنا من الباب لاستطلاع الأمر، وإذا بكوة الباب تفتح بعنف وتُرَشّ وجوهنا مباشرة بمادة كاوية. اشتعلت وجوهنا وانضم صراخنا إلى جوقة الصراخ. مددت يدي إلى وجهي ظنّاً بأني سأطفئ ناراً تشتعل فيه، ولأتحسس عيني حيث تخيلت أنهما انفقأتا. جريت إلى حنفية الماء فازداد وجهي اشتعالاً، لم تعد لي قدرة على التنفس. لم نعرف ما الذي يتوجّب عمله في مكان صغير ومقفل، ونحن لا نعرف المادة التي تشعل وجوهنا. كان الصراخ حائطنا الوحيد الذي نتكئ عليه.

بعد توحدنا في جوقة صراخ مُحاصر، انسحب الجيش وقد أنهى مهمته في تدمير قواعد الأعداء! مع الوقت، أخذ الإحساس بالحريق والاختناق يهدأ شيئاً فشيئاً. ساد القسم صمت. فجأة، علا هتاف: "فلسطين عربية"، كان اشتعالاً في هشيم. علت الهتافات من خلف الأبواب المقفلة. توحدت الحناجر في أنشودة: "موطني، موطني .. لا نريد.. حكمنا المؤبدا.. وعيشنا المنكدا...". شقت الأناشيد سماء الصمت الكئيب، كزهرة تشق صخراً.

بعد يومين وربما ثلاثة، تم استدعاء ثلاثتنا؛ رسمية وعفيفة وأنا، إلى الإدارة. قلنا؛ بعد المعارك حان وقت المفاوضات. لكن ظنّنا خاب. كانت الحرب مستمرة، والهجوم متصاعداً. كان جنود وسيارة شرطة (زنزانة) في انتظارنا. أمرونا بالصعود فرفضنا وطلبنا الاتصال بالمحامي وبالصليب الأحمر لمعرفة الجهة التي سيأخذوننا إليها. أسرعوا وقيدوا أيدينا وسحبونا بالقوة، رافقتنا السجانة "رفقة" تحمل ملفاتنا!

نحو المجهول

تحركت الزنزانة إلى المجهول! إلى أي مكان قصي يأخذوننا؟ في أي معزل سيضعوننا؟ هل سنبقى معاً أم ستودع كل واحدة في مكان منفرد؟ هل سيعلم عن مصيرنا أحد؟ أم سنصبح في علم الغيب؟ كانت الأسئلة تطنّ في رأسي ولا بد أنها كذلك مع رفيقاتي. خيّم صمت ثقيل. في مثل هذا الموقف، لا بد من فلسفة، من رؤيا، للاستناد إليها، وكانت فلسفتي أن الأسوأ هو ركود الحياة على الوضع نفسه دون جديد.

"ليكن،

لا بد لي، أن أرفض الموت،،،،".

عبر شبابيك الزنزانة المتحركة، اندفع منظر العالم الخارجي كما يندفع الهواء الطازج إلى رئتين طال تنفسهما بهواء فاسد! تأكد توقي للتغيير وقد انفرج توتري وحدثت نفسي: جاء التغيير في وقته المناسب!

أشارت الظلال إلى أننا نسير في اتجاه الجنوب. كنا بين فترة وأخرى نمرّ من جانب مُجمّعات سكنية وبيوت يغطي سطوحها قرميد أحمر، خالية من الشرفات وتدير ظهورها إلى الشارع! غريب، قلت في نفسي: بيوتنا لا تخلو من الشرفات أبداً، وتدير واجهاتها نحو الشارع! فأي دليل لهذه المفارقة بينهم وبيننا؟

عبرنا سهولاً خضراء، تُرشّ بالمياه من حنفيات تلفّ وتدور. رأينا بيّارات برتقال وحمضيات. هذه إذن سهول فلسطين وبياراتها التي يتغنى بها الشعراء ويبكيها المهجرون. في أية بقعة من فلسطين نسير؟ ماذا لو أستطيع الإفلات والهرب! لو أملك أجنحة للطيران! لو تتحقق أسطورة طاقية الخفاء! ماذا لو تحولت الأحلام والقصص إلى واقع؟ ماذا لو تلوح فرصة حقيقية للهرب! كيف سنعرف وإلى أين نتجه؟ لماذا أحجمتُ عن التعرّف على فلسطين والتجوّل فيها بعد هزيمة الـ٦٧؟ كانت فلسطين، كل فلسطين من أقصاها إلى أقصاها مفتوحة للتحرك ومعرفة التفاصيل. على أثر زيارة (أخي وأنا) إلى قرية دير ياسين غداة هزيمة العام ٦٧، مادت الأرض تحت أقدامي! وما أسهل أن تميد الأرض تحت أقدام الغافل والمهزوم، فكان قراري هو الانكفاء! كم من الأشعار عن فلسطين الحبيبة حفظتُ ورددتُ وألقيتُ، وعندما أتيحت الفرصة لرؤيتها والتعرّف

عليها، خشيتُ من وقع هول الهزيمة، وجبنتُ عن مواجهة حقائق الواقع المؤلمة، وها أنا الآن أواجه هذه الحقائق: هذه أرض وطننا، سهولنا، بياراتنا، نمرّ عبرها غرباء ومتهمين، أسرى ومقيدين! فأية مفارقات!

كنت غارقة في أفكاري وحديثي مع نفسي حين قطعت عفيفة الصمت المخيّم، بسؤالها: إلى أين ذاهبون؟

أجابت "رفقة": إلى سجن غزّة

شوق إلى غزة يكمن في أعماقي لا أعرف كنهه، ربما يرجع إلى القصص التي سمعتها من بنات غزة، وكانت (البيايير) تحتضن الفدائيين وتخبّئهم. وربما من قصص سمعتها من أخي الذي عمل فيها مدة عام قبل النكبة، فتصوّرتها مدينة تنام على شاطئ البحر، وتتدثر بأشجار البرتقال والليمون، وعلى أثر هزيمة ٦٧، جاءت امرأة في الخمسين من عمرها، تلبس "الداير الأسود والقنعة"، تبيع الملابس وتنام عندنا، وكثيراً ما أحضرت لنا سمكاً مقلياً ومعه ليمون، كان شهياً رغم أنه كان حاراً. قررنا الذهاب إلى غزة لزيارة الصديقة الجديدة، لكن الرحلة تعطلت مرّة تلو الأخرى لأسباب مختلفة. ويا لمكر التاريخ. ها أنا أذهب إلى غزة مقيدة اليدين، وإلى عنوان واحد أحد، هو السجن!

لا بأس (في الحركة بركة) تقول أُمي. أنا في حاجة ماسة للتغيير حتى لو كان مصيبة! ذلك خير من سكون الحياة كما الماء في المستنقع، سكون يعدي الروح والنفْس والجسد. أفهم الآن "ماهرة" ابنة قريتي وصديقة طفولتي، كما لم أفهمها من قبل. حين علمتُ عن قرارها وأهلها الرحيل غداة حرب ٦٧، ذهبت لإقناعهم بالثبات في أرض الوطن. أخذتني جانباً وقالت برجاء: لا تقفي في وجهي،

أريد أن أخرج من هذه القرية التي تشعرني بالاختناق. حدثتها عن الوطن فقالت بشيء من نفاد الصبر: سأتركه لك. أما أنا فلا أشعر به. إني مخنوقة وأريد أن أخرج حتى لو إلى جهنم. ثم أردفت للتخفيف من وقع كلماتها: لو كنت مثلك، أعمل، أروح وأجيء، أتحرّك، لاختلف الأمر.

قلت لها إن أسباب منعها من الحركة سترافقها أيضاً في الخارج. لكنها قالت: "في الحركة بركة" ولا بد أن شيئاً ما سيتغير، وها أنا أقول مثلها: "في الحركة بركة". كل حدث هو تجربة جديدة يرافقها انفعال جديد وأناس جدد، أو الابتعاد عن أناسٍ وجودهم وصل حد الملل. وها أنا أشاهد شوارع وبيارات وبيوتاً وأشجاراً ربما تزورني في الأحلام بدلاً من الكوابيس! سأنتقل إلى سجنٍ جديد وظروف جديدة. سألتقي مع أسيرات جديدات (اعتقاداً مني أنه لا بد من وجود عدد من الأسيرات في سجن غزة). هذه وحدها تغني. أحب قراءة البشر كالكتب. والرفيقات اللواتي بقين في الرملة ربما سيرتحن منا، ربما كان وجودنا معيقاً لهن! نعم في "الحركة بركة".

وعي ووعي

مستغرقة في الحديث مع نفسي ومنصرفة عن الاستماع إلى ثرثرات "رفقة" التي تدور في العادة حول نفسها. أمتع نظري بالخضرة والبساتين اليانعة ومظاهر الحياة في الخارج. بدأت مظاهر الأرض والزراعة تتغير: ها هي منطقة بور، أشواكها عالية وكثيفة، انقبضت نفسي. الأرض البور كناس في ثياب رثة. بدأت تظهر بيارات تميل خضرتها إلى الاصفرار أوحت لي بالإهمال وبحاجتها إلى الماء. زاد انقباض نفسي، فهذه لا شك أنها خاصتنا ومجاميع نباتات الصبر

حولها تؤكد ذلك، بدأت أقع في فخ وعي خطير، أقارن بين يناعة بياراتهم واصفرار بياراتنا بما يثبت تقدمهم وتأخرنا، وما يخلقه هذا من تكريس وعي الهزيمة وتكثيف الإحباط تماماً مثلما حصل معي غداة زيارتي للقدس بعد هزيمة ٦٧ مباشرة. ثم بدأت تظهر تجمعات سكنية مكتظة تشعّ تعاسة وترسلها أمواجاً التقطتها روحي ودفعتها إلى الغوص في المزيد من الأسى. كانت هذه مخيمات اللاجئين. مررنا من أزقتها. لم يسبق أن رأيت مخيم لاجئين بهذا الحجم. مخيما الأمعري والجلزون اللذين أعرفهما لا يشكلان حارة صغيرة من هذا الذي نمر عبر أزقته. وددت أن أهرب وأتقوقع داخل ذاتي كأني ما كنته في ١٩٦٧ لا في ١٩٧٧! أناخ الإحباط بكلكله وبدأ يعظّم مظهر تقدمهم ويقزّمنا من خلال تضخيم مظهر تخلفنا، وكان الفرق شاسعاً! ما أتعس تلك اللحظة!

لا لا، أين الوعي؟ هذه مقارنة ظالمة، بأي حق يرمى هؤلاء البشر خارج بيوتهم وأرضهم التي تقع على مرمى حجر من أبصارهم، ويحاصرون ويحجز تطورهم، ويحال دون عودتهم إليها، بينما يفرض عليهم العيش في عَدَم كهذا، ويجُلب أناس آخرون من مختلف زوايا الأرض لينعموا بأرض هؤلاء اللاجئين، يحرسهم جيش قوي يثبت الواقع الظالم كما لو كان صراعاً بين تقدم وتخلف؟! لا، إنه الظلم المطلق ذاته، الذي أدركته ليلة التعذيب الكبرى. كدت أصرخ الـ"لا" ذاتها وأنا أتساءل: كيف للعالم أن يسكت على هذا الظلم، على هذه الجريمة الكبرى؟

ما نسبة الذين تخدعهم هذه المقارنة الظالمة؟

قلعة الرجال

كان المساء قد حل عندما توقفت السيارة في سجن غزة. فكّت القيود من أيدينا وإلى مكتب المدير مباشرة. طلب منا الجلوس، وطلب لنا ماء بارداً. كان يتكلّم العربية كلغة أم -كان درزياً- وخاطبنا: لستُ أنا من طلب إحضاركن إلى هذا المكان، لكني أستقبلكن كما يجب. أعرف أن هذا المكان غير مناسب وغير لائق لكنّ، سأعمل جهدي كي تكون فترة وجودكن هنا أقصر ما يمكن، قد لا يمكنني فهمكن مثل "ريا"، لقد تعوّدت على التصرّف بقسوة مع الشباب، وقد يكون من الصعب عليّ تغيير نهجي. ربما ستدركن خسارتكن في المجيء إلى هنا. وختم كلامه بالقول: بلّغن عن طلباتكن للشرطية، وسأعمل على توفيرها ما أستطيع.

سِرنا خلف مجندة، وسار خلفنا سجانان آخران في ممرّ ممتدّ وضيق قد يقل عرضه عن متر ومضاء بأضواء بيضاء. في نهايته وعلى الجهة اليسرى، باب ضيّق يفضي إلى درج صاعد بحدة، يوصل إلى باب آخر، دخلنا منه إلى ممر تقف في منتصفه سجانة سمراء

قصيرة تحاول فتح باب جانبي، فأدخلتنا إلى غرفة وأقفل الباب من خلفنا. الغرفة واسعة، ربما تتسع لثلاثين شخصاً، ونحن ثلاث. باب الغرفة من قضبان حديدية. على جانبي الباب شبّاكان، وفي الجهة المقابلة طاقة صغيرة مغطاة بشَبك حديدي كثيف وسميك، تحت السقف الذي يزيد ارتفاعه على أربعة أمتار. في إحدى القرن القريبة من الطاقة أضيف مرحاض صغير نصعد إليه بدرجة مرتفعة بحدود نصف متر، وفي قرنة ثانية سرير صدئ من طابقين. في زاوية ثالثة خزانة خشبية من درفتين مدهونة بلون سكني فاتح. في الزاوية الرابعة ثلاث فرشات مع حرامات وملابس سجن جهزت لنا قبل وصولنا.

سحبت كل منا فرشة، فردتُها وجلست عليها. أسندنا ظهورنا للحائط. السجانة تجيء وتذهب من أمام الباب ترْقُبنا. شعرت أني ملصقة على شريحة تحت عدسة مجهر. لو أن الباب ليس من قضبان وإنما من صاج مصمت لارتحت من الإحساس بالانتهاك الذي اجتاحني في تلك اللحظة!

ساد الصمت وانسحبت كل منا إلى داخلها. سألت عفيفة السجانة: ألا تريدون إحضار طعام لنا؟ نحن جوعى. ابتسمت عفيفة حين رأت السجانة تذهب من أمام الباب فقالت معلقة: لازم نشغلها بطلباتنا عشان نرتاح من وجهها النِكِد!

كان لتدخل عفيفة فعل السحر! إذن، كانت تشعر بما أشعر به، لكنها كانت تعمل فكرها لتغيير ما يزعجها! أهذا سر قوتها؟

مرّة أخرى بادرت عفيفة وبدّلت ثيابها ولبست المنامة وبدأت ترتب الملابس في الخزانة. اقتدينا بها وانقطع حبل صمتنا وبدأ هرجنا. لم يمضِ وقت طويل حتى حضر الطعام؛ سجّان يتقدم وسجين

خلفه يحمل صينية ألمنيوم دائرية، وضعها أمام قضبان باب الزنزانة وطلب منه السجان الابتعاد. وقفت السجانة إلى جانب السجان وقد جلس على قدم ونصف، يمرّر صحون الطعام من بين القضبان. لكل واحدة صحن أزرق بلاستيكيّ مقعر، ذكّرني بالصحن الذي كنا نضع الماء فيه لدجاجاتنا، في قعرة قليل من اللبنة وقطعة بندورة صغيرة مع قطعتين من الخبز، ثم ركوة بلاستيكية من اللون والنوع ذاته، فيها شاي أسود برائحة بلاستيكية واضحة. جلسنا أرضاً نتناول الطعام. عملتُ ساندويشاً بالخبز واللبنة والبندورة لكني لم أستطع شرب الشاي، وكذلك رسمية. علقت عفيفة التي شربت شايها: إلى متى لن تشربا الشاي؟ انتظرا حتى يحضروا كاسات الكريستال. أكيد راح يحضروها بكرة! وحين علّقتُ أن رائحة الشاي تشبه الكاوتشوك، قالت: إحنا مش أحسن من مئات الشباب اللي في السجن! سكري أنفك واشربيه، الشاي بطرّي زورك. للحظة رأيت عفيفة بثياب أمي تجلس أمامي! فلو كانت أمي لما قالت غير ما قالته عفيفة!

ذِكْر عفيفة لمئات الشباب الذين في السجن من حولنا، حكّ على جَرَب بدأ يصحو، منذ خطت القدم باب سجن غزة المكتظ بالرجال! كأن حقيقة وجود رجال في العالم كانت في سبات عميق، (كنا في سجن لا وجود لرجال فيه) وها هي تصحو مرة واحدة ليبدأ الخيال في نسج قصص كالأفلام! (حب خلف القضبان) أو (حب في الزنازين)! (حب في سجن غزة). أخذ خيالنا يؤلّف عناوين لقصص غرامية. ضحكت رسمية منّا حين علقت على خيالنا: لن تتمكّنّ من رؤية أيٍّ من الشباب! (رسمية أمضت ثلاثة أشهر في سجن غزة على أثر محاولة الهرب) فعلّقنا: لا تسكّريها يا رسمية، يمكن نتسلى بالرسائل. وحوّلنا الموضوع إلى تندّر وفكاهة. لكنه بالتأكيد كان يدغدغنا.

من جديد، رمت عفيفة تعليقاً كطعم في سنارة: بشرفكن، مين أحسن؛ المدير الرجل ولاّ المديرة المرأة؟ بربكن ما في فرق من الأرض للسما بين "ريا" وهذا المدير؟

وعاد الكلام في سيرة الرجال، قطعته السجانة حين جاءت تعلمنا أنها ستفتح الباب لمدة ربع ساعة، نخرج خلالها إلى الحمامات، ونقضي حاجتنا قبل النوم ونغسل أدوات طعامنا.

كان القسم الذي نحن فيه هو ما يطلق عليه (قسم النساء)، ويتكون من غرفتين واسعتين نحن في إحداهما، تقابلهما غرفة خاصة بالسجانات. الحمامات منفصلة عن الغرف، بالإضافة إلى واحد مقفل يخصّ السجانات. النظام يقضي بفتح باب الغرفة لمدة ربع ساعة قبل الإفطار، وثلاث مرات أخرى بعد وجبات الطعام. سمح لنا بعمل حمام بارد يومياً خلال أي ربع ساعة مما يتاح لنا.

وكان الصباح الأول في سجن غزة. أُحضر الإفطار ونحن نيام. تركوه خلف الباب. إذن هنا لا يوجد نهوض في الصباح ولا (تمام) ولا خروج للعمل. نحن هنا في إجازة، قلت معلقة على الظرف الجديد، لكن رسمية ردت بتعليق: بل نحن هنا في بطالة وفلاس. أجبت بدوري: وما هي الإجازة، أليست بطالة وفلاساً؟ لكن عفيفة التي كانت تستمع لحوارنا قالت: الله أكبر يا عايشة، سجن غزة صار إجازة عندك بعد نفي تيرتسا؟! فعلّقتُ: ليش نسيتِ أن تقولي سجن نفي تيرتسا يا عفيفة؟ أليس كلاهما سجناً؟ لا فرق عندي بين سجن وسجن. (وكدت أقول أن فرصة الهرب هنا ربما تكون أفضل، وهذه وحدها دون غيرها تجعله أفضل بما لا يقاس). لكن عفيفة رأت في كلامي مغالطة كبيرة، فليست السجون متساوية كما أن الحياة والحرية نفسها ليست كذلك. ماذا هنا في سجن غزة

كما تقول: لا نسمة هواء ولا ضوء شمس، لا زهرة ولا شجرة ولا عصفور يطير، لا كرسي تجلسين عليه ولا طاولة للأكل ولا صحن أو كأس تطيقه النفس. ما الذي تجدينه في هذا السجن الذي لا بد أنه من سجون القرون الوسطى، لولا رائحة الرجال التي تلطفه قليلاً؟ فرقعنا ضحكة على جملتها الأخيرة. حضرت السجانة تستطلع الأمر وهي تسأل: ما كرا؟ ما كرا؟ (ماذا حصل) استفزّنا السؤال وقالت رسمية: ما؟! أسور لتصحوك؟ أو تصريخ لكاحت رشيون؟ (ماذا؟! أممنوع الضحك؟ أو أننا بحاجة لإذن؟).

بعد الإفطار، كان علينا أن نواجه وقتاً لا يكاد يتحرك، وجوّاً مثقلاً بالرطوبة، وحرارة عالية، ومكاناً مقفلاً! قالت عفيفة: لو على الأقل لدينا (شدّة) أو (دومينو)؟ وبسرعة نادينا السجانة وحمّلناها طلباتنا: كتب، دفاتر، أقلام، شطرنج، دومينو، شدّه، ونريد زيارة الأهل ورسائل.

قالت عفيفة: لماذا نطلب كتباً؟ يجب أن نطلب زيارة المكتبة. لا بد من وجود مكتبة ضخمة لتعم على كل المعتقلين داخل هذه القلعة!

- على مين يا عفيفة؟ عايزة تشوفي المكتبة الضخمة ولاّ تحت عينك عين؟
- اللي تحت عيني هو اللي تحت عينك. يعني بقولها الله؛ تحيطنا قلعة من الرجال ولا نرى بعيونا أحداً منهم؟ فقط نشوف شكلهم خوفاً من نسيان كيف يبدو الجنس الآخر.
- يا ريت! من ثمك لباب السماء.

وضحكنا . . .

التعليقات المختلفة، نبشت جانباً في النفس كنا نتجنب الاقتراب منه أو الإشارة إليه كما لو أن إشارة خطر الموت رسمت عليه.

فتحنا ملفات لأحلام الحب. ومع أحلام الحب يرهف القلب ويطير على نغم شفيف. وتصبح تجربة الماضي مهما كانت بسيطة ذات قيمة تحتل حيزاً مهماً من فراغ القلب.

لم يمض وقت طويل حين وصلتنا بعض الروايات. كانت أوراقها مهترئةَ وكلماتها قد محيت. لكن الأهم كنّا قرأناها. أعدناها وطلبنا غيرها لكن الأمر تكرر. فأحضروا لنا قائمة الكتب المتوفرة في المكتبة. كانت دهشتنا أن مكتبتنا في "الرملة للنساء" أغنى من هذه المكتبة التي تخدم مئات عدة من المعتقلين!

- أرأيت يا ست عفيفة المكتبة الضخمة التي تريدين زيارتها؟ ها هي المكتبة زارتنا بنفسها.

سألت عفيفة: وأين الشدّة والدومينو؟

الشدّة بالنسبة لعفيفة حكاية، وبالنسبة لي أمر شديد التعقيد غير قابل للفهم ما عدا (الباصرة) التي لعبتها حين كنت صغيرة. تهزأ عفيفة مني وتقول: من لا يحبّ لعب الشدّة، لا يحب الحياة!

بعد ساعات أحضروا (شدّة). رقصت عفيفة وقالت: الآن ستضطرين إلى تعلمّها يا عائشة، وإلا ستنشأ القطيعة بيني وبينك، وأعتقد أنك لن تجازفي بهذا؟

في البداية، كنتُ الطالبة المستمعة -أعني المشاهدة- للعب بين عفيفة ورسمية. أثارت حماستهما حماستي ودخلت اللعب لاكتشف مصدر المتعة الصادر عن التشارك في المجالات النفسية للاعبات.

بعد فترة، زارنا الصليب الأحمر وأحضر معه شطرنجاً ودومينو، ولاحقاً طاولة تنس وضعت في الغرفة المجاورة.

الفورة

بعد أيام من وصولنا سجن غزة، تم إخراجنا للفورة. نزلنا الدرج شديد الانحدار، سرنا قليلاً في الممر الطويل الضيق، ومن على يساره فتح باب حديدي. دخلنا إلى فجوة صغيرة (تعادل تقريباً ربع مساحة الغرفة التي نعيش فيها) كما لو أنها نحتت في صخر، إذ ارتفعت حولها جدران السجن بأدواره الاثنين أو الثلاثة من كل الجهات، ركن إلى جانب حائطها الشرقي مقعد خشبي، وانزوت نبتة يتيمة في القرنة المجاورة للباب.

شمس الظهيرة عمودية ولاسعة، تخز العيون كخيوط زجاجية. ضاقت عيوننا. لون صحراوي يغطي الحيطان المحيطة فبدت صحراء تغمرنا برمالها. كانت السماء مجرّد بقعة صغيرة بيضاء لامعة كأنها وجه مستنقع! مقسمة لمساحات صغيرة حددتها أسلاك شائكة غطت سقف الفجوة (الساحة)! كيف للسماء أن تقسّم بأسلاك شائكة وأن تغدو وجه مستنقع؟!

جلست مترنحة على المقعد الخشبي إلى جانب عفيفة ورسمية. أغمضت عينيّ أبحث عن سماء أهرب إليها بروحي، تكثّفت الأسلاك الشائكة وتجمعت، سدت أفق خيالي وغزّت أجنحة الحلم. انزوت روحي مثقلة تبحث عن ظل تستظل ولا تجده! قلتُ: الجو مثقل برطوبة لزجة ولا نسمة من هواء؟ ردت رسمية بضحكة مرّة: من أين تأتي نسمة الهواء، وكيف لها أن تدخل المكان؟

الحائط الجنوبي للممر عالٍ وقد لبس ظلّه الذي امتد قليلاً على أرض الممر، وقفت فيه السجانةُ والسجان مسندين ظهريهما إليه يراقباننا، ثم سرعان ما راحا يتحادثان.

في الواجهات المرتفعة حولنا شبابيك صغيرة، توحي بعيون تراقبنا. أزعجني الإحساس. فكيف لطرف ما، لشخص ما، لأشخاص يراقبونك ولا تراقبهم! يرونك ولا تراهم! يعرفون شكلك ولا تعرف شكلهم! يشكلون انطباعاتهم عنك ولا تشكل بدورك انطباعك! إنه قيد زاد من حصار المكان. أهذه فسحة؟

جلست ثلاثتنا على المقعد الخشبي في أشعة الشمس اللاهبة. رسمية تضع رأسها بين كفيها بعد أن اتكأت بمرفقيها فوق ركبتيها وأمالت جسمها قليلاً إلى الأمام متقية حرارة الشمس عن عينيها ووجهها. عفيفة عقدت أصابع كفيها فوق جبينها مسندة رأسها وظهرها إلى الحائط. أسندت بدوري ظهري إلى الحائط، وانزوت كل منا داخل نفسها وساد الصمت. بدأت قطرات من العرق تتدحرج فوق جبيني وعنقي، ثم انبثق من جلدي كزغب أخذ يدغدغه بنمنمة تسربت رغبة في جسدي أكدت صحراء المكان وجحيمه!

جهنم لا فورة!

علّقت رسمية ثم تململت وسألتنا: أترغبن في الاستمرار في هذا الجحيم؟ عفيفة وأنا بقينا صامتتين. غضبت رسمية من عدم إجابتنا ووقفت: تردّين ولاّ لعمركن، أنا مش قادرة على الشمس وعايزة أرجع للقسم!

نادت على السجانة تطلب العودة للغرفة، فأجابت: لكن وقت الفورة لم ينتهِ بعد.

رسمية لا تستسلم. أخذت تجادل حول توقيت الفورة غير المناسب

والحرارة غير المحتملة ومن خشيتها من نزيف يصيبها من أنفها. ردت السجّانة: لكن الشمس لا تدخل المكان إلا في هذا الوقت بالذات.

أكدت رسمية: أنا لا أستطيع الاستمرار في هذا الحر!

كان في صوت رسمية في جملتها الأخيرة كثير من الضيق والتحذير بأنها جادة في كلامها. فتحت عيني. كان وجهها شديد الاحمرار يكاد الدم ينبثق منه، ضيق واضح عبأ وجهها -لا أعرف السبب الذي يجعلني دائمة الخوف عليها- أشرت لعفيفة عن خطورة الموقف. نهضنا وطالبنا بالعودة إلى القسم. استجابت السجانة لطلبنا. توجهنا إلى دورة المياه. كان الماء حاراً. عدنا إلى الغرفة واستلقينا على أرضها بلا حراك، نتشوق لشربة ماء بارد.

علقت عفيفة: ما أجمل هذه الإجازة يا عائشة!

قلتُ: ألا تجدين أن كلّ شيء جديد؟

ثارت عفيفة: المهم عندك أن يكون جديداً حتى لو عدنا إلى الخلف عشرات السنين!

في اليوم التالي تغيّر توقيت الفورة وأصبح عصراً، كان الظل قد مال، نلمس أشعة الشمس بضع دقائق قبل أن تلمّ ثوبها وتتسلق جدران السجن الشرقية هاربة خارج المكان.

مطعونة في العمق

نظرة

بعد أكثر من شهرين، أَضيفت طاولة تنس إلى مكان الفورة. في أحد الأيام، كنّا نلعب كرة الطاولة. اكتفت كل من رسمية وعفيفة، لكن طاقتي كانت في اندفاع، تحتاج المزيد من اللعب والحركة. كان الممرض "يودا" وهو مصري الأصل يقف إلى جانب السجانة. أسرع وتناول المضرب. ترددت قليلاً لكني أكملت. أثناء اللعب، رشقني بنظرة انتزعت كامل أحشائي. تركت اللعب في الحال وهربت إلى خوفي أحتمي به! كانت نظرة اغتصاب. فكرت؛ إنه مغتصب ومن كيان مغتصب، ومن ثقافة مغتصِبة!

بعد أن عدنا إلى الغرفة، أخبرت رفيقاتي بما حدث معي وكنت ما زلت تحت صدمة النظرة. بعد أيام، وصلتنا رسالة من الشباب بواسطة زيارة أهل رسمية، مفادها أنه يحظر علينا اللعب مع الممرض أو مع أي من حرّاس السجن. غضبتُ غضباً ممزوجاً بالقهر. من الذي أعطى لنفسه حقاً ليصدر أوامره لنا كأننا قاصرات وبحاجة إلى

وصاية؟ كأننا لا نميز حدودنا؟! كأن وطنيتنا وأخلاقنا غير موثوق بها؟ لو كنّا نعرفهم ويعرفوننا لنجري حواراً معهم لهان الأمر! أمّا أن يسقطوا الأمر على رؤوسنا هكذا، فذلك يصعب تجرّعه. أنا التي كرهتْ أنوثتها لأن أيّاً من الرجال له الحق أن يقرر ويصدر أوامره لها (هكذا!) لا لشيء إلا لكونها أنثى؟ واعتقدتْ وحلمتْ أن سيرها في الطرق الصعبة التي يسير فيها الرجال وتحملها مسؤوليات ليست أقل من مسؤولياتهم، قد حصّنتها من مصادرة إرادتها! جاء الأمر ينسف الحلم، ويعيدنا إلى نقطة الصفر!

عفيفة اكتفت بتعليق قصير؛ "إروحوا غوروا أحسن إلهم". أما رسمية فلم تكترث ولم تعلّق كأن الأمر لا يعنيها! فهل كنت أبالغ في ردة فعلي لأنه يعنيني شخصياً؟

فاض بحر غزة

في إحدى المرات، وأثناء خروجنا لدورة المياه، رأيت باب حمام السجانات مفتوحاً وفيه نافذة صغيرة وبلا قضبان! ففكرت مباشرة: قد تكون صالحة للهرب! دخلته وأغلقت الباب خلفي أستطلع المكان. رأيت الشوارع تكتظ بالناس: رجال ونساء وأطفال وسيارات وأشجار نخيل سامقة، وبيوت عالية. السماء تطفح بألوان المغيب المتدرجة توهجاً، ونسيم مضمخ برطوبة البحر وملوحته تغلغل في أعماقي خاطب روحي بالذات! هل اختلقت ذلك أم أن لغزة روحاً منتشرة في ذلك النسيم نشمّها كما نشم روائح الورود حين تنتشر في الهواء؟ ما التقطته روحي لم يكن وَهْماً، بل نبض حي وحميم تشرّبته كالماء! لم أشعر مثله في الرملة رغم الانفتاح على السماء والشجر والشمس والهواء. فأي سر هذا الذي يتغلغل في روحي من وحي هذا المكان؟ هل أصولي البعيدة جداً التي جاءت من غزة قبل مئات السنين ما زالت تختزن هذا العبق؟

أعلمت رسمية وعفيفة بالكنز الثمين الذي وجدته وقلت: تستطعن أن تستنشقن نسمة هواء حقيقية من نافذة حمام السجانات. بقيت الجملة الأخيرة مُعَلّقَة في ذاكرتي كجرس يقرع كلما حركته الريح، ففجّر مفارقة كئيبة: نسرق قليلاً من هواء وطننا من طاقة حمام السجانات! ضحكتُ ضحكة مرّة، تحوّلت إلى موجة من بكاء لاإرادي. احترتُ واحتارتْ رفيقاتي. مرّ أكثر من ربع ساعة والدموع تجري دون إرادة مني. تناولت حبة مهدئ، لكن البكاء لم يتوقف حتى بعد ربع ساعة أخرى. خفتُ وخافت رفيقاتي أن تكون نهايتي في السجن نهاية كئيبة! ارتجفتْ أعماقي هولاً وأخذت أردد في نفسي: أريد أن أخرج من السجن سليمة معافاة وبكامل وعيي.

كنت أتكلم دون أية علاقة بين ما أفكر به وما أقوله وبين دموعي! تناولت حبة مهدئ ثانية، لكن الدموع استمرت حتى أفرغت مخزونها الذي تجمّع خلال سنوات الاعتقال، وربما خلال العمر كله! ولم تكن تلك المفارقة إلاّ رأس السهم الذي ثقب الجدار، ففاض بحر غزة دموعاً، وربما كانت روحي تستحم ببحر تعرفه منذ مئات السنين!

الذهب الأبيض

توقفت السيارة وصعد شخص من على الطريق. من الواضح أنه معروف لدى السائق، تحدّث من لحظة صعوده كأنه يستأنف حديثاً بدأه من قبل. دار حديثه حول العمالة الفلسطينية الرخيصة، التي اكتشفها الإسرائيليّون في (المناطق) واصفاً إياها بالذهب الأسود، ثم صحح نفسه بالقول؛ إنها الذهب الأبيض، فليس فيها من السواد شيء، وأكد مرات عدة وهو يفرد يديه ويجمعهما كما لو أنه يضمّ الذهب إلى صدره: "كلّها أرباح وليس فيها مخسر واحد".

راح يعدد تلك الأرباح: العامل الفلسطيني ينتج ضعفيّ العامل الإسرائيليّ أو أكثر، لكنه يأخذ نصف أجره أو أقل! والاقتطاعات الكاملة من أجر الفلسطيني لا يسترد منها شيئاً، هذا بالنسبة للعمالة المنظمة، فما بالكم بغير المنظمة؟ إن الأجر أقل بكثير، والتأمينات معدومة، وهم يعملون في البلاد ولا يبيتون فيها، بل يعودون إلى بيوتهم، يأخذون أجرتهم بالعملة المحلية، ويشترون بها بضاعتنا. هل تقول لي أن هذا ليس ذهباً أبيض؟ كل العالم يبحث عن الذهب الأسود وإسرائيل وحدها تجد ذهباً أبيض!

تذكر جانباً آخر من موضوع افتتانه وهو عمالة التعاقد في الباطن، وبشكل خاص عمالة النساء في المخيمات تحديداً ذات الأجور الزهيدة جداً التي لا تكاد تذكر، وأصحاب العمل يستفيدون من بيوت الفلسطينيين فلا يتكلفون بناء المعامل! ويوفّرون أجور النقل وبدل إصابات العمل والتأمينات! كان متحمساً في حديثه، وظل يردد الذهب الأبيض باستمرار، ولكثرة افتتانه أخذ يسميه (الماس) أيضاً. وأضاف: إن إسرائيل تستطيع أن تفخر أمام العالم بأن عُمّالها هم الأعلى تعليماً! فمعظم هؤلاء العمال يحملون الشهادة الثانوية أو الجامعية المتوسطة وبعضهم جامعيون! عند نزوله خاطب السائق: لا تنسَ، تستطيع أن تكون صاحب عمل وتجني الملايين. إن كل إسرائيليّ يستطيع أن يصبح صاحب عمل ويكسب الملايين!

كنت أجلس والشرطية في الكرسي الخلفي لسيارة الشرطة في الطريق من سجن غزة إلى مستشفى (ساف هروفيه) لإجراء عملية هناك. كنت أعاني من خُرّاج سبق أن أجْريتْ له عملية في مستشفى سجن الرملة لم تكلل بالنجاح، وكان وضَعي يتطلب نظافة دائمة ومغاطس غير متوفرة في سجن غزة، فزاد وضعي سوءاً، وبسبب من متابعات الأهل والصليب الأحمر، زارنا مع الصليب، الدكتور بركات من القدس، وأوصى بضرورة إجراء عملية جديدة في أسرع وقت.

قيد في أقدام مشلولة

وضعتُ في المستشفى في غرفة وقف على بابها جنديان مسلحان، بينما جلست الشرطية المرافقة إلى جانبي. جاءت طبيبة وممرضة لتجهيزي للعملية بتخدير نصفي. تميزت الطبيبة بلطفها. ابتسمت لها كنوع من الشكر، فابتسمت مع دعم نقلته يدها التي شدّت على يدي.

بعد انتهاء العملية وإعادتي إلى الغرفة، كنت ما أزال في حالة شلل نصفي، وأتأمل الحالة الإنسانية التي يضطر فيها إنسان حمل نصف له ميت بشكل دائم! وإذا بالقيد يلتف حول الساقين المشلولين ويشدان إلى السرير! أي جنون هذا؟ لماذا أجيء من سجن غزة بلا قيود لأفاجأ بأنهم في المستشفى يقيدون الأقدام المشلولة؟

تذكرت ما حصل معي قبل سنوات عدة في المستشفى ذاته، حين سألني الطبيب عن مكان ولادتي فقلت: فلسطين. قال: يعني إسرائيل؟ قلت: لا، أنا من مواليد فلسطين. أقفل الملف مباشرة ورفض معاينتي.

أعلنت الإضراب عن الطعام والشراب والحاجات الإنسانية الأخرى، ولم تثنني كل التحذيرات من خطورة ما أقوم به على حياتي. جاءت الطبيبة. كان رد فعلها غاضباً وأمرت بفك القيود. تبادلتُ والطبيبة الابتسامات التي حملت تفاهماً إنسانياً غير مشروط. عند المساء نقلت إلى سجن الرملة للنساء، احتجزوني في الإدارة إلى ما بعد إقفال الأبواب بعد الثامنة مساء، لكن الرفيقات احتفين بي من خلف الأبواب الموصدة.

بعد أكثر من شهر، أعادوا عفيفة ورسمية. وصلتا مبنى الإدارة عصراً، هذا ما نقلته سجينة اجتماعية تعمل هناك. وقفنا لاستقبالهما بالفرحة والزغاريد. لكنهما لم تصلا، أصبحت الساعة السادسة

وحان وقت إقفال الأقسام، فاعتقدنا أن الخبر كاذب. بعد إقفال أبواب الغرف الساعة الثامنة أدخلوا عفيفة ورسمية القسم، فاحتفلنا بهما من خلف الأبواب، ما أدى إلى مشادة كلامية مع السجانات اللواتي بذلن جهداً لإسكاتنا، وعلى أثر ذلك، أقفلت الأبواب علينا في اليوم التالي ٢٤ ساعة ومنعت زيارتنا لمدة شهرين.

اغتيال فرحتنا كان سياسة ثابتة عندهم، اكتشفناها منذ زمن بعيد، يمارسونها في كل حين. كم من المرات اشتبكنا معهم كرد فعل على تدخلاتهم الفظة لمنع انبساطنا وفرحنا! كم من مرّة تدخلت السجانة لتنغص فرحتنا حين ترانا نلعب أو نضحك أو نناقش رواية أو كتاباً أو ننشد أو نغني أو ندبك. يستفزوننا لاغتيال فرحتنا ليس إلا. يمكنني رواية مئات من هذه الحوادث. في البدايات، كانوا ينجحون في تعكير أجوائنا، فنغضب ونسب ونلعن، فيمنعون زيارتنا أو الرسائل أو الإرسال إلى الزنزانة! كنا نحتار في فهم تلك السياسة، فاتهمناهم بالسادية. لكننا اكتشفنا أنهم يخافون فرحنا! وقررنا أن لا نسمح لهم بتسميم أجوائنا وسنقاومهم بمزيد من المرح، واتفقنا على خطة.

ذات يوم، كنّا نلعب بالكرة، وكان مرحنا يملأ الساحة. تقدمت السجانة منا وبدأت تطلب من هذه وتلك أن تقوم بهذا العمل أو ذاك وتصرخ علينا. لم نلتفت إليها كما قررنا. زاد تدخلها فأخذنا نشير إليها كما يفعل الأطفال الأشقياء ونضحك منها كشخص أبله. طابت لنا اللعبة وزاد منسوب مرحنا وعبثنا. جنّ جنونها وطلبت النجدة فأدخلونا إلى الغرف وأقفلوا الأبواب علينا. استمر ضحكنا وعبثنا وزاد من خلف الأبواب بالدق والطبل والغناء، جاءوا وأخذونا إلى الزنازين، هناك توحدنا في جوقة واحدة، واستمرّ غناؤنا ومرحنا. كانت سعادتنا كبيرة لاكتشافنا طُرُقاً جديدة لمقاومة كيدهم ولتعظيم سرورنا، مصدر خوفهم.

على أثر تلك الحادثة، أصبحوا أكثر حذراً من استفزازنا، لكنهم أبداً، أبداً، لم يتراجعوا عن سياستهم في ملاحقة فرحنا حيثما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

زيارة السادات وما بعدها

فتحوا التلفاز منذ ساعات الصباح، فقد أعلن اليوم عطلة، ولا بد من متابعة تفاصيل الزيارة التي كانت أكبر من قدرة العقل على استيعابها! كادت المديرة ترقص للحدث الذي ملأها سعادة لم تفكر بها أبداً، ما جعلها تحلق في أحلام تصورت فيها اليهود ملوكاً للعالم! أمّا نحن، فكنّا في ذهول، كيف يحصل هذا؟ نعدّل موازين قوانا مع عدونا، فنأتي إليه حاجّين!

نقل الأهل الأجواء التي تدور حول الزيارة، كانوا مذهولين مثلنا، ورغم ذلك، شممنا رائحة تواطؤ ما من قبلهم! عند البحث عن الموقف المريب، تبيّن أن دعاية مستمرة تصبّ في آذانهم حول إمكانية الإفراج عن أبنائهم، وبشكل خاص عن بناتهم، فالسادات كما قيل لهم، أو ربما كما كانوا يتمنون، وضع شرطاً لزيارته إلى القدس، هو الإفراج عن الأسرى!

حين ناقشنا الاحتمال، قلنا: نفضل البقاء في السجن، على أن نخرج بواسطة زيارة السادات.

أمّا الإسرائيليّون، فكان لهم شأن آخر. في السجن، كانت المديرة (ريا) أكثر المتحمسين وأكثر من يبيع أوهاماً. قالت: سيكون سلام، وستخرجن من السجن! وقالت: ستزدهر المنطقة أكثر من أية منطقة في العالم، اليهود بعقولهم والعرب بخيراتهم وأيديهم العاملة! ثم سقطت جملتها من فرط حماستها: "سيصبح اليهود ملوك العالم"!

زيارة السادات وخطابه في الكنيست، أسكرا (ريا) ابنة حزب العمل. تلألأت كما لو أنها دائمة الرقص والفرح. عبّرت عن ذلك في كل مناسبة وفي كل حين. كثّفت من زياراتها لنا في القسم، وتعمدت التحدث معنا لنشر أحلامها الوردية، ولترش علينا بعضاً من أوهام الخروج. وقالت إن زيارة السادات هي النصر الحقيقي الذي حصلت عليه إسرائيل وليس النصر في حرب (الأيام الستة)، وإن الزيارة ستجعل من دولة إسرائيل دولة مقبولة في محيطها العربيّ. وقالت: لو أن إسرائيل فرشت للسادات بساطاً أحمر من القاهرة حتى القدس، فذلك قليل عليه.

شغلني التفكير في الحدث كثيراً؛ كيف ولماذا يحصل هذا؟ حين ننتصر نحتضن أعداءنا كأنهم لم يعودوا كذلك! أليس هذا ما قام به صلاح الدين! عائدة سعد لا تريد الهزيمة حتى لأعدائها! وأم محمد أبو كرش، تريد أن تذبح لهم وتكرمهم في حال عودتها إلى قريتها! والسادات رئيس دولة مصر أكبر وأعظم دولة عربية، يحج إلى الكنيست! كأننا نحبّ أعداءنا أكثر مما نحب أنفسنا! هل تتحكم فينا عقلية حاتم الطائي، الذي ذبح فرسه لإطعام الغرباء أبعد بكثير ممن نعرف؟

ما بعد الزيارة

على أثر الزيارة، ارتفعت وتيرة النضال الفلسطيني في الداخل، فحملت معظم الأسيرات اللواتي دخلن السجن بعد الزيارة، أحكاماً عالية لاشتراكهن في أعمال عسكرية. جاءتنا من منطقة الخليل كل من **ثريا العواودة** (٥ سنوات)، و**عليا أبو دية** (١٨ سنة)، ومن طمّون منطقة نابلس **ابتسام غرايبة** (١٧ سنة)، ومن الطيبة منطقة رام الله **روضة البصير** و**فريال سالم** (٨ سنوات) لكل منهما، و**إيمان الخطيب** من مخيم الدهيشة في منطقة بيت لحم (١٨ سنة). ثم **فيولا الساعاتي** من رام الله في انتظار حكم عالٍ.

لكن الأصعب في أوضاع القادمات الجدد لم تكن أحكامهن العالية، وإنما الإصابات التي طالت عدداً منهن. فريال سالم كان وضعها غاية في الصعوبة، فإصابتها كانت في الوجه مباشرة، أفقدتها عينا وشقت وجهها نصفين، وامتلأ جسدها بالشظايا. رفيقتها روضة البصير مصابة في يدها إضافة إلى عدد من الإصابات في جسمها. الشابة الجميلة إيمان الخطيب إصابتها في الوجه الذي امتلأ بالشظايا السوداء وفقدت السمع بشكل جاد، ولم تكن أكملت الثامنة عشرة من عمرها.

تأزمنا، وتأزمتُ شخصياً، لم يكن من السهل مشاهدة أوضاع الصبايا. ما ضاعف ألمي أن هذه الإصابات جميعها، كانت لعدم الحرص والتنبه، وبسبب أخطاء ارتكبها أصحابها، كم من الجهود علينا أن نبذل للتخفيف من وقع المآسي على صاحباتها! لكن المصابات أعطينني درساً لا أنساه، ووجّهت مواقفهن صفعة لأفكاري، فلم تقبل أيٌّ منهن كما كان الحال مع نعمة الحلو من قَبْلِهن، نظرة إشفاق، وواجهن قدرهن بكبرياء وشموخ ودون تذمّر، وبدلاً من أن يصبحنّ عبئاً، حملن العبء معنا، فأصبحت

فريال معلمة الجغرافيا في مدرستنا، وروضة معلمة الرياضيات، وشاركن في الحياة الثقافية وكل النشاطات، ما جعلني أخجل من نفسي أمام شموخهن.

الأسوأ في مرحلة ما بعد السادات واتفاقيات كامب ديفيد، أنها أدخلتنا في متاهة ضبابية فيما يتعلق بالمستقبل، كيف سيصبح وضعنا بعد أن خرجت مصر من المواجهة؟ ومع ضبابية الرؤية ثقل الزمن، ولأول مرة نرى أن سنوات السجن لها أثقال متصاعدة، وأن ثقل السنة التاسعة عادل مثلاً ثقل تسع سنوات كاملة! والسنة العاشرة عادل ثقل عشر سنوات . . . وهكذا. جلسنا نحسب على هذا المنوال، فوجدنا أن عشر سنوات في السجن، تعادل في الحقيقة ٥٥ سنة، وفي ظل هذا التفكير، ناس الجسد واعترته الأوجاع والأمراض.

روحي تغادر جسدي

في السنة العاشرة، كانت تصيبني أوجاع رأس شديدة، فأعطوني أكامول ليس إلا. في أحد الأيام، وتحت ضغط التهديد بالإضراب، أخذوني إلى المستشفى، أعطوني حقنة وأعادوني مباشرة لأنام على أثرها. صحوت عند الفجر وروحي تغادر جسدي وقد جف تماماً! صرخت بفزع لأسترد روحي قبل أن تغيب نهائياً: إني أموت، أريد ماء! في لمح البصر كانت عائدة تضع الماء في جوفي فأوقف انسحابَ الحياة وعادت روحي أدراجها نحو جسدها. أيقنت أن أحدهم أراد قتلي، وتعمد إعطائي تلك الحقنة التي أنامتني وجففتني. انتفضت روحي وامتشقت ذاتها لتتذكر عهودها التي قطعتها على نفسها؛ بأن تبقى صامدة تحت كل الظروف.

في ثوب زفافها

أصعب الحالات التي خبرتها ووقفتُ عاجزة عن تقديم أي عون لها كانت فاطمة الدقاق. دخلت فاطمة السجن قبل تحرّرنا بفترة بسيطة وكانت في حالة صدمة عميقة، إذ اعتقلت وهي في ثوب زفافها، فقبل دخولها وعريسها غرفة نومهما، انفجرت قنبلة في البيت وحوّلت العريس إلى مُزق تطايرت على الجدران وأدخلت العروسة في غيبوبة عميقة. وقفنا عاجزات عن تقديم أي عون يمكن أن يواسيها ويخفف من صدمتها. ما أصعب أن تجد نفسك عاجزاً عن تقديم المساعدة لمن هو في أمسّ الحاجة إليها.

ما بعد الضيق إلا الفرج

في الفترة الأخيرة ما قبل تحررنا من الأسر، عانت معظم المحكومات مؤبدات بصورة أو بأخرى من أمراض وأوجاع مختلفة، بعضنا كان يعاني من قرحة في المعدة، وبعض آخر من تكسر في كريات الدم، وأخريات من فقر في الدم أو وغير ذلك، وإذا أضفنا الإصابات لدى عدد من المناضلات اللواتي أسرن في السنتين الأخيرتين، فإن جواً غير حيوي -وقد سمّيه جوّا ثقيلاً- ساد تلك المرحلة.

يرفّ في سمائنا

في ظهر يوم ١١- ٣- ٧٩، جاءت الضابطة المسؤولة ومعها قائمة الأسماء التالية: عفيفة بنّورة، رسمية عودة، عائدة سعد، مريم شخشير، سامية مصطفى، فريال سالم، ريما طنوس، أيمان الخطيب، عليا أبو دية، إيمان الصمادي، ابتسام غرايبة وعائشة عودة، وطلبت منّا إعداد أنفسنا للذهاب مع الصليب الأحمر الذي سيأخذنا من أجل فحوصات طبية شاملة، وأضافت؛

علينا أن نأخذ كل أشيائنا الخاصة معنا! نظرنا إلى بعضنا لصعوبة ابتلاع قصة الصليب الأحمر! ولماذا لم تضم القائمة كلاً من تريز هلسة وزكية شموط وروضة البصير ولودوين الهولندية، والبنت الألمانية، وفيولا الساعاتي، وفاطمة الدقاق، إذا كان الأمر يخصّ الفحوصات الطبية؟

قلنا إن هذه إجراءات تناسب عملية تحرّر من الأسر أو عملية تبادل أسرى! لكننا لم نكن قد سمعنا عن أية عملية، ومن المستحيل أن تبادر إسرائيل إلى إطلاق سراحنا هكذا، فما السر الذي يختبئ خلف هذا الطلب؟ هل يرف طائر الحرية في سمائنا؟

بعد أكثر من ساعتين، دخلنا مكتب المديرة. كان وجهها شاحباً، أما وجه نائبتها حياة شوهم، فكان يعبر عن حاجة ماسة إلى عملية إنعاش. أكد لنا سوء حال الوجوه أننا ذاهبات إلى الحرية، فاتسعت ابتساماتنا. أعادت المديرة رواية الصليب الأحمر، فابيضت شفاهها وجفت الكلمات في حلقها، فتأكدنا أن أيام السجن قد انتهت.

كانت في انتظارنا خارج بوابة السجن حافلة كبيرة، صعدنا إليها فعصبوا أعيننا وقيدوا أيدينا. كانت توقعاتنا أنهم سيأخذوننا في اتجاه الأردن. عند المساء توقفت الحافلة، وأدخلونا إلى زنازين! أصخنا السمع، فسمعنا ضحكا ومرحاً في الجوار. بعد قليل، حضر مندوبو الصليب الأحمر وسألوا عن عفيفة بنورة وأعلموها أنهم مكلفون من قبل الجبهة الشعبية "القيادة العامة"، بالاتصال معها شخصياً، لتشرف معهم على عملية تبادل أسرى ستتمّ مع إسرائيل.

تبخر السجن فجأة كأنه لم يكن رغم تواجدنا في زنازينه. لم ننم تلك الليلة، تحدثنا مع الرفاق الذين وصلوا هناك قبلنا عبر الحائط، وعرفنا منهم أنهم يعرفون عن عملية التبادل منذ أشهر.

فرحة ناقصة

منذ الصباح، بدأ الصليب الأحمر في استدعائنا فرادى لتعبئة استمارات وأخذ تواقيع. جاء دوري فأعلموني أن الإفراج عني مشروط بالإبعاد خارج البلاد!

- هل هذا ينطبق على الجميع؟
- لا، ينطبق على ثلاث منكن، أنت ورسمية وعليا أبو دية، أما الباقيات، فلهن خيار أن يبقين في الداخل إذا رغبن.
- وإذا رفضتُ الإبعاد؟
- لن تخرجي من السجن، وستوقعين على ورقة تقرّين برفضك، وفي هذه الحالة قد تربكين عملية التبادل.
- لماذا لم تشمل العملية باقي الأسيرات؟
- إسرائيل رفضت إطلاق سراح تريز هلسة وزكية شموط لأنهما تحملان هويات إسرائيليّة، أما روضة فتحمل هوية القدس.

بدا لي أن التفكير في رفض الخروج من السجن سيكون نوعاً من الجنون، لكن الإبعاد، بعد هذه السنوات، ضربة قاسية على الرأس يصعب تحملها.

كان قرارنا نحن الأسيرات، أن على كل من يحق لها البقاء على أرض الوطن أن تبقى فيه. اعترض الشباب على قرارنا باعتباره غير حكيم، فإسرائيل ستضيق الخناق على كل من سيبقى، وقد يعيدون اعتقالهم. تمسكنا بموقفنا ودعوناهم إلى إعادة نظرهم في قرارهم، فلم يفعلوا!

خلال يومين، استكملت الإجراءات، وعند المساء، عصبوا أعيننا وقيدوا أيدينا ونقلونا بالحافلات. وصلنا إلى مكان يلفه ظلام دامس وطائرة في انتظارنا، ومندوبو الصليب يقفون أمام أدراجها. صعدنا إلى الطائرة فقيدوا أقدامنا وأيدينا إلى المقاعد، وأحكموا إغلاق

أعيننا، وحذّرونا من الهمس والكلام وحتى النَفَس، فلديهم أوامر بإطلاق النار مباشرة!

لم تُقْلع الطائرة، وطال زمن الانتظار. بدأت إشاعات تصل إلى آذاننا بأن عملية التبادل قد لا تتم، وأنهم يتداولون لإعادتنا إلى السجون! صار الزمن صعباً والأعصاب مشدودة إلى أن بدأت الطائرة تتحرك لنصبح معلقين بين السماء والأرض بينما استمرت ماكينة الإشاعات في إنتاجها؛ "قد يعودون بنا، عملية التبادل تعطلت، يتداولون حول الإلقاء بنا في البحر، قد يقتلوننا جميعنا".

مشكلتي الشخصية لم تعد الانشغال بالإشاعات، بل تركزت على ما أصبحت أعانيه من ضغط مثانتي حد الانفجار، ومع كل طلب للذهاب إلى الحمام، كنتُ أتلقى خبطة بعقب بندقية.

حين أخذت الطائرة في الهبوط، قالت الإشاعات إنه هبوطُ اضطراري، في أحد المطارات الأوروبية، للتزود بالوقود، وسوف تعود للتحليق مجدداً، لأننا ما زلنا في رسم المجهول، وربما سيعودون بنا إلى السجون في أحسن الاحتمالات، لكن الخوف من تخلصهم منا بقتلنا أو بإلقائنا في البحر ما زال ماثلاً!

ولادة جديدة

حين هبطت الطائرة، أخذت أمني النفس بأن يسمحوا لي بالذهاب إلى الحمام، وأن أصل إليه قبل أن يحصل ما لا تحمد عقباه. أسكت الجنود الهمسات. سمعت جلجلة قيد وقلت في نفسي: جاء الفرج، هاهم يسمحون لبعضنا بالذهاب إلى الحمام! جاء دوري وفكوا قيدي المتصل بكرسي الطائرة، اقتادوني معصوبة العينين، والسلاسل في قدمي وفي يدي. حين بدأوا في فكّ القيود، صرت

أستعجل اللحظات، وقبل إزاحة العصبة عن عينيّ، سقطت ضربة من قبضة قوية على مؤخرة عنقي، وقبل أن أصرخ في وجوههم، كانت عصبة عيني قد انزاحت فأرى جبالاً تكسوها ثلوج وأشجاراً خضراء، وشمس آذار جعلت كل شيء بلورياً ومبتسماً!

كنت أقف على عتبة باب الطائرة، ومندوبو، الصليب الأحمر بشاراتهم عند أسفل درجها وعيونهم ترنو نحوي! أهي لحظة ميلاد وأنا الوليد الذي يطل برأسه خارجاً إلى الحياة؟ والوليد يصرخ عند خروجه إلى عالمه الجديد! وأنا أرغب في الصراخ! صرخة ممزوجة بكل أنواع الانفعالات! صرخة فرح واندهاش واستهزاء من أحكام المؤبدات، ومن الذين يصدرونها. صرخة فرح بالحرية بعد حياة سجن راكدة كمياه مستنقع، صرخة فرح بالصمود رغم كل شيء، وصرخة لاذعة وتراجيدية: أَبَعْدَ عشر سنوات سجن، أُطرَدُ من وطني؟ أريد أن أقهقه لأغيظ الجنود وأردّ إليهم كيدهم؛ سأعوووود.

نزلتُ درج الطائرة. أمسكت بي يد رفيقة، جرينا نحو طائرة أخرى تقف في انتظارنا، مروراً إلى رحلة أخرى في مشوار الحياة.

محمود العبيدي، عائشة عودة، سامية الطويل و رسمية عودة. في المحكمة العسكرية.

يعقوب عودة، المحامي علي رافع، عائشة عودة، رسمية عودة ومحامي رسمية عودة

المحكمة العسكرية ١٩٦٩ .

ملصق لحركة فتح بمناسبة الإحتفال الخامس لإنطلاقتها، ١٩٧٠

منشورات مواطن

سلسلة دراسات وأبحاث

دراسات في الثقافة والتراث والهوية
شريف كناعنة

العَتَبَة في فتح الإبستيم
إسماعيل ناشف

العمالة الفلسطينية في إسرائيل ومشروع الدولة الفلسطينية
ليلى فرسخ

مدخل في تاريخ الديموقراطية في اوروبا
عبد الرحمن عبد الغني

النســاء والقضــاة والقانــون: دراسة أنثروبولوجية للمحكمة الشرعية في غزة
نهضة يونس شحادة

نساء على تقاطع طرق: الحركة النسوية الفلسطينية بين الوطنية والعلمانية والهوية الإسلامية
إصلاح جاد

في المسألة العربية: مقدمة لبيان ديمقراطي عربي
عزمي بشارة

تمكين الأجيال الفلسطينية: التعليم والتعلم تحت ظروف قاهرة
تفيدة جرباوي وخليل نخلة

«وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ»: الإسلاميون والديمقراطية
رجا بهلول

فلسطين الى أين؟ تلاشي حل الدولتين (باللغة الإنجليزية)
تحرير جميل هلال

الطبقة الوسطى الفلسطينية، بحث في فوضى الهوية والمرجعية والثقافة
جميل هلال

النظام السياسي الفلسطيني بعد اوسلو: دراسة تحليلية نقدية (طبعة ثانية - مزيدة)
جميل هلال

نظريات الانتقال إلى الديمقراطية: إعادة نظر في براديغم التحول
جوني عاصي

من التحرير إلى الدولة: تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٨-١٩٨٨
هلغى باومغرتن

تقاسيم زمّار الحيّ - مقالات
فيصل حوراني

بروز النخبة الفلسطينية المعولمة (باللغة الانجليزية والعربية)
ساري حنفي وليندا طبر

الحداثة المتقهقرة: طه حسين وأدونيس
فيصل دراج

صفد في عهد الانتداب البريطاني ١٩١٧ - ١٩٤٨
مصطفى العباسي
بالتعاون مع مؤسسة الدراسات الفلسطينية والمقدسية

الجبل ضد البحر
سليم تماري

من يهودية الدولة حتى شارون: دراسة في تناقض الديمقراطية الإسرائيلية
عزمي بشارة

تشكل الدولة في فلسطين (باللغة الانجليزية)
تحرير: مشتاق خان، جورج جقمان، انج أمندسن

مستقبل النظام السياسي الفلسطيني والآفاق السياسية الممكنة
تحرير: وسام رفيدي
وقائع مؤتمر مؤسسة مواطن، ومعهد ابراهيم ابو لغد ٢٠٠٤

التربية الديمقراطية، تعلم وتعليم الديمقراطية من خلال الحالات
ماهر الحشوة

حركة معلمي المدارس الحكومية في الضفة الغربية ١٩٦٧-٢٠٠٠
عمر عساف

المجتمع الفلسطيني في مواجهة الاحتلال : سوسيولوجيا التكيف المقاوم خلال انتفاضة الاقصى
مجدي المالكي واخرون

اسطورة التنمية في فلسطين : الدعم السياسي والمراوغة المستديمة
خليل نخلة

جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨-١٩٤٨
فيصل حوراني

القطاع العام ضمن الاقتصاد الفلسطيني
نضال صبري

هنا وهناك نحو تحليل للعلاقة بين الشتات الفلسطيني والمركز
ساري حنفي

تكوين النخبة الفلسطينية
جميل هلال

الحركة الطلابية الفلسطينية : الممارسة والفاعلية
عماد غياظة

دولة الدين ، دولة الدنيا : حول العلاقة بين الديمقراطية والعلمانية
رجا بهلول

النساء الفلسطينيات والانتخابات ، دراسة تحليلية
نادر عزت سعيد

المرأة وأسس الديمقراطية
رجا بهلول

النظام السياسي الفلسطيني بعد اوسلو : دراسة تحليلية نقدية
جميل هلال

ما بعد اوسلو : حقائق جديدة (باللغة الانجليزية)
تحرير : جورج جقمان

ما بعد الازمة : التغييرات البنيوية في الحياة السياسية الفلسطينية ، وآفاق العمل
وقائع مؤتمر مواطن ٩٨

التحرر ، التحول الديمقراطي وبناء الدولة في العالم الثالث
وقائع مؤتمر مواطن ٩٧

اشكالية تعثر التحول الديمقراطي في الوطن العربي
وقائع مؤتمر مواطن ٩٦

العطب والدلالة في الثقافة والانسداد الديمقراطي
محمد حافظ يعقوب

رجال الاعمال الفلسطينيون في الشتات والكيان الفلسطيني
ساري حنفي

مساهمة في نقد المجتمع المدني
عزمي بشارة

حول الخيار الديمقراطي
دراسات نقدية

سلسلة رسائل الماجستير

مرجعية الخطاب السياسي الإسلامي في فلسطين

خالد علي زواوي

الدبلوماسية العامة الفلسطينية بعد الانتخابات التشريعية الثانية
دلال باجس

الإنتخابات والمعارضة في المغرب بين التحول الديمقراطي
واستمرارية النظام السلطوي (١٩٩٧-٢٠٠٧)
نشأت عبد الفتاح

عن النساء والمقاومة: الرواية الاستعمارية
أميرة محمد سِلْمي

التغيير السياسي من منظور حركات الإسلام السياسي: «حماس» نموذجا
بلال الشوبكي

المجتمع المدني «بين الوصفي والمعياري»: تفكيك إشكالية المفهوم وفوضى المعاني
ناديا أبو زاهر

النقد والثورة: دراسة في النقد الاجتماعي عند علي شريعتي
خالد عودة الله

حركة «فتح» والسلطة الفلسطينية: تداعيات أوسلو والانتفاضة الثانية
سامر إرشيد

سلسلة مداخلات واوراق نقدية

الإعلام الفلسطيني والإنقسام: مرارة التجربة وإِمكانيات التحسين
تحرير: خالد الحروب وجمان قنيص

قبل وبعد عرفات: التحول السياسي خلال الانتفاضة الثانية
جورج جقمان

أن تكون عربياً في أيامنا
عزمي بشارة

المنهاج الفلسطيني اشكاليات الهوية والمواطنة
عبد الرحيم الشيخ (محرراً)

الحريات المتساوية حقوق المرأة بين الديمقراطية - الليبرالية وكتب التربية الإسلامية
وليد سالم وإيمان الرطروط

اليسار والخيار الاشتراكي قراءة في تجارب الماضي، واحتمالات الحاضر
داوود تلحمي

تهافت أحكام العلم في إحكام الإيمان
عزمي بشارة

الديمقراطية والإنتخابات والحالة الفلسطينية
وليم نصار

إطار عام لعقيدة أمن قومي فلسطيني
حسين آغا وأحمد سامح الخالدي

نحو أممية جديدة: قراءة في العولمة/ مناهضة العولمة والتحرر الفلسطيني
علاء محمود العزة وتوفيق شارل حداد

التنظيمات والأحزاب السياسية الفلسطينية
جميل هلال

الأحزاب السياسية الفلسطينية والديمقراطية الداخلية
طالب عوض وسميح شبيب

الراهب الكوري . . سَفَر وأشياء أخرى
زكريا محمد

واقع التعليم الجامعي الفلسطيني : رؤية نقدية
ناجح شاهين

طروحات عن النهضة المعاقة
عزمي بشارة

ديك المنارة
زكريا محمد

لئلا يفقد المعنى (مقالات من سنة الانتفاضة الاولى)
عزمي بشارة

في قضايا الثقافة الفلسطينية
زكريا محمد

ما بعد الاجتياح : في قضايا الاستراتيجية الوطنية الفلسطينية
عزمي بشارة

المسألة الوطنية الديمقراطية في فلسطين
وليد سالم

الحركة الطلابية الفلسطينية ومهمات المرحلة تجارب وآراء
تحرير مجدي المالكي

الحركة النسائية الفلسطينية اشكاليات التحول الديمقراطي واستراتيجيات مستقبلية
وقائع مؤتمر مواطن ٩٩

اليسار الفلسطيني : هزيمة الديمقراطية في فلسطين
علي جرادات

الخطاب السياسي المبتور ودراسات أخرى
عزمي بشارة

أزمة الحزب السياسي الفلسطيني
وقائع مؤتمر مواطن ٩٥

المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في فلسطين
زياد ابو عمرو واخرون

الديمقراطية الفلسطينية
موسى البديري واخرون

المؤسسات الوطنية، الانتخابات والسلطة
اسامة حلبي واخرون

الصحافة الفلسطينية بين الحاضر والمستقبل
ربى الحصري واخرون

الدستور الذي نريد
وليم نصار

سلسلة اوراق بحثية

الحركة الطلابية الإسلامية في فلسطين الكتلة الإسلامية . . نموذجاً
دلال باجس

دراسات اعلامية ٢
تحرير: سميح شبيب

دراسات اعلامية
تحرير: سميح شبيب

الثقافة السياسية الفلسطينية
باسم الزبيدي

العيش بكرامة في ظل الاقتصاد العالمي
ملتون فيسك

الصحافة الفلسطينية المقرؤة في الشتات ١٩٦٥-١٩٩٤
سميح شبيب

التحول المدني وبذور الانتماء للدولة في المجتمع العربي والاسلامي
خليل عثامنة

المساواة في التعليم اللامنهجي للطلبة والطالبات في فلسطين
خولة الشخشير

التجربة الديمقراطية للحركة الفلسطينية الاسيرة
خالد الهندي

التحولات الديمقراطية في الاردن
طالب عوض

النظام السياسي والتحول الديمقراطي في فلسطين
محمد خالد الازعر

البنية القانونية والتحول الديمقراطي في فلسطين
علي الجرباوي

سلسلة التجربة الفلسطينية

ثَمَناً للشَّمْس
عائشة عودة

سَأُحَدِّثُكُم عَن هَاجِس: مجموعة نصوص أدبية ل أقلام جديدة
تقديم وتحرير هَيفاء أسـعد

المقاوَمة الشعبية في فلسطين تاريخ حافل بالأمل والإِنجاز
مازن قمصية

شفيق الحوت
سميح شبيب (محرراً)

أنيس صايغ والمؤسسة الفلسطينية السياسات، الممارسات، الإنتاج
سميح شبيب (محرراً)

انتفاضة الأقصى: حقول الموت
محمد دراغمة

أحلام بالحرية (الطبعة الثانية)
عائشة عـودة

الواقع التنظيمي للحركة الفلسطينية الأسيرة دراسة مقارنة ١٩٨٨-٢٠٠٤
اياد الرياحي

مغدوشـة: قصـة الحرب على المخيمات فـي لبنـان
ممدوح نوفل

يوميات المقاومة في مخيم جنين
وليد دقة

أحلام بالحرية
عائشة عـودة

الجري الى الهزيمة
فيصل حوراني

أوراق شاهد حرب
زهير الجزائري

البحث عن الدولة
ممدوح نوفل

سلسلة مبادئ الديمقراطية

ما هي المواطنة؟	المحاسبة والمساءلة
فصل السلطات	الحريات المدنية
سيادة القانون	التعددية والتسامح
مبدأ الانتخابات وتطبيقاته	الثقافة السياسية
حرية التعبير	العمل النقابي
عملية التشريع	الاعلام والديمقراطية

سلسلة ركائز الديمقراطية

التربية والديمقراطية
رجا بهلول

حالات الطوارئ وضمانات حقوق الانسان
رزق شقير

الدولة والديمقراطية
جميل هلال

الديمقراطية وحقوق المرأة بين النظرية والتطبيق
منار شوربجي

سيادة القانون
اسامة حلبي

حقوق الانسان السياسية والممارسة الديمقراطية
فاتح عزام

الديمقراطية والعدالة الاجتماعية
حليم بركات

سلسلة تقارير دورية

واقع التمييز في سوق العمل الفلسطيني من منظور النوع الاجتماعي
صالح الكفري، خديجة حسين نصر

نحو قانون ضمان إجتماعي لفلسطين

تطوير قواعد عمل المجلس التشريعي نحو قانون للسلطة التشريعية
إعداد : جهاد حرب اشراف : عزمي الشعيبي

نحو نظام انتخابي لدولة فلسطين الديمقراطية
جميل هلال، عزمي الشعيبي وآخرون

الاعمال التشريعية الصادرة عن رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية
سناء عبيدات

دراسة تحليلية حول أثر النظام الانتخابي على تركيبة المجلس التشريعي القادم
احمد مجدلاني، طالب عوض

سلسلة التجربة الفلسطينية

هذا الكتاب

سمعنا حركةً وصوتَ قيود تجرُّ على الأرض، رافقتْها تحذيراتٌ قاسية. جيءَ بباقي الرفيقات، وامتلأتِ الحافلةُ وأُغْلقتْ أبوابُها. قالَ أحدُهم بصوتٍ متجبّر: "كلام ممنوع، همس ممنوع، صوت ممنوع، تنهيدة ممنوع، أنين ممنوع، نَفَس ممنوع، حركة ممنوع!" ولدى الجنودِ أوامرُ بإطلاقِ النار دونَ تحذير، وقد أعذرَ من أنذر.

اكتملتْ دائرةُ الإرهاب، وأصبحَ الهواءُ ثقيلا كالرصاص، والتنفّسُ صعبا، والقهرُ مادةً ملموسةً ولها ثقلُ الجبال. تحرّكتِ الحافلةُ ولم يتحرّكِ الزمنُ ولم تقطع مسافة، وسعالُ الشباب يخرجُ مكتوماً، وعربدةُ الجنودِ تزمجرُ بالمسبّاتِ واللكماتِ، وبجبروتٍ يفوقُ القدرةَ على التحمّل، فيزدادُ القهرُ كثافةً وثقلا.

مضى دهرٌ قبل أن تتوقف الحافلة... فَرُغت الحافلة من أصوات السلاسل، فكّوا عن عيوننا. لم يكن في الحافلة إلاّ نحن الفتيات، وعددٌ من الجنود لا يتجاوزُ الخمسة. كانت الحافلة تقف أمام بوّابة سجن الرملة للرجال.

أرادَ جنديٌّ أن يتسلّى فأحضر "جُنْدُبا" وتقدّمَ مني طالبا أن آكله، فرفضت. هدّد، لكنّي رفضتُ بهدوء. مزّقَ رفضي شرنقةَ القهر. تحوّل الجنديُّ بجندبه إلى رسميّة، وطلب منها أن تأكلَه، فرفضتْ بصوتٍ أعلى وأشدّ. استدارَ إلى عزيّة، فصرخَتْ به، كانت صرختُها كشراعٍ نشرَ أذرعهُ للإبحار. رفعَ الجنديُّ عقبَ بندقيّتِه ليضربَها، فتحفّزْنا للدفاعِ عنها، كأنّنا لم نكُنْ قبلَ لحظاتٍ نئنُّ من ثقلِ القهر.

مواطن المؤسسة الفلسطينية
لدراسة الديمقراطية

ISBN 978-9950-312-69-2